

د. سامية عامر

الصليبيون في شمال أفريقيا

حملة لويس التاسع على تونس
(١٢٧٠ م) - (٦٦٨-٦٦٩ هـ)

الصليبيون فى شمال أفريقيا

حملة لويس التاسع على تونس

١٢٧٠ م / ٦٦٨ - ٦٦٩ هـ

تاليف
دكتورة/ ســــــامية عامــــر
كلية التربية ببور سعيد - جامعة قناة السويس

الطبعة الأولى
٢٠٠٢م

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهواري

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : وائل محمود

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

– ٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون – فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 387169

إهـــداء

إلى روح أستـاذى الفاضل
دكتور جوزيف نسيم يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

لقد شهد العالم منذ أقدم عصوره وحتى اليوم العديد من الأحداث الهامة والانتفاضات الخطيرة التى اهتز لها كيانه والتى تركت بصماتها على سير مجرى الأحداث. ولعل أهمها هى الحركة الصليبية التى اقتطعت من تاريخ البشرية ثلاثة قرون من الزمان ، هى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) والتى تمثل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط والأمر الهام أن هذه الحركة تركت آثارها على المسرح الدولى ليس حتى نهاية العصر الوسيط فحسب بل امتدت بشكل أو بآخر لتؤثر على سير الأحداث فى التاريخ الحديث والمعاصر .

وقد اشتملت تلك الحركة على العديد من الحملات العسكرية الكبيرة التى تعرض لها العالم العربى الإسلامى من مشرقه إلى مغربه وفيما بين هذه الحملات وجدت فترات من الهدوء النسبى فى بعض الأحيان وفترات ساخنة تخللتها معارك عديدة فى كثير من الأحايين.

ويلاحظ أن الحملات الكبيرة ظهرت فيها مؤلفات قيمة عديدة بمختلف اللغات الحية وكانت أقلها حظا هى حملة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس عام ١٢٧٠م/ ٦٦٨-٦٦٩هـ وكانت هذه الحملة هى آخر حملات القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) وهى التاسعة فى عداد تلك الحملات وكان قد ظهر كتابان لأستاذى الدكتور جوزيف نسيم يوسف عن حملتى هذا الملك على كل من مصر والشام فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى)، فرأيت اختيار حملته الثالثة على تونس فى الشمال الأفريقى فى أواخر ذلك القرن لتكون موضوعا لدراستى لدرجة الدكتوراه .

وهذه الحملة لم يظهر فيها مؤلف علمى قائم بذاته يتناول كافة أحداثها ، ووقائعها كما عبرت عنها مختلف الوثائق والمصادر القديمة من عربية ولاتينية وفرنسية قديمة وإيطالية قديمة وغيرها .

حقيقة ظهر منذ قرابة مائة عام مضت كتاب بالألمانية بعنوان :

Sternfeld , Luduigs des Heiligen Irreuzzug nach Tunis (1270) und die politik karls I Vinsizilien , Berlin 1896 .

إلا أن هذا الكتاب إلى جانب قدمه فقد عبر عن الحملة من وجهة نظر واحدة اعتمد فيها أساسا على الأصول الأجنبية، فجاءت دراسته معبرة عن شطر واحد من البحث دون الشطر الآخر، أي غير معبرة عن الحقيقة التاريخية كاملة وما قيل عن مؤلف شترنفلد يقال أيضا عن مؤلف سيلفستر دى ساسى Silvester de Sacy و ج. جراند شامب G. Grand Champ وبذلك أصبحت مثل تلك المؤلفات غير ذات موضوع بعد فقدانها لقيمتها. فجاءت دراستنا لتسد هذا النقص ولتعبر عن مختلف وجهات النظر . وهذا هو الهدف من أى بحث فى التاريخ . هذا فضلا عن العديد من القضايا الهامة المتعلقة بتفاصيل الحملة التى أغفلتها تلك المراجع وقد قمنا بدراستها وتحليلها وتوصلنا إلى آراء حاسمة بشأنها .

وفيما عدا ذلك ، فكل ما هنالك اشارات مقتضبة فى المؤلفات الخاصة بتاريخ الحركة الصليبية. وفى مقدمتها كتابا رينيه جروسيه وستيفن رانسيمان ومجموعة بنسلفانيا عن تاريخ تلك الحركة والتى صدر منها حتى الآن خمسة أجزاء، وهناك أيضا مؤلفات عن سيرة لويس التاسع وضعت أساسا لتمجيده وذكر مآثره وفضائله ولاتحتل حملة تونس مكانا رئيسيا فيها نذكر منها على سبيل المثال مؤلفات

H. Bor deaux, E. Berger ,

A. Bailly , de Tillemont , F. Perry , W knox, M. Guizot ,

A . Bury, J. Boulenger, H. Wallon , M. Sepet .

كذلك توجد بعض الدراسات فى جوانب معينة من الحملة أو أحد عناصرها وهى تدور بصفة خاصة حول معاهدة الصلح بين شارل كونت أنجو والمستنصر وذلك فى عدد من المجلات والدوريات التاريخية المعروفة، وقد ظهرت هذه الدراسات هى الأخرى منذ زمن بعيد وفى صفحات قلائل وتعبر فى معظمها ، أيضا عن وجهة نظر واحدة دون وجهة النظر الأخرى فجاءت مبتورة لاتفي بالغرض المطلوب .

كل هذا تلافيناه فى دراستنا عن الحملة معتمدين على وثائقها وأصولها من عربية وغير

عربية خطية ومطبوعة وكانت النتيجة دراسة موضوعية متكاملة قائمة على أساس منهجي سليم فرضته طبيعة الموضوع وقد تناولنا عشرات القضايا والنقاط الغامضة التي واجهتنا بالدراسة النقدية القائمة على المقارنات والموازنات التاريخية وتوصلنا منها إلى استنتاجات وآراء واضحة محددة تناولتها بالتفصيل في قمة البحث واستعرضناها بإيجاز وتركيز في خاتمته .

على أية حال إذا كانت جغرافية أي موقع هي مفتاح تاريخه فهذا يصدق وينطبق تماما على تونس فجغرافيتها هي في الحقيقة مفتاح تاريخها الذي يكشف عن الأسباب الحقيقية التي وجهت حملة لويس التاسع الصليبية إليها وهذا يتطلب منا وقفة أمام مسرحها الجغرافي حيث وقعت أحداث الحملة، أن نظرة فاحصة مدققة إلى خريطة تونس تبين أنها تقع في الجزء الشمالي الغربي من قارة أفريقيا[١] يحدها شمالا وشرقا ساحل البحر الأبيض المتوسط وجنوبا ولاية طرابلس والصحراء الكبرى، وغربا الجزائر ، وهي تكون مع الجزائر والمغرب وحدة جغرافية واحدة[٢] ابتداء من خليج سرت الكبير حتى المحيط الأطلسي، باستثناء برقة وطرابلس اللتين تعرفان اليوم باسم ليبيا واللتين كانتا امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية. وقد أثرت هذه الطبيعة الجغرافية على بلاد المغرب لكي يحافظ على معالم حضارته وأصوله عبر التاريخ [٣]. فقد تأثر المغرب باتجاه سلسلة جبال أطلس في جهة موازية للساحل [٤]. لذا فقد عمل على أن يقف حجرة عثر في طريق المؤثرات الأوربية [٥]. ولعبت تلك الجبال دورا هاما لحماية المغرب بوجه عام وتونس بصفة خاصة من تلك الاعتداءات الأوربية المتكررة ضدها. فقد ساعدت الطبيعة المغرب الإسلامي على المقاومة والقدرة على الاحتمال واعتلاء الجبال

١- لفظ أفريقيا مشتق من كلمة Aphri التي أطلقها الفينيقيون على سكان قرطاجنة ثم عممه اليونانيين وأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي ويقال أنها سميت أفريقيا لأنها فرقت بين مصر والمغرب وللمزيد أنظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص١٣٦-١٣٧ ، أحمد بن خالد: تاريخ المغرب الأقصى، ج١ ، ص٢٢، جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص٢٦١ ، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ، ص٦-٧ .

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦، ص٩٨ .

٣- عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص١٢٨، لوبون : حضارة العرب، ص٢١٦ .

٤- الاصطخري : مسالك الممالك، ص٣٩، البشاري: أحسن الاقاليم، ص٢٢٦، ٣١٥ .

٥- جمال الدين الدناصوري : جغرافية العالم، ص١٤٣ .

وقطعوا خط الرجعة على الصليبيين بعد وفاة ملكهم لويس التاسع، ثم أن جهود الملك شارل الانجوى ذهبت هباء يوم أحكم التونسيون خططهم ووحدوا هدفهم للاستفادة من هذه الجبال.

تبلغ مساحة تونس ١٦٥ كيلو مترا مربعا، وتطل على الطرف الشرقى لسلسلة جبال اطلس ويقسمها الجغرافيون العرب إلى ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الشمالى وهو عبارة عن مزارع خصبة يمر على جانب كبير منها نهر مجردة الذى ينبع من الجزائر ويعتمد أهل تونس عليه فى الشرب [١].

أما القسم الثانى فهو الساحل الذى يمتد من جهة الشرق بحذاء البحر، ويتألف من أراض خصبة غزيرة العمران. أما القسم الثالث فهو ناحية الجنوب ويشتمل أيضا على سهول عظيمة ومراع شاسعة وواحات ونخيل . وتونس مدينة جميلة بالغ الرحالة والجغرافيون فى ذكر محاسنها . يقول عنها الادريسى : «أنها مدينة حسنة تحيط بها من جميع الجهات المزارع والمراعى المعمورة الخيرات» [٢]. وهى من أصلح بلاد أفريقيا ماء وهواء وأكثرها خيرا[٣]. كما يصفها ابن حوقل قائلا «أنها مدينة ليست بالصغيرة ولا الكبيرة»[٤]. وقد منحها هذا الموقع الممتاز شهرة عظيمة فكانت ملتقى الصناع والفنانين، وكان الأندلسيون يفخرون بوجودهم فيها [٥]. ويرجع هذا إلى قرب المسافة بين تونس وأعظم بلاد أفريقيا آنذاك وهى قرطاجنة. وقد أثر امتداد الساحل الأفريقى فى طبيعة السكان وكانوا يتميزون بنشاطهم البحرى العظيم وهو جزء لايتجزأ من حياتهم الاقتصادية، وهو الأمر الذى ظهر بوضوح حين استقل المغرب عن تبعيته للأمويين وبلغ نشاطهم ذروته فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (القرنان التاسع والعاشر الميلاديين) وتمكنوا من احتلال صقلية وجنوب إيطاليا ومالطة وسردينيا[٦].

١- البشارى : أحسن التقاسيم، ص٢٢٩، ابن حوقل: صورة الأرض ، ص٧٢ ، أنظر أيضا. يسرى الجوهرى: أفريقيا ، ص٢-٣ .

٢- الادريسى: صفة المغرب والأندلس، ص١١١ .

٣- الدمشقى: نخبة الدهر وعجائب البر والبحر، ص٢٣٧ .

٤- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٧٢ .

٥- القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص١٧٣ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٧٢ .

٦- عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٧ .

وتونس في العصر القديم لم تكن سوى قرية صغيرة مهملة ظهرت قيمتها ومزايا موقعها الجغرافي بعد الفتح الإسلامي لها، حين قرر الحسان بن النعمان تحطيم قرطاجنة مكمن الخطر على الوجود الإسلامي، وعمل على عمارة تونس بدلا منها لتكون المقر الرئيسي للحكم الإسلامي هناك، وهي تقع في جون[١] خارج عن البحر على بحيرة محتفرة عرضها أكثر من طولها، لأن طولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال ويقال أن هذه البحيرة كانت موجودة منذ ألفي عام قبل ذلك التاريخ وقد غلب عليها ماء البحر ، إلى أن أعيد حفرها في حين يذكر أبي أبي دينار «أن هذه البحيرة لم تكن موجودة من قبل وإنما حفر في البر حفير انتهى به إلى مدينة تونس ومن فم هذه البحيرة إلى قرطاجنة ثلاثة أميال، ويؤكد أن حفرها تم في العصر الإسلامي لأن قرطاجنة كانت تقف حائلا بين تونس والبحر، فلما خربت أصبح من الضروري حفر هذه البحيرة لجذب مياه البحر إلى تونس[٢]. حيث كانت المسافة بين تونس والبحر ستة أميال[٣]، وقيل أربعة أميال [٤].

وتتصل البحيرة بالبحر عن طريق فم الوادي[٥] وتبلغ مساحة هذه البحيرة أربعين ميلا وقد أجرى ماء البحر في هذه البحيرة حتى جاوز أعلاها بربع قامتها وربما أقل[٦]، وعند آخر هذه البحيرة جزء يتسع فيه الماء ويعمق ويطلق عليه التونسيون اسم وقور، وإليه تصل السفن المحملة بالبضائع وترسو هناك. ونظرا لكبر حجم السفن أحيانا كان التونسيون يعدون زوارق صغيرة تفرغ المراكب الكبيرة فيها حمولتها ، وهكذا حتى تنتهي عملية النقل حيث أن سعة البحيرة لا تحتمل إلا الزوارق الصغيرة [٧]. وقد لعبت تلك البحيرة دورا كبيرا في اقتصاد

١- الجون : هو الجزء الضيق من البحر الداخل في الأرض .

٢- الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٤٣ .

٣- ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، ص٨ .

٤- الحميري: الروض المعطار، ص١٤٣ .

٥- فم الوادي يعـــرف إلى الآن في تونس باسم حلق الوادي، انظر ابن أبي دينار: المؤنس، ص٨ ، الادريسي: صفة المغرب ، ص١١٢، البكري: المغرب ، ص٣٧-٣٨ .

٦- القامة: هي طول الشئ انظر جبران مسعود : الرائد، ج١، ص١١٤٧ .

٧- الادريسي: صفة المغرب، ص١١١، الدمشقي : نخبة الدهر، ص٣٣ .

تونس، واعتمد الأهالى عليها فى الصيد وهم على علم بمواضعها الخطرة التى كانوا يتجنبونها خشية المخاطر [١].

ويحيط بتونس سور دائرى تبلغ مساحته أربعة وعشرين ألف ذراع[٢]، وقيل واحد وعشرين ألف ذراع [٣]، ويصف الادريسى هذا السور أنه من تراب وثيق [٤].

وجميع مزارعها وخيراتها داخل هذا السور الذى يقف كسياج حولها [٥]. والسور ليس قديما مثل البحيرة بل يرجح أنه بنى عام ٤٠٠هـ (القرن العاشر الميلادى) حيث يذكر ابن أبى دينار أنه بعد أن دمر أبو يزيد الخارجى مدينة تونس قام الشيخ محرز وأمر ببنائه ليحمى تونس من النهب والدمار[٦] فى حين يعود ابن أبى دينار ويذكر أن النواة الحقيقية فى بناء هذا السور تعود إلى بنى الأغلب[٧] ويقال أن هذا السور كان جهة الشمال فقط وليس دائرى[٨].

والمسافة بين تونس والقيروان تبلغ مائة وسبعة وخمسين ميلا [٩]. وقيل أن المسافر برا كان

١- ابن أبي دينار : المؤنس ، ص٨، الحميري: الروض المعطار، ص١٤٢، ابن خرداذبة المسالك، ص٨٧ .

٢- الذراع : مقياس طوله ما بين ٥٠-٧٠ سنتيمتر ، أنظر جبران مسعود: الرائد، ج١، ص٦٩٢ .

٣- ابن أبي دينار: المؤنس، ص٨ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص٧٩ ، الحميرى ، الروض المعطار، ص١٤٢ .

٤- الادريسي، صفة المغرب، ص١١١ .

٥- القزويني: آثار البلاد، ص١٧٢، الادريسي ، ص١١١ .

٦- هو أبويزيد بن كيداد الخارجي ، ولد بالسودان ، وهو زناتي الأصل أتى أبوه إلى المغرب وتعلم القرآن وخالط أهل الشيعة الذين كانوا ينادون بتكفير أهل السنة واستباحة أموالهم، وقد عاصر أبويزيد عهد الخليفة المهدي عام ٣٦٢ هـ / ٩٤٢م وتحدى الخليفة وأعلن ضده راية العصيان وقويت شوكته على عهد الخليفة القائم، ودخل أفريقيا وأحدث دمارا كثيرا بتونس وللمزيد أنظر ابن أبي دينار : المؤنس ، ص٥٧-٦٢ .

٧- نسبة إلى إبراهيم بن الأغلب الذى ولاه الخليفة هارون الرشيد ولاية تونس فاستقل بها. انظر ابن أبى دينار ؛ المؤنس ، ص١٧ .

٨- البكري ؛ المغرب في ذكر تاريخ أفريقيا والمغرب ، ص٣٨-٣٩ .

٩- اختلفت المصادر العربية على تحديد المسافة بين تونس والقيروان فهناك آراء تقول أنها مائة ميل أو أزيد أو أقل وللمزيد انظر: البكرى: المغرب ص٣٧-٣٩، الحموى : معجم البلدان، ج٤ ، ص٦٠، ابن أبي دينار: المؤنس ، ص١٢ .

يقطعها في ثلاثة أيام[١] وكانت تونس بعد عمرانها في صدر الإسلام قد بلغت من الشهرة والعظمة لدرجة تسميتها بلعدي القيرواني، ويقال أنه كان يوجد بين تونس والقيروان موضع يقال له «مخفة» يحدث به أمر عجيب من كل عام ففي وقت حصاد الزيتون كان يوجد نوع من الطيور يحمل كل طائر في مخلبيه زيتونتين ويأتي إلى هذا الموضع ويلقي بهما مما يؤدي إلى زيادة غلة الزيتون وأيضا زيادة في النخل حددها القزويني بأنها بلغت ما يزيد من سبعين ألف درهم في ذلك الحين[٢].

وكان يوجد بتونس خندق حصين وعدد من الأبواب حددها الادريسي بثلاثة [٣]، في حين قال البكري أنها خمسة أبواب[٤]، ويذكر ابن أبي دينار أنها عشرة أبواب وتناقص عددها على عهده إلى سبعة[٥] ومن أسماء هذه الأبواب هي باب الجزيرة في الجنوب وباب البحر وهو يفتح على الثغر ، وباب قرطاجنة في الشرق، وباب السقائين في الشمال وباب أرطه في الغرب، وكان مدخل تونس عليه سلسلة غليظة تحميها من تسرب سفن الأعداء ويحميها من الجنوب حصن المجرد ويعرف باسم قصر السلسلة[٦].

أما عن مسميات تونس فقد اختلفت المصادر حولها فمن المؤرخين من يقول أن اسمها في البداية كان ترشيش ولما قدم إليها المسلمون للمرة الأولى نزلوا بصومعة داخلها يسمى ترشيش[٧]، وكانوا يتأنسون هناك بصوت راهب، فيقولون فيما بينهم هذه الصومعة تونس،

١- القزويني ، آثار البلاد، ص١٧٣ ، الاصطخري، مسالك الممالك، ص٣٩ ، البشاري، أحسن التقاسيم، ص٢٢٩

٢- القزويني ، المصدر السابق، نفس الصفحة.

٣- الادريسي: وصف المغرب، ص١١١ .

٤- البكري: المغرب، ص٣٧ -٣٩

٥- ابن أبي دينار المؤنس، ص١٠ ، الحميري: الروض المعطار، ص١٤٣-١٤٥

٦- البكري، المصدر السابق، نفس الصفحة.

٧- يذكر أ.د. عبد العزيز سالم أن أول عهد المسلمين بتونس ونواحيها كان زمن الخليفة عثمان بن عفان وذلك بقيادة عبدالله بن أبي السرح ولكنها ليست مرحلة الفتح المنتظم بل هي مرحلة الغارات. انظر عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير، ١٤١ ، ١٧٢

أي تحت الأنسة وعدم الوحشة فلزمها هذا الاسم، ويقال أن العرب كانوا طوال الليل الموحش لايسمعون سوى صوت الرهبان فقالوا على هذه البقعة أنها تونس في حين هناك رواية أخرى مفادها أن العرب وجدوا زيتونه ملقاه في مكان اقامة جامع الزيتونة فطلقوا عليها اسم تونس ولزمها الاسم هي والجامع [١]، ويورد ابن أبي دينار رواية أخرى فيقول «إن العرب حين نزلوا صومعة ذلك الراهب أضافهم وأطعمهم دشيش الحنطة، فصار هذا عادة أهل البلد في رأس السنة يأكلون هذا الدشيش وفي احدى جلساتهم مع الراهب رأوا مكانا يحيط به الشوك من كل جانب فسأل العرب الراهب عن هذا الشوك فأخبرهم أنه كان يرى في بعض الليالي نورا ساطعا في هذه البقعة فعلم أنه سيكون لها شأن فعمل على حمايتها من القاذورات ونجس الكلاب وصلى العرب الأوائل في نفس المكان ، وقالوا فيما بينهم إن صح هذا القول فهي بقعة مباركة لأنها شهدت صلاة العصر الأول من المسلمين ، وظلت على هذا حتى دخلها الإسلام بصورة فعلية[٢] ويؤكد ابن حوقل رواية ابن أبي دينار أن اسمها كان ترشيش وطوره العرب إلى اسم تونس [٣].

ويشير البكري «أن لتونس خمسة أسماء هي ترشيش ، وتونس أو تانسي، والحضرة ، والخضراء، والدرجة العليا. أما ترشيش فهو اسمها في العصر القديم وتونس اسم حادث لها واشتقاقه من التأنيس أو الأنسة، والحضرة لأنها كانت حضرة السلاطين من بني حفص ، والخضراء لكثرة الزيتون خاصة عند اشتداد لونه الأخضر عليه، أو سميت الخضراء لكثرة مزارعها وخيراتها الزراعية، أما الدرجة العليا فلأن بها الجامع الأعظم ، وقيل لارتفاعها عن باقي البلدان ولارتفاع صيتها وشهرتها بين دول بلاد المغرب »[٤] بينما يشير الادريسي إلى

١- يذكر أ.د. عبد العزيز سالم أن سبب تسميته بالزيتونة نسبة إلى القديسة زيتونة التي عاشت زمن استيلاء الوندال على قرطاجنة وتونس من الروم وقت انهيار الإمبراطورية الرومانية ، انظر عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص١٥، ٤١ ، ٢٤٩ ، جوزيف نسيم يوسف ورثة الامبراطورية، ص٥٠

٢- ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص١٠-١١، ١٧ .

٣- ابن حوقل صورة الأرض، ص٧٣ ، الحميري، الروض المعطار ص١٤٣ ، راجع أيضا عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص٣٤٢ .

٤- البكري، المغرب ، ص٣٧-٣٩

أن كلمة تونس حرفت من اسم طرشيش الذي كانت تعرف به قديما[١] ويضيف الدمشقي إلى أن اسم تونس اشتق من لفظ ترسوس الذي كان يطلق عليها قبل دخول الإسلام[٢] بينما تشير الروايات الأخرى إلى أن اسم تونس في الأصل قرطاجنة [٣]، وهي تسمية مجارية لقرب المسافة بين تونس وقرطاجنة ، ولما كانت تتمتع به قرطاجنة من شهرة وعظمة بين باقي مدن شمال أفريقيا.

ويطلق عليها أيضا اسم تونس العريب لأنه قلما دخلها غريب عنها إلا وتعلق بها ولايفارقها إلا وهو متحسر عليها[٤] ويضيف ابن أبي دينار قائلا «سألت بعض النصارى عن أصل تسميتها فقالوا «تنس» في كتبنا وتنس معناها باللسان الاغريقي القديم «تقدم»[٥]

ويرجع الفضل إلى العرب في بناء دار صناعة السفن في تونس فعندما نظم الخليفة الوليد بن عبد الملك الحملات العسكرية التي قادها حسان بن النعمان لفتح تونس[٦]، شعر المسلمون

١- الادريسي. وصف المغرب، ص١١١، المسعودي. مروج الذهب، ص٥٧

٢- الدمشقي. نخبة الدهر، ص٢٢ .

٣- ابن الفقيه ـ مختصر البلدان، ص٧٩ ، ابن خرداذبة المسالك والممالك ، ص٨٧ راجع أيضا محمد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي، ص١٤١

٤- ابن أبي دينار ، المؤنس، ص١٦ ، والمزيد انظر لوبون ، حضارة العرب ، ص٢١٦ ، أحمد بن خالد، تاريخ المغرب الأقصى، ص٢٣، حسن عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ص٦-٧

٥- ابن حوقل، صورة الأرض ، ص٧٧، ابن أبي دينار: المؤنس ، ص١٧ ، ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٢٢٤ .

٦- لقد اختلفت الروايات حول اسم القائد العربي الذي فتح تونس، فهناك روايات تنص على أن زهير بن قيس البلوي هو الذي افتتحها عام ٦٧هـ (٦٨٧م) في حين وردت إشارات أخرى وهي الأصح أن الذي افتتحها هو حسان بن النعمان عام ٧٧هـ (٦٩٧م) وأنه قام على رأس حملتين منظمتين وذلك بعد استشهاد زهير بإفريقيا ولم يكن قد فتح بعد أما حملة حسان الأولى، كانت عام ٧٤هـ (٦٩٤م) والثانية عام ٧٨هـ (٦٩٨م) وعندما وصل حسان إلى هناك بادر بتشديد الحصار حول قرطاجنة ويقال أنه أقام معسكره بتونس ثم بدأ بقرطاجنة وأحكم حصاره حتى افتتحها ثم أمر بتخريبها كي لايتخذها الروم منفذا للانتقام من حسان مما دعا إلى ضرورة بناء وتعمير مدينة تونس التي كانت مهملة بسبب وجود قرطاجنة بشهرتها العظيمة التي طغت على معظم مدن أفريقيا والمزيد عن الفتح الإسلامي لتونس انظر ابن أبي دينار المؤنس، ص١٤٠-١٥ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٧٢ ، الحميري، الروض المعطار، ص١٤٤-١٤٥ ، ابن خلدون العبر، ج٤ ، ص٨٧ ، راجع أيضا عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص٢٤٠-٢٥٦ .

بأنه لابد من اقامة تحصينات عسكرية قوية تحمي حدود دولتهم المدينة تونس من غارات البيزنطيين، لذلك أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بارسال ما يقرب من ألفي قبطي مصري للعمل على تعضيد موقف حسان بتونس ووضع أسس دار الصناعة هناك[1] وخرق حسان البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة ، ويقول ابن أبي دينار أنه جر البحر ١٢ ميلا أي حفر له حتى وصله إلى دار الصناعة التي جعل منها مرسى وميناء هام للسفن [2]، وأصبح هذا الميناء القاعدة البحرية التي كانت تقلع منها الأساطيل الإسلامية في صراعها ضد البيزنطيين بعد احتلال قرطاجنة [3]، كما شيد بالقرب من دار صناعة السفن دار للإمارة وثكنات للمرابطة وهذه الانشاءات العسكرية ظلت في تطور مستمر على مر العصور، فقد أراد فيها موسى بن نصير، لدرجة أن بعض المؤرخين ينسب إليه بناءها ، وفي الحقيقة فإن النواة الأولى تعود إلى الحسان بن النعمان . أما ما فعله موسى وعبيدالله بن الحبحاب ، والأغالبة، وغيرهم ممن حكموا تونس فما هي إلا اضافات وبصمات ذات قيمة أضيفت الجهد والنواة الأولى التي زرعها حسان بن النعمان، وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن تونس لم يكن ينقصها من الناحية العسكرية شئ بل كان يمكن أن تقف حائطا منيعا في وجه قادة الحملة الصليبية التاسعة فقد وصف البكري دار الصناعة هذه بأنها كانت متصلة بالميناء والميناء متصل بالبحيرة والبحيرة متصلة بالبحر [4]، وبالإضافة إلى المنشآت العسكرية التي اقامها المسلمون ، فإنه يرجع الفضل أيضا إلى حسان بن النعمان في وضع نواة جامع الزيتونة، الذي أراد عليه وطوره عبيدالله الحبحاب [5]. وجامع الزيتونة بني على مستوى رفيع من الفن

١- ابن خلدون المقدمة، ص٢٥٣، البكري، المغرب ، ص٣٨ ، راجع أيضا أبوزيد شلبي، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص١٦٧ .

٢- مرسى رادس هو ميناء تونس على البحر المتوسط انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٦٠

٣- ابن أبي دينار، المؤنس ، ص٤١ ، راجع أيضا عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ص٢٤٩ .

٤- البكري، المغرب ، ص٣٧ -٣٩ .

٥- عبدالله بن الحبحاب هو عامل الخليفة هشام عبد الملك على مصر وكان من أسرة عريقة وأميرا جليلا وكاتبا بليغا أمره الخليفة بالمسير نحو أفريقيا وولاه ايالها عام ١١٠هـ (٧٣٢م) وينسب إليه خطأ بناء دار الصناعة ولكنه أزاد عليها وطورها هي والمسجد انظر ابي دينار ، المؤنس ، ص٤٦

المعماري [١]، وهو يطل على البحر وينظر الجالس فيه على جميع جواريه » [٢].

وتشتهر تونس في الفترة موضوع الدراسة بالأسواق الكثيرة والحمامات وعضادات الأبواب الرخامية الرائعة الصنع وهو ما اشتهرت به قرطاجنة . كما كان يصنع بها الأواني الخزفية الشديدة البياض وقد صنعت خصيصا للماء ولايرى لها مثيل في بقية بلاد المغرب[٤] واشتهرت أيضا بالقصور الرائعة ومنها قصر يقع على أعلى جبل يسمى جبل التوبة لاينبت به زرع ويسميه التونسيون الزلاج وشرق هذا القصر غار مصحى الباب يسمي المشرق ، وبالقرب منه مين جارية وقد اندثر القصر ولايوجد سوى المغارة . وفي الطريق إلي شاطئ البحيرة كانت توجد عين ماء يقال لها الحمام وتشتهر تونس بتعدد ثرواتها الطبيعية ومنها الثروة السمكية حيث يصطاد التونسيون أنواعا عديدة من الأسماك والحيتان[٦] ومنه نوع يقال له البقونس وفيه مثل شعبي «لولا البقونس لم يخالف أهل تونس» [٧]. والسبب في هذا المثل هو أن أهل تونس كانوا معروفين بمخالفة الحاكم في الرأي والخروج على الولاة دائما ويصفهم القرويين بأنهم مشهورين باللؤم ودناءة النفس والبخل الشديد والشغب والخروج على الولاة وقد قال أحد ولاتهم فيهم شعرا يؤكد هذه الصفات:

١- لقد ثار جدل بين المؤرخين حول المؤسس الحقيقي لجامع الزيتونة إلي أن قام أ.د. أحمد فكري بدراسة علمية أثرية حوله وتبين من النقوش الموجودة به أنه بني في أوائل القرن الثالث الهجري (أوائل القرن التاسع الميلادي) وللمزيد حول التطور العمراني لجامع الزيتونة انظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ، ص٤٣٥-٤٤٢ .

٢- الجارية : هي السفينة ومنها قوله تعالي في سورة الرحمن «وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام» آية ٢٤ .

٤- العضادة : هي عضادة الطريق أي ناحيته وعضادة له أي تعاونه وتوافقه وعضادتا الباب أي خشبتاه من جانبيه والعضاد ما يحيط باليد من حلي ونحوها . أنظر جبران مسعود : الرائد ، ج٢ ، ص ١٠٢٠

٥- الحميري: الروض المعطار، ص١٤٣ ، ابن دينار: المؤنس ، ص١٢، المسعودي: مروج الذهب ، ص٧٥

٦- ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٣ ، الحميري: الروض المعطار، ص١٤٠ ، ابن أبي دينار: المؤنس ، ص١٢

٧- الحميري: المصدر السابق، نفس الصفحة .

لعمرك ما ألفيت تونس كاسمها ولكن ألفيتها وهي توحش[١]

وأصدق دليل على ذلك السياسة الملتوية التي سلكها المستنصر صاحب تونس ازاء حملة لويس التاسع على بلاده، وترك أرضه نهبا للعدو. ومن الغريب أننا لم نسمع في هذه الفترة ولم نتمكن من العثور على أي اشارات تفيد بخروج الشعب التونسي ضد حاكمه رغم تظاهره الواضح بالممالأة مع العدو، وقد وصفها الخليفة عمر رضي الله عنه «بأنها افريقيا ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها»[٢].

وعلى أي الأحوال ، فمن المعروف أن مدينة تونس تطورت تطورا ملحوظا منذ الفتح الإسلامي لها وتميزت باستقرار ورخاء اقتصادي تمركز في حاصلاتها الزراعية ومحاصيلها المريدة . كما أعطى لها موقعها الممتاز مجالا واسعا لكي تزدهر تجاريا ، حيث كان لقرب جزيرة صقلية من تونس أثر عظيم في رواج التجارة بها وجعل من تونس حلقة اتصال بين الشرق والغرب[٣]. كما ازدهرت أيضا عن طريق صناعة الخمور نظرا لكثرة محصول العنب بها [٤]. ويذكر ابن بطوطه أن أهل المغرب عادة كانوا يتمتعون برخص أسعارهم عن مصر [٥]، وكثرة محاصيلهم من الزيتون والسفرجل واللوز العجيب والتين الأسود الكبير والرمان الذي له حلاوة لاتوجد في غيره والبطيخ والموالح [٦]. وقد ترتب على انتعاش تونس اقتصاديا أن عقدت العديد من المعاهدات الاقتصادية مع جنوة وبيزا وصقلية والبندقية وسردينيا وغيرها، وكانت شوارع تونس تعج بالتجار المسيحيين من كل الجنسيات ، وكان التونسيون سفراء المغاربة في بلاد أوربا وشكلوا وزنا وثقل لايستهان به ابان الحملة الصليبية عليها

١- القزويني. آثار البلاد ، ص١٧٣، الحميري. الروض المعطار، ص١٤٣-١٤٤

٢- كان هذا في مضمون الرسالة التي بعث بها عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص اثناء تقدمه لفتح أفريقية، ورغبته الملحة في الحصول على موافقة الخليفة. فكتب إليه عمر بهذا الرد لأنه كان يعلم بثورات أهلها ونكثهم الوعود. وللمزيد انظر عبد العزيز سالم. المغرب الكبير، ص١٥٦

٣- الادريسي. وصف المغرب، ص١١ ، الحميري. الروض المعطار، ص١٤٥

٤- ابن أبي دينار. المؤنس ، ص١٢-١٣ .

٥- ابن بطوطة : مهذب الرحلة، ص٤٣٢، المشارى. أحسن التقاسيم، ص٢٣٩

٦- ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٧، الحميري: الروض، ص١٤٥، القزويني. آثار البلاد، ص١٧٣

وإذا كنا قد تناولنا في بداية عرضنا للمسرح الجغرافي جغرافية مدينة تونس، فهذا يرجع إلى أهميتها السياسية وقت وصول حملة لويس التاسع إليها ولكن نظرا لأن مسرح الصراع العسكري كان على أرض قرطاجنة نفسها وليس تونس، فمن الجدير بنا أن نتناول أيضا جغرافية وطبوغرافية قرطاجنة قصبة بلاد أفريقيا كما كانوا يسمونها قديما . وقرطاجنة خلال موضوع البحث كانت بلدة صغيرة مهدمة وتابعا سياسيا وعسكريا لتونس، تبعد عنها بما لايقل عن عشرة أميال [١]، وقيل اثنتي عشر ميلا [٢] وهناك أكثر من موضع يحمل اسم قرطاجنة فهناك قرطاجنة الأندلس وهي تقع عند جبل طارق وتعرف باسم قرطاجنة الجزيرة ومرساها عند موضع يقال له وادي الرمل[٣] أما الثانية فهي قرطاجنة الحلفاء بالأندلس[٤] أيضا وهي واحدة من قرى تدمير[٥] وكانت تدمير قد أصبحت في مكانة مرموقة من الناحية السياسية بعد «تدمير مرسية»، وهي في نفس الموضع جنوب الأندلس [٦]، وكانت ترسي عندها المراكب

١- الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٢ ، ابن أبي دينار المؤنس ، ص٢٨

٢- ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٢ .

٣- بعث طارق بن زياد عبد الملك بن أبي عامر في فرقة صارت بحذاء الساحل شمالا واستولت على هذه القرية التي عرفت باسم قرطاجنة الجزيرة وهي تقع في جوف جبل طارق عند مصب نهر يعرف بوادي النهر واستولى على كل المنطقة المحيطة بها انظر المقري نفح الطيب، ج١، ص٢٢٩ ، راجع كذلك عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص٢٧٤ .

٤- الحميري، الروض المعطار ، ص٤٦٢ ، المقري نفح الطيب، ج١ ، ص١٦٨-١٦٩

٥- تدمير هذه أصبحت في موضع مدينة مرسية جنوب أسبانيا ، وقد فتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير ويقال أن الذي فتحها هو عبد الأعلى بن موسى بن نصير وليس عبد العزيز وهناك قصة تتعلق بفتحها وذلك أن ملكها كان يسمى تدمير ولما فشلت قواته في وقف الزحف الإسلامي على تدمير عمل على إخراج النساء وأمرهن بأن ينشرن شعورهن ويقفن على سور المدينة وحملن من بقي من الرجال، فانعقد له الصلح والأمان ودخل عبد العزيز المدينة ووجد بها رجال تدمير بن غندرس وللمزيد انظر الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٢، المقري، نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٧٥ .

٦- لقد عرفت قرطاجنة الأندلس لأن ماء البحر طغى على جزء منها وبقي جزء بسيط ليس له شهرة المدينة الأم ويتضح من بقاياها أنها بنيت على غرار قرطاجنة أفريقيا انظر ياقوت الحموي معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٢، المقري : نفح الطيب ج١، ص١٦٤ ، راجع أيضا عبد الحميد حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص١٥٤

الصغيرة والكبيرة ، ومشهورة بخصبها وأراضيها الزراعية الشاسعة وعذوبة مائها. وأما الثالثة فهي قرطاجنة أفريقيا وتنطق بالفتح ثم السكون وطاء مهملة وجيم ونون مشددة وقيل أن اسمها قرطا وأضيف لها كلمة جنة لطيبها وحسنها[١] وهي من أعظم وأقدم مدن أفريقيا يقول عنها وليم دي نانجي مؤرخ وشاهد عيان الحملة الصليبية على تونس «أما رسونا قرب شواطئ قرطاجنة التي كانت تسمى سيدة مدن أفريقيا على الاطلاق وكانت تتمتع بقدر كبير من المنعة والسيطرة والحصانة»[٢]. ومدينة قرطاجنة غاية في القدم يقال أنها بنيت قبل بناء مدينة روما باثنين وسبعين سنة ويقال أن ملكها كان جبارا عظيم الشأن ويسمى هانيبال Hanibal وكان كثير التعدي على روما فدخلها وقتل ملوكها وأحد بلادهم وبعث إلى قرطاجنة خواتيم الملوك الذين قتلهم . ولما اشتد حصاره على روما أرسل قائد روما أحد قواده وأمره بضرب حصارا شديد حول قرطاجنة وكان اسم هذا القائد الروماني هو شيبيون فخرب رجاله قرطاجنة ونزلوا بديارها ولقنوا هانيبال درسا قاسيا كان من أهم نتائجه بداية تخريب قرطاجنة وتهديمها[٣]، إلى أن أتى المسلمون عند فتحهم لتونس على ما تبقى بها من آثار.

وعلى الرغم من سيطرة الرومان عليها إلا أن قرطاجنة ظلت تتمتع بوزن وثقل اقتصادي كبير في حوض البحر المتوسط[٤]، وظلت تناوئ روما فترات وتثور ضدها إلى أن كانت محنة الامبراطورية الرومانية وتضعضع كيانها[٥]، مما أدى إلى ازدياد الطامعين فيها وعلى رأسهم الوندال الذين تمكنوا بقيادة ملكهم Genrick من الاستيلاء على قرطاجنة فكانت لطمة

١- ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٣ ، وللمزيد عن حكم الفينقيين لقرطاجنة قديما أنظر عبد الحميد حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص١٨-٢٠

٢- Nangis , Vie de Saint Louis, p. 441 .

٣- الحميري: الروض المعطار، ص٤٦٢-٤٦٤ ، ابن أبي دينار المؤنس ، ص٢١-٢٢ ، الدمشقي نخبة الدهر، ص٢٢٥ ، وراجع أيضا آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص٤٣٢، عبد العزيز سالم وآخرون البحرية المصرية، ص٤٦٦، جمال الدين الدناصوري جغرافية العالم، ص١٤٣

٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٣، انظر أيضا عبد العزيز سالم وآخرون البحرية المصرية، ص٤٦٦-٤٦٧

٥- جوزيف نسيم، ورثة الامبراطورية الرومانية، ص٥٠-٥٢، ابراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا ، ص٣٠

قوية وجهت إلى روما حيث اتخذ منها الوندال مركزاً للقيام بالغارات البحرية ضد روما وحاول الرومان جاهدين ارجاعها إلى نفوذهم ولكن دون جدوى حيث منى أسطولهم بهزيمة فادحة قرب قرطاجنة عام ٤٦٨م. وتمكنت روما من ضياعها بأن عقدت معاهدة مخزية مع Gesnck اعترفت بسلطانه على قرطاجنة إلى أن تمكنت الامبراطورية البيزنطية من فرض سيطرتها على المغرب ورحبت قرطاجنة بالبيزنطيين لسوء معاملة الوندال لشعبها وظلت هكذا إلى أن تم الفتح العربي الإسلامي لها على يد حسان بن النعمان[١].

وقد حبت الطبيعة قرطاجنة مقومات هامة نظرا لوقوعها على ساحل البحر المتوسط وأدرك الرومان والوندال والبيزنطيون ذلك ، وفطن أيضا حسان بن النعمان إلى أهميتها في ممارسة النشاط الاقتصادي والعسكري[٢] وأشاد حسان بذلك في الوقت الذي شعر فيه بخطورتها على الوجود الإسلامي هناك حيث أنها كانت المعبر السهل أمام البيزنطيين لتوجيه الضربات القاسية إلى المسلمين بتونس لذلك أمر بتخريبها وأتى على ما بها .

هذا عن تاريخ قرطاجنة السياسي قبل الحملة عليها، أما عن جغرافيتها فهي تقع أعلى مدار السرطان باحدى عشر درجة ، طولها حوالي ٢٤ درجة وعرضها ٣٥ درجة[٣] بينها وبين بحيرة تونس المحفورة حوالي ثلاثة أميال ونصف وهو الموقع الذي شهد المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة يحيى بن صالح والصليبيين. ويتصل بها من جهة الغرب إقليم سطفورة بمدائنه الثلاث وهي بنزرت واشلونه وتبيجه [٤]. ويحيط بقرطاجنة ثلاثة أسوار دائرة يضرب البحر فيها من كل جانب[٥] ونظرا للتخريب المتكرر الذي أتى عليها فلم يتبق منها سوى الميناء

١- عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص٦-١٥، ٤٧، ٥١

٢- عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٦، لوبون : حضارة العرب، ص٢٦٢، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص٧ ، إبراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا ، ص١٦-١٧

٣- ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٢

٤- الادريسي : وصف المغرب ، ص١١٤ وأيضا الخوارزمي : كتاب صورة الأرض من جغرافيا بطليموس لقلودي، ص١٦ راجع أيضا عبد العزيز سالم وآخرون ، البحرية المصرية ، ص٤٧٧

٥- ابن أبي دينار : المؤنس ، ص٢٤ ، الادريسي، وصف المغرب، ص١١٢ ، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص٣٢٢، الحميري: الروض المعطار ، ص٤٦٦ .

والبرج وأرض الملقة التي كانت تحتوي على القلعة ويقع ميناء قرطاجنة داخل المدينة، وكانت له شهرة عظيمة وتتمتع برواج تجاري كبير، وكانت تدخله السفن يوميا محملة بالبضائع المختلفة ووقت وصول الحملة كان حربيا مهما وقد فقد أهميته العظمى عند الفتح الإسلامي، وكان يوجد عليه قصور ورباط[١].

أما البرج فكان يعرف باسم برج سليمان [٢]، ويعرفه الزركشي باسم قرطيل الحمار[٣] شرقي قرطاجنة وعلى الرغم من أن اعادة بناء هذا البرج وعمارته حدثت في أواسط القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)[٤]، إلا أن مكانه كان موجودا منذ القدم وتأثر بالتخريب الذي تعرضت له قرطاجنة ، وقد استفاد منه الصليبيون تماما بل كان البرج من أوائل المواقع العسكرية الهامة التي حرص عليها الصليبيون في بداية نزولهم قرطاجنة.

وقد تبقى من قرطاجنة أيضا قلعة تسمى بالمعلقة[٥]، وهي القلعة التي استولى عليها لويس التاسع بعد نزوله قرطاجنة مباشرة ونقل إليها مرضاه، ويذكر الحميري عن تاريخ هذه القلعة «انه كان يسكنها قوم من العرب يعرفون ببني زياد، ولما طلع عبد المؤمن بن علي إلى أفريقيا قبض على أميرهم محمد بن زياد وضرب عنقه وكانت في وقت عمارتها (أي القلعة) من غرائب البناء وظهرت فيها قدرة عظيمة لم يبلغها أحد من قبل»[٦] وقد وصفها الادريسي «بأنها من غرائب البناء في وقت عمارتها [٧]، وربما كانت متصلة اتصالا مباشرا بالبحر».

وقد تعددت الروايات حول محاسن قرطاجنة وروعة مبانيها قبل تخريبها ويقال أن مجاري مياه قرطاجنة لم يوجد مثلها في روعتها، وجميعها من الرخام الأبيض والملون المتعدد

١- ابن أبي دينار: المؤنس ، ص٢٤ .

٢- ابن أبي دينار : المصدر السابق ، نفس الصفحة

٣- القرطيل هو الرأس البارز من البر في البحر وهو اصطلاح جغرافي قديم

٤- الزركشي. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص١٠٢

٥- الحميري : الروض المعطار، ص٤٦٢

٦- الحميري. المصدر السابق ، نفس الصفحة، ابن أبي دينار المؤنس ، ص٢٤

٧- الادريسي. وصف المغرب، ص١١٢، الدمشقي. نخبة الدهر، ص٢٣٥

الأشكال، ويشبهها ياقوت بأن عقود هذه المجاري كانت أشبه بالمنائر وتضاف إلى عظمة منارة الاسكندرية [١].

ويقال أن المسافة بين قرطاجنة والقيروان ثلاثة أيام، والسائر فيها كان يمشي بين جبال متحاذية بعضها إلى بعض وبين تلك الجبال عقود معقودة وعمد مبنية، وفوق هذه العقود يجري الماء بروعة وجمال [٢]، ويصف الحميري قائلا «أن من يدخل قرطاجنة كان يجد في كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل» [٣]، ومن أعجب مبانيها أيضا الحنايا، وهي التي جددها الخليفة المستنصر الحفصي وقت توليه الحكم وجلب الماء عليها إلى بساتينه بأبي فهر وكانت الحنايا هذه من عجائب الدنيا كما يصفها الرحالة العرب، وكان الماء ينبعث إليها من عين يقال لها جوقار أو جلقار، وهي وراء زغوان [٤]، بمسافة كبيرة ويقال أنهم جلبوا إليها ماء زغوان أيضا وكانت تلك الحنايا تغيب تحت الأرض في الأماكن المرتفعة ، فإذا مرت على مواضع منخفضة تكون على قناطر فوقها قناطر، وكان يوجد في وسط قرطاجنة صهريج يقع من هذا الماء المجلوب [٥].

وبالقرب من قلعة قرطاجنة السابق ذكرها كان يوجد قصر يسمى قصر الطياطر [٦]، وكان يتسم بالارتفاع الشاهق وبه قباب معقودة ، ومطل على البحر، شكله مستدير، يقال أن من يراه على بعد يجده كأنه قائم في الهوا» [٧] ويوجد به خمسون قوسا ، كل قوس سعته تزيد عن ثلاثين شبرا ومبني من حجر يسمى الكدان وقد رسمت بمحيط استدارته أنواع من الصور والتماثيل العجيبة والسباع والحيوانات وكان ملمسه ناعما وصنع أيضا ملعبا وناديا كان يجتمع فيه أهل قرطاجنة في أوقات معينة من العام.

١- ياقوت الحموي معجم البلدان، ص٣٢٢، راجع أيضا آدم متز الحضارة الإسلامية ص٢٧٥

٢- المقري، نفح الطيب ج١ ، ص١٦٨ .

٣- الحميري: الروض المعطار، ص٤٦٢ .

٤- يقال أن هذه العين لاتزال موجودة بتونس في موقع يقال له المحمدية وزغوان مدينة بتونس أيضا

٥- وللمزيد عن عجائب البناء في هذه الحنايا انظر الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٤ ، ابن أبي دينار المؤنس، ص٢٤-٢٥ .

٦- طياطر، تحريف كلمة تياتر Theatre أي المسرح انظر ابن أبي دينار المؤنس، ص٢٤-٢٥

٧- الحميري الروض المعطار، ص٤٦٢ ، ابن أبي دينار ، المؤنس، ص٢٤

كما يوجد أيضا قصر يقال له ترمس أو قومش[1]، وكان مبنيا من الرخام الأبيض المفرط في الطول ، يتربع على رأسه سارية من عشرة رجال ، وكان يوجد بها مواجيل يسميها التونسيون مواجيل الشياطين[2] لأنه لايعرف من أين دخلها الماء ولاتزال تلك المواجيل موجودة حتى يومنا هذا . وقد سكن هذا القصر قوم من قطاع الطرق ، فصمم أهل تونس على التنكيل بهم، وهدموا أجزاء من القصر وهم بداخله فماتوا ودفنوا جميعا فيه [3].

واشتهرت قرطاجنة أيضا بمبان عجيبة كان اسمها النواميس[4] وكان عددها ٢٤ داموسا طول كل منها ١٣٠ قدما وبين كل داموسين يوجد حوضات يصل منها الماء إلي جميعها بهندسة وحكمة، وكان الماء الواصل من عين جوقار التي بقرب القيروان إلي قرطاجنة يفرغ في هذه النواميس على عدة قناطير لاتحصى على وزن معتدل على قواعد مبنية بالصخر، وقد انقطع الماء عن هذه النواميس لكسر القناة وخراب قرطاجنة [5].

وكان يوجد بها أيضا قصران من رخام يعرفان بالأختين فيهما ماء مجلوب من الناحية القبلية من قرطاجنة ، وعليه ماء مجلوب من جوف الأرض ومن تحت الجبل، وماء مجلوب من موضع الميناء القديم ومن أعظم ما يوجد في هذين القصرين الرخام بأشكاله الرائعة وألوانه الجميلة وكل قطعة من هذا الرخام ليس لها مثيل[6].

١- الحميري ، الروض المعطار ، ص٤٦٢، ابن أبي دينار، المؤنس، ص٢٤

٢- سميت بهذا الاسم لأنه كان من يتقرب منها ويتمعن كان يسمع دويا هائلا وكانوا يعتقدون بوجود الشياطين داخلها ولكنها اسطورة ، وكل ما في الأمر كما ذكر الحميري، أن الصوت كان يتردد صداه ، ولم يصدق التونسيون ذلك فنسجوا حولها الأساطير . انظر الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٤ ، ابن أبي دينار، المؤنس ، ص٢٤ ، والموجل يقصد به الماء الثائر دون انتظام ومنه الموج والمواج والتموجان ، انظر ابن منظور لسان العرب، ج٢، ص٥٤٨، جبران مسعود، الرائد، ج٢ ، ص١٤٥٣ .

٣- الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٣

٤- النواميس: هي الأحواض أو الهواويس ومفردها ناموس وكانت تستخدم بمعنى السجن ومنها الديماس، انظر المقري، نفح الطيب، ج١ ، ص١٦٨

٥- الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص١١٣ ، الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٣، ابن أبي دينار ، المؤنس، ص٢٤-٢٥

٦- ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص٢٤ ، الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٣، الحموي، معجم البلدان، ج٤ ، ص٣٢٣، الادريسي، وصف المغرب، ص١١٦ .

وقرطاجنة كانت تحيط بها أراض منخفضة عنها عبارة عن سهول ومزارع وحقول لا حصر لها ويزرع بها العديد من الثمار والغلات طوال العام[١].

على الرغم من كل هذه الحضارة العمرانية والمكانة الاستراتيجية والاقتصادية التي تميزت بها قرطاجنة بين كل مدن أفريقيا ، إلا أن يد الخراب امتدت إليها مرارا كما سبق القول فقد دمرتها روما من قبل ، ويوم أتى حسان بن النعمان إلى أفريقيا نزل على قرطاجنة أول ما نزل نظرا للأخبار التي وصلته عن ذيوع صيتها وشهرتها السياسية بين المدن الأخرى ، فحاصرها عام ٧٧هـ (٦٩٧م) واضطر ملكها البيزنطي إلى الهرب ليلا إلى صقلية والأندلس[٢] ودخلها حسان بالسيف ، ولما وجد فيها مطمعا وفرصة سهلة لامتدادات البيزنطيين على المسلمين بتونس أمر بتهديمها وإنشاء مدينة تونس عوضا عنها، وهي القرية الصغيرة المهملة من قبل. ولم يتبق من آثار قرطاجنة حسبما أسلفنا إلا الميناء والقلعة والبرج[٤]، وهي الأماكن التي احتمى الصليبيون بها يوم وصولهم قرطاجنة، وكان من أثر انتشار الفرنج في بقية أراضي قرطاجنة

وهكذا لعب الموقع الجغرافي لتونس وقرطاجنة دوره الخطير في ازدياد الطامعين فيها ، فقد أثر على اقتصادياتها وراجت التجارة بها، وذاعت شهرتها في كل أوروبا وازدهرت تونس حضاريا، وبنيت فيها القصور والمساجد واتسعت عمارتها وازدادت خيراتها، وعمرت أسواقها وعقدت المعاهدات التجارية بينها وبين معظم مدن الغرب، وبنيت فيها الفنادق والمطاعم

١- الإدريسي، وصف المغرب، ص١١٤ .

٢- الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٣

٣- ابن أبي دينار، المؤنس، ص٣٥، ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص١٠، ابن عذاري، ج١، ص٣٥ ، ابن خلدون، العبر، ج٦ ، ص١٠٩ ، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص٣٢٣

٤- اختلفت المصادر حول التحديد الزمني الذي خربت فيه قرطاجنة فمنهم من يقول خربها الرومان ومنهم من يقول خربت على عهد عثمان بن عفان لما أرسل قائده عبدالله بن أبي السرح إلى حوض البحر المتوسط. في حين توجد بعض الآراء القائلة، بأن الحسان هو أول من خربها وللمزيد انظر الحميري، الروض المعطار، ص٤٦٢-٤٦٤، ابن أبي دينار، ص٢٦-٢٧، وراجع أيضا عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ج٢، ص٢٦٥

لاستقبال الزائرين من التجار، لدرجة أن أسواق تونس[١]، ضاقت بهم آنذاك واستمرت هكذا طوال فترة الحملة الصليبية ومدة زمنية كبيرة بعدها إلى أن دخلت في طور الانحدار بسبب الاضطرابات السياسية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي / أواخر القرن التاسع الهجري ولولا كل هذا التطور الحضاري الذي اشتهرت به تونس وموقعها الاستراتيجي الجغرافي الممتاز ما طمع فيها لويس التاسع ورفاقه فالهدف الأسمى بالنسبة لهم هو الاستيلاء على الأرض والمال وقد ظهر ذلك واضحا ومات الشعار الصليبي المعروف وزال القناع الديني الذي طالما نادوا به لتبرير هجومهم على أراضي الإسلام فلو كان الدين هو الأساس لرحلوا إلى بلاد الشام مباشرة واستولوا على بيت المقدس من المسلمين .

١- دائرة المعارف الإسلامية ج١٠ ص١٧٢ .

دراسة تحليلة نقدية لأهم مصادر الموضوع ومراجعه

أولا : المصادر الأجنبية :

تقييمها وأهميتها . وليم دى نانجي- وليم دى شارتر- جوفروا دى بليه- قوائم الفرسان لمؤلف مجهول- تاريخ الامبراطور هرقل لمؤلف مجهول- فضائل القديس لويس لمؤلف مجهول- حوليات ملثر القيارصة- حوليات الأراضي المقدسة لمؤلف مجهول- وليم دى سان باثوس - ويجلر- وليم دى بانوا .

ثانيا: المصادر العربية :

تقييمها وأهميتها ابن خلدون - ابن القنفذ- الغبريني- ابن أبى دينار ابن أبى زرع- الحلل الموشية لمؤلف مجهول- الزركشي- الفيومي- العيني- ابن تغرى بردى- ابن الفرات- ابن واصل- ابن العبرى- اليونيني- ابن أيبك- المقريزى- ابن اياس- ابن رسول.

ثالثا . كتب المسالك والممالك ومؤلفات الرحالة والجغرافيين العرب

الادريسى - ابن خرداذبة - الأصطخرى- المسعودى - ابن حوقل- الحموى.

رابعا : المراجع الحديثة من عربية وأجنبية :

مراجع أجنبية في تاريخ الحركة الصليبية- مراجع أجنبية في سيرة الملك لويس - مراجع أجنبية فى تاريخ انجلترا وفرنسا- مراجع عربية شاملة ومتخصصة في تاريخ المغرب .

موضوع بحثنا وهو حملة لويس الصليبية على تونس، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى/ أواخر القرن السابع الهجرى، يعد من الموضوعات الهامة في تاريخ الحركة الصليبية، فهو الحلقة الأخيرة فى تلك السلسلة الممتدة من الصراع الصليبى الإسلامى

وعند الخوض في غمار أحداث هذه الحملة ووقائعها ، والكشف عن غموضها وفجواتها العديدة، كان لابد من البحث والتنقيب فى بطون الأصول العربية والأجنبية على حد سواء، وكان لابد لنا من وقفة مع مختلف الروايات والأسانيد ومناقشتها ومقارنتها بعضها ببعض بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية والكشف عن أسلم الوقائع وأصولها

واعتمدنا في هذه المصادر على روايات وردت على لسان شهود العيان ممن عاصروا أحداث تلك الزمان، وروايات منقولة عن أصول منها ما فقد، ومنها ما هو متقدم عنها زمنيا وتأتي المصادر الأجنبية في المقام الأول من حيث الأهمية، وذلك بسبب انخراط عدد كبير من المؤرخين الغربيين في سلك الحملة على تونس فكانت معاصرتهم للأحداث من بدايتها إلى نهايتها وتسجيلهم لها ذات أثر كبير في الكشف عن الغموض الذي أحاط ببعض قضايا الحملة ومشاكلها ، بالإضافة إلى الصدق والواقعية الذي تميزت به المصادر الأجنبية باستثناء بعض الأحداث التي تجلت فيها العصبية والتزمت ، وهو ما كشفته لنا المصادر العربية . لقد كانت المصادر الأوربية بمثابة الضوء الذي تسلط على أحداث الحملة بدقائقها وتفاصيلها . ولكن هذا لايعني اغفال المصادر الإسلامية التي كانت بمثابة ينبوع ملئ بالأحداث السياسية التي أحاطت ببلاد المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص وهو ما عجزت المصادر الأجنبية عن السير وراءه وسبر أغواره. حقيقة أن تلك المصادر لم تكن تجهل تماما أحوال العالم الإسلامي ولكن ما ورد بها لايقاس بما زودتنا به الأصول العربية

وعلى الرغم من أن مؤلف جوانفيل عن «تاريخ القديس لويس» هو من أهم المصادر الأوربية عن عصر لويس التاسع وحملتيه على مصر والشام. إلا أن عدم مرافقة جوانفيل للويس في حملته الثالثة على تونس، انعكس بصورة أو بأخرى على كتاباته التي نقلها عن البعض ممن رافقوا لويس، مما أضاع علينا فرصة الوقوف على أخبار هذه الحملة بصدق وواقعية جوانفيل مثلما فعل في الحملتين السابقتين اللتين قام بهما سيده . ولهذا كان اعتمادنا على مؤلف آخر عن «سيرة القديس لويس وابنه فيليب » للمؤرخ الغربي المعاصر للأحداث وليم دي نانجي[١]، وقد أعد مؤلفه باللغة اللاتينية ثم نقله إلى اللغة الفرنسية القديمة، واستهله بالتعرض لأهم الأسباب والأحداث التي صاحبت حملات لويس على مصر وبلاد الشام . وقد اعتمد نانجي فيما يتعلق بأنباء هاتين الحملتين على كل من جوفروا دي بلييه وجيلون دي ريمز[٢] Gilon de Reims

أما ما ذكره عن حملة لويس على تونس ، فله طابع خاص وأهمية كبيرة، حيث أنه رحل بالفعل مع لويس وكان شاهد عيان لوقائع الحملة منذ بدايتها وحتى رحيلها عن تونس، وقد

١- Michaud, Cross , VI, pp. 198-9 , Molinier, t. III, p. 102

٢- لقد فقد مؤلف جيلون ولكن صدق نانجي فيما نقله عن جوفروا دي بلييه يؤكد صدقه فيما نقله عن جيلون أيضا وهذا يعني أنه حفظ لنا الكثير من مادة كتاب جيلون المفقود

اتسمت كتاباته بالصدق والواقعية حيث زودنا بالعديد من صور الصراع بين المسيحيين والتونسيين بشكل تفصيلي دقيق عجز كافة المؤرخين المسلمين عن التعرض لها مثلما فعل نانجي ولكن يؤخذ عليه النزعة العصبية والقومية في كثير من الأحيان. ولقد استهل نانجي مؤلفه عن حملة لويس على تونس بذكر أهم الأسباب التي دفعته للدعوة لهذه الحملة والقيام بها، وأكد أن قوة المسلمين المتزايدة بمصر وبلاد الشام باتت تهدد مصالح فرنسا ودول غرب أوروبا بأجمعها، وكان لابد من انتفاضة قوية لقمع هذه القوى. ولم يخف نانجي أن لويس كان مليئا بالحقد على المسلمين بعد أسره وهزيمته في مصر، وأن من أهم أسباب حملته على تونس هو سبب شخصي نفسي يتعلق به شخصيا إذ كان يسعى لرد اعتباره بعد أن امتهنت كرامته بعد إذلاله على ضفاف النيل فكان يريد الانتقام من المسلمين والثأر لهزيمته الفادحة في مصر

وأكد نانجي أنه من ضمن الأسباب أيضا رغبة لويس في وضع كنوز تونس من الذهب والفضة والثروات الأخرى بين يديه . كما تعرض بالتفصيل لموقف البابوية من لويس وكيف وجد كل التأييد منها ونوه أن هذا كان في الظاهر فقط، أما في الخفاء فقد حقدت البابوية على لويس لتسلطه على مجريات الأحداث في أوروبا وأورد أسماء الملوك الذين شاركوا لويس في الحملة والسلبيات التي واجهها من عدد منهم، ومن رجاله بفرنسا ممن تقاعسوا عن المشاركة في حملته . وتحدث نانجي باسهاب عن أهم الترتيبات التي أقرها لويس في فرنسا قبل رحيله واعتماده على الكونت فيسكونتين Viscomte كونت مدينة سان دنيس لاقرار شئون الحكم أثناء غيابه. كما استعرض بتركيز موضوع المراسلات السرية التي كانت تتم بين لويس والمستنصر بشأن تحول الأخير في الديانة المسيحية وواضح أنه غلبت عليه العاطفة في هذه الرواية، وقد أيدها بشدة رغم أنه كان يناقض نفسه في مرات كثيرة ويقر بخديعة المستنصر لهم بشأن هذا الموضوع، وقد ناقشنا ذلك بالتحليل والتفصيل في متن الكتاب.

وقد انفرد نانجي في روايته بالوصف الدقيق الذي أعطى صورة حية عن حالة الجيوش الصليبية في ميناء اجمورت الفرنسي وكان مبالغا في وصف تعدد القوات الصليبية، حتى يقال أنه بلغ من كثرتها أنها غطت أرض الميناء، ولم يكن يوجد شبر واحد من الأرض ليس عليه موقع لجندي، كما أنه كشف صراحة عن أسماء الصراع الدائر بين أبناء الصليب من أهالي اجمورت وجنود الحملة ، والأحداث المؤسفة التي نجمت عن ذلك وأرجع نانجي سبب هذه الأحداث إلى أن كهولة لويس لم تمكنه من الامساك بزمام الموقف بيد من حديد وقد

تملكه اليأس لدرجة أنه فكر في الرحيل إلى مكان آخر انتظارا لوصول باقي الامدادات. كذلك استعرض نانجي أخبار العاصفة التي أصابت الجيوش الفرنجية في الطريق من سردينيا إلى تونس وزودنا بوصف دقيق لقوة العاصفة وأثرها على الأسطول والمقاتلين ، وبداية انتشار الأمراض بينهم وهم داخل سفنهم وكان نانجي الوحيد من بين المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذي أقر أن سبب انتشار الأمراض بين الجند ليس نتيجة انتقال العدوى من التونسيين بل نتيجة المجاعة وقلة الأقوات واشتداد العواصف وهم في الطريق إلى تونس. كما تعرض نانجي للمحنة الكبرى التي ألمت بهم وهي مرض قائدهم نفسه واضطراب معسكر الفرنج بسبب موته وتعرض بالتفصيل لمحتوى الوصية التي تركها لويس لابنه فيليب ولم يأت بجديد فيها عما ذكره غيره من المؤرخين . كذلك أوضح حالة المعسكر الصليبي وقت وصول شارل كونت انجو شقيق لويس التاسع ومحاولته لجمع الشمل من جديد ولم يغفل أنباء الصراع بين شارل والمسلمين، اذ تعرض بإسهاب للمعارك التي دارت بين الطرفين وذكر أنها اثنتي عشرة معركة إلى أن انتهى الأمر بالصلح بين الطرفين في أكتوبر ١٢٧٠م / صفر ٦٦٩هـ.

وقد امتاز كتاب نانجي بالصدق وعدم التحرج من ذكر الحقيقة حتى لو لم تكن لصالح الفرنج، فقد أشار إلى فتور الروح الصليبية وقت الدعوة للحملة ، وأعلن صراحة أن الصليبيين كانوا يتسمون بالكسل والتراخي مثلهم مثل صليبي الشرق اللاتيني. كما أكد رأيه هذا أثناء الصراع في ايجمورت الذي يرجع إلى عدم اقتناعهم بجدوى القيام بحملة جديدة، وأن تحرير الصليب المقدس لم يعد ذا قيمة في نفوسهم ، كما أن وجوده بين صفوف الحملة أثناء هبوب العاصفة في طريقهم إلى تونس سمح له ليصف لنا وبدقة كيف أن كبار القادة لم يفكروا إلا في أنفسهم ، وأنهم كانوا يتصارعون من أجل النجاة ، ولم يفكروا في رعاياهم ولا مرضاهم بل كان كل همهم اعداد زوارق النجاة الخاصة بهم، ولم يلتفت أحدهم إلى من في مسئوليته لانقاذه ويعلل نانجي هذا بأنه راجع إلى فقدان الترابط بين هذه الجماعات وتفضيل الذات على المصلحة العامة. كما أتقن نانجي وصفه الحالة الاقتصادية المتردية التي آلت إليها الحملة قبل وصولها تونس وصور لنا تخبط لويس في قراراته وارتجاله في حل هذه الأزمة الأمر الذي ترتب عليه أسوأ العواقب ، ولكنه كان مغالبا حين أكد أن لويس عرض بيع أشياء ثمينة خاصة به للتونسيين لم يكن يفكر قط في بيعها ليشتري بها طعاما ووسائل علاج لمرضاه، وذلك لأن هذا الحدث كان في اللحظة الأولى من اقتراب الحملة من تونس ولم تكن الأمور قد تأزمت بعد

بالصورة التي ذكرها نانجي وقد أظهر نانجي اعجابه بالمسلمين في كثير من المواضع، فقد صور لنا اصرارهم على عدم التعامل مع المسيحيين أو بيع أي شئ لهم، كما أقر بأن المستنصر قد خدمهم وأوقعهم في شراكه ، وأنه لم يكن صادقا في وعوده لهم بالدخول في المسيحية .

كما أورد بتفصيل وأسهاب المجالس التي كان يعقدها لويس مع قادته، وذكر العبارات التي كان يرددها البلاء، والتي تنم عن كراهيتهم وحقدهم على التونسيين ورغبتهم في الفتك بهم، فقد سجل ما قاله أحد الفرسان «سيدي اسمح لنا بالهجوم وسنتكفل بهم من جراء ما فعلوه معنا»، ولايجد غضاضة في مدح الجيش التونسي واستعداده العسكري لمجابهتهم ، ولكنه لايخفي دهشته من تقاعس التونسيين في الدفاع عن قرطاجنة وكان دقيقا في وصفه للخطوات العسكرية التي وضعها لويس لاحتلال قرطاجنة ، وبين كيف تم احتلال المدينة على ثلاث مراحل أولها القلعة ثم البرج فالميناء ، وعبر عن فرحة لويس لسقوط القلعة لاحبا منه في التوسع على حساب تونس في هذه الظروف الحرجة ولكن لأنها تحيت الأمل في داخله لانتقال مرضاه الموجودين داخل السفن في عرض البحر دون أي وسائل علاجية. وكان وصف نانجي لمعركة البرج صورة نابضة بالحياة ، إذ ذكر فيها أنواع الأسلحة التي استخدمت وعدد وأسماء الفرسان المسيحيين، وطريقة بداية الهجوم، ولحظات الحصار، والمراسلات التي تمت طوال الليل بين القادة الصليبيين والملك لويس وهو داخل سفينته ولكنه كان مبالغا في تعداد القتلى من المسلمين واغفاله من سقط من المسيحيين في ساحة القتال، بالإضافة إلى مبالغته في ذكر حجم الغنائم التي سلبها المسيحيون بعد معركة البرج لأن قرطاجنة كانت خربة ومهدمة ولايعقل أن يترك بها التونسيون أشياء ثمينة وهم على علم بهذه الحملة منذ فترة غير قصيرة قبل مقدمها

كما أبدى نانجي تعجبه من تقصير التونسيين في الدفاع عن بلدهم ، واهمالهم لحماية سواحل تونس وهي بلد بحري من الطراز الأول، وذكر أسماء الفرسان الذين كانوا يتجولون داخل قرطاجنة طوال ليلة حصار البرج وذلك للتجسس على رد الفعل لدى التونسيين، ثم عودتهم ليلا بزوارقهم إلى عرض البحر دون أي اهتمام أو اعتراض من رجال حرس السواحل التونسيين .

وأورد نانجي بدقة مضمون الرسالة التي بعث بها المستنصر للويس يهدده بذبح جنوده إن

لم يرحل عن تونس كما نذكر رد الفعل لدى لويس وتخوفه ، بل عقد مجلسا استشاريا عاجلا وصفه تانجي بأن لويس كان يهمس في أذن المقربين منه طوال فترة انعقاد المجلس للدرجة أن تانجي عجز عن سماع أي شئ من هذا الحديث ولكنه وصف لويس بأنه كان قلقا وفي حيرة من أمره ولم يكن ثابتا في خطواته وقراراته عند أول تهديد تونسي مباشر ضده

ويؤخذ على تانجي اختلاقه لقصة تقدم عدد كبير من علية القوم في تونس، يطلب التحول في المسيحية، ويبالغ في تصوير مذلتهم أمام المسيحيين واستعطاف لويس لقبولهم في ديانته وقد أوضحنا أنها قصة من وحي خيال المؤلف كتبها بدافع العصبية والقومية، وأن هؤلاء هم أسرى لديهم واضطروا إلى هذا أملا في فك أسرهم وليس عن صدق نية للتحول في المسيحية

وعلى هذا، فإنه أورد لنا وصفا دقيقا عن حالة الملك لويس بعد مرض ابنه وتخبطه بعد إحساسه هو الآخر بالمرض، ولم يخف أنباء خوف الملك على نفسه وأولاده من حصار المسلمين لخيمته ، بل أوضح أن لويس اتهم حراسه بالتفريط في واجبات الحراسة الخاصة به ، وانفرد تانجي بذكر وقائع آخر المعارك التي دارت بين لويس والمسلمين قبل اشتداد المرض عليه وترجع أهمية روايته أنه كان على متن سفينة خاصة بالقرب من الشاطئ، وشاهد عن كثب الأحداث حين أمر الملك بالاستعداد لمعركة حاسمة طويلة مع المسلمين بسبب تزايد مضايقاتهم له ولأسرته ، وخوفه على عدد من الملكات والأميرات اللاتي قدمن معه فيصف كيف قام لويس على فوره بترحيل الملكات إلى بلادهن بينما تقدم كل من بيير شامبلين وهمبري دي لابوش لقيادة الجند في هذه المعركة . وقد كان تانجي صادقا في وصفه لها حيث أعلن دون تحيز أن الدائرة دارت في البداية على المسيحيين وقتل عشرة من أشهر النبلاء الفرنج، وتم للمسلمين الاستيلاء على جيادهم، ويشير إلى أنه رغم مشاهدته للمعركة من بدايتها إلى نهايتها لم يصبه أي خطر لأنها كانت معركة برية فقط.

ويذكر تانجي قائمة مفصلة بأسماء من قتل فيها ، ومن أشهرهم النبيل يوحنا دي بورسليه والفارس كاستليان دي بيوكيريه .

ثم تعرض بالتفصيل للحظات وفاة لويس والوصية التي أملاها على ولده ومن الملاحظ أنه رغم حضور تانجي لحظة املاء لويس وصيته لابنه فيليب إلا أنه لم يأت بجديد فيها عما ذكره غيره من شهود العيان. ومن المرجح أن اهتمام تانجي كان أوسع من التعرض لسيرة لويس الشخصية ، وأنه وضع نصب عينيه الأحداث العسكرية بتونس .

أما عن مؤلفه عن حياة الملك فيليب ابن لويس فلم يفرد له كتابا مستقلا بل ذكره في أعقاب سيرة أبيه لويس واستهله بوصف دقيق لرد الفعل الصليبي على وفاة لويس ومدى تعاون الصليبيين مع القائد الجديد، كما أورد نص الكلمة التي ألقاها فيليب على جنوده، وكيف تمكن من احتواء شعبه ولم يحدث اضطرابا أو مؤامرات من جراء فقدان قائدهم .

كما أعلن نانجي صراحة رأيه في شارل كونت أنجو حين وصل تونس وأن مجيئه كان لتحقيق مطامع شخصية وليس لنصرة جنود الحملة. بل إنه ذكر أن شارل تظاهر بالحزن على أخيه ولم يكن صادقا في ذلك، لأن حزنه الحقيقي كان على عدم وجود قوة عسكرية صليبية كافية في تونس تحقق له مآربه الخاصة. ولم يجد نانجي غضاضة في التعرض لاستعداد المسلمين عسكريا لمواجهة شارل، بل أورد لنا صورة نابضة نابضة بالحياة عن الحزام البحري البري المغلق الذي أعده المسلمون بتونس للتصدي لشارل وفيليب وذكر كيف استغل المسلمون فرصة موت لويس استغلالا كبيرا لدرجة أنه صور لنا حالة اليأس التي شعر بها شارل رغم جبروته وشراسته العسكرية بين ملوك غرب أوروبا. وأورد نص العبارة التي قالها شارل للأمير ادوارد الإنجليزي «باستعداد المسلمين لدفع كل ثمين وغال في سبيل الخلاص من الصليبيين».

ويرجع للمؤلف نانجي الفضل في كشف النقاب عن دقائق الصراع بين شارل والمسلمين، ونوعية المعارك التي دارت بينهما إذا كانت معارك برية أم بحرية ، وأسماء القادة في كل معركة، وعدد المعارك مع وصف دقيق للمعركة الثالثة والرابعة والعاشرة والثانية عشرة. بل كان أدق من المؤرخين المسلمين في وصفه لخطط التونسيين أنفسهم في القتال وأماكن معسكراتهم، وعدد المعسكرات التي بالجبال ونوعية الهجوم، واستفادة المسلمين من طبيعة بلادهم. ولكنه كان يبدي دهشته في التغير المفاجئ الذي طرأ على الجيوش الإسلامية. ففي وصفه لمعركة من المعارك الاثنتي عشرة أوضح كيف كان المسلمون في البداية مستعدين للهجوم مثل الوحوش الضارية، ولكن فجأة تقاعسوا ولم يلتحموا بالصليبيين، وكان دقيقا للغاية في وصفه لمعركة جاي دي بوروا مع المسلمين ووصف أماكن المعركة ومدتها وأسهب في القاء الضوء على رد الفعل لدى الصليبيين عندما أسر جاي بوروا ومدى حزنهم عليه لدرجة أن شارل كونت أنجو وهو القائد الأعلى للجيش قد ترك مقره الرئيسي وسار يطارد رد فلول المسلمين الذين أسروا بوروا ليطلق سراحه وألح إلى عقم خططه حين أورد نص العبارة التي قالها أحد النبلاء لشارل «سيدي لابد من العودة فربما يكون هناك كمين قد أعده المسلمون لك».

ويبالغ نانجي في وصفه لعدد القتلى في هذه المعركة ، ويجف قلمه في التعرض لخسائر الصليبيين ويجد ارتياحا في وصف حالة المسلمين بالضعف رغم أسرهم لبرزوا أعتى الفرسان الفرنج، ويصفهم أنهم فجأة وبدون مبررات هدموا خيامهم وفروا هاربين أمام الزحف الصليبي ضدهم، بل أكد أن الفشل أصاب المسلمين في جميع خططهم، وأن التوسيين اعتلوا الجبال هربا منهم، وأن البعض الآخر ركب سفنه للفرار من ميدان المعركة . وقد تجلت هنا نزعته القومية وتحيزه لبني جنسه لأن الأمور لم تنقلب رأسا على عقب فجأة وأن الحرب كانت سجالا بين الفريقين، وأن المسلمين كانوا حقيقة يحدثون تغيرات مفاجئة في خططهم ويصيبهم التقاعس دون مبرر، ولكن ليس بالصورة القاتمة التي أوردها نانجي.

وانفرد نانجي بذكر العديد من الوقائع والأحداث الأخرى التي لم يشر إليها غيره من المؤرخين الغربيين أو المسلمين فقد أورد لنا الخطة الدقيقة التي وضعها كل من فيليب وشارل بتعيين شارجنتير Charpenter وهو أحد كبار القادة البحريين ليكون على رأس مهمة قطع المؤن عن تونس بممارسة أعمال القرصنة في البحر ضد جميع السفن المحملة بالأطعمة حتى يتم حصارها اقتصادياً. ويصرح نانجي أن هذا لم يأت بنتيجة ايجابية ضد المسلمين وأن المسلمين بقيادة ملكهم نفسه تمكنوا من فك الحصار عن طريق استخدام المؤن المخزونة لديهم. وصور لنا قيادة المستنصر لاحدى المعارك انتقاما من الصليبيين ونوع الطبول التي دقت باعلان قيادة الملك نفسه للمعركة . وكان وصفه رائعا لها وأوضح كيف أنها امتدت إلى الحقول والأراضي المحيطة، كما صور لنا انتفاضة شارل والكونت اليسون وملك نافار وعدد ضخم من النبلاء اللاتين للمواجهة العسكرية مع المستنصر . ورغم اعتراف نانجي برجحان كفة المسلمين في تلك المعركة التي اشترك فيها القادة من الطرفين بأنفسهم إلا أنه سرعان ما يميل إلى بني جنسه من اللاتين ويعلن رجحان كفة شارل ويبالغ في عدد من قتل من المسلمين في هذه المعركة، كما أورد نص العديد من المراسلات بين شارل والمستنصر في نهاية الأمر لعقد الصلح الذي كتبه باللغة اللاتينية ولم يأت بتعليق على شروطه سوى أن شارل أثبت للجميع أنه كان يعمل لحسابه بعد حصوله على مكاسب عديدة من جراء هذا الصلح

وعلى هذا تبدو لنا أهمية كتاب نانجي في الكشف وبدقة عن تفاصيل هذه الحملة التي أوردها شأنه شأن غيره من مؤرخي العصور الوسطى في الغرب والشرق على السواء، ويؤخذ عليه المبالغة في بعض الاحصائيات ولكن هذا لايقلل من قيمة مؤلفه فقد كان مرآة انعكست

عليها أحداث ووقائع الحملة من منبعها الأصلي بفرنسا إلى تونس وحتى عودتها مرة أخرى إلى موطنها بفرنسا فكان يتفحص بعينيه كل صغيرة وكبيرة ما يتعلق منها بالمسلمين أو المسيحيين سواء في تونس أو فرنسا أو خارجها مما أعطى لمؤلفه قيمة كبيرة تجعله في مصاف مؤلف جوانفيل عن حياة الملك لويس التاسع وخاصة أحداث حملتيه على مصر والشام. فقد نهج نانجي نهجه في الاهتمام بعبقرية لويس السياسية والعسكرية إلى جانب الاشارة بفضائله وسجاياه .

ورغم ما ظهر واضحا من تحيز نانجي لبني جلدته، ومبالغته في بعض الاحصائيات كما أسلفنا وتناقضه في بعض الروايات ليضفي علي المسيحيين صفة البطولة ، إلا أن هذا لايجعلنا نحكم عليه بعدم الصدق، أو أن هذا هو طابع كتابه كله بل هي حالات فردية لاتمثل وجهة نظر عامة ولا تقلل من قيمة مؤلفه الأمر الذي يجعلنا نعتبره نموذجا تاريخيا نادرا بين مصاف المؤلفات الصليبية الأخرى فقد ابتعد عن السرد والروايات ودون ما شاهده بعينيه وما نقله عن الغير رغم عدم ذكر اسم من نقل منهم، إلا أن واقعيته في ذكر الأحداث التي شاهدها بنفسه جعلتنا نركن إلى صدق رواياته المنقولة عن الغير حول بعض التفاصيل من الصراع العسكري داخل تونس، وقد أفدنا أيضا من كتابه المعنون "Chronicon" وهو تاريخ زمني من عام ١٢٢٦ إلى عام ١٣٠٠م وكذلك كتابا مختصرا آخر تحت اسم Cronique Abergée وإن كانت المعلومات بهما لاتزيد عما جاء بكتابه الكبير عن سيرة لويس وابنه فيليب

وإذا كنا قد أفضنا في تحليل مؤلف وليم دي نانجي لأهميته الكبيرة بالنسبة لموضوع بحثنا، فإن هذا لايمنع من وجود مصادر أخرى لها قيمتها فيما نحن بصدده فهناك مصدر آخر له قيمة كبيرة بالنسبة لموضوع البحث وأهميته تعود فقط إلى مرافقة مؤلفه للويس في حملته علي تونس وهو المؤرخ وليم دي شارتر Guillaume de Chartres أحد الرهبان الدومينكان، وكان يعمل كاهنا خاصا للويس [١]. ونظرا لمرافقته له في حملاته الثلاث على مصر والشام وتونس فقد كنا ننتظر منه المزيد من التفاصيل والوقائع عن أحداث الحملة على تونس. ولكن للأسف، لقد انصب اهتمام شارتر على حياة سيده لويس وفضائله وسجاياه، وأغمض عينيه عن تفاصيل الصراع الدامي بين المسلمين والمسيحيين بقرطاجنة رغم أنه كان

١- Michaud, Cross, IV, p. 211 ; Molimer , tIII, p. 117

شاهد عيان لكل هذه الأحداث، ولعل له في ذلك عذره ، فقد كان معظم كتاب العصر الوسيط يهتمون بتمجيد سادتهم من أباطرة وملوك وبابوات أكثر من تسليط الضوء على الأحداث في عصرهم.

وكان كل ما جاء به إصابة يوحنا الحزين بالمرض ثم موته وحزن لويس عليه ثم مرضه والساعات الطويلة التي أمضاها لويس بين الحياة والموت والعبارة التي كان يرددها قبل وفاته «هيا إلى القدس» ولم يزد على هذا كثيرا سوى مقتطفات مختصرة عن أحوال المعسكر الصليبي بعد موت لويس وحتى عقد الصلح بين طرفي الصراع ثم الرحيل، وأوجز في ذكر الأحداث التي سبقت تولية فيليب قيادة الحملة وحتى وصول شارل كونت أنجو ، ولم يعط للصراع الدائر بينهم وبين المسلمين أي أهمية رغم أنه ظل موجودا بتونس حتى تم عقد الصلح بين الطرفين ورحل في صحبة الجميع . ولكن هذا ليس جديدا على كتابات شارتر فقد اتبع نفس الأسلوب في بداية كتابه حين تحدث عن حملتي لويس على مصر والشام فأغفل الجانب العسكري والسياسي ، واهتم بسيرة لويس وفضائله وسجاياه ، ويلاحظ عامة أن شارتر وغيره ممن كانوا مقربين من الملك كان يروق لهم الاهتمام بالجوانب الشخصية في حياة لويس أكثر من عبقريته السياسية والعسكرية ومن هؤلاء أيضا جان دي جوانفيل نفسه .

أما جوفروا دي بلييه Geoffroi de Beaulieu فهو أحد المؤرخين الغربيين الذين اهتموا بالكتابة حول الموضوع ، وهو راهب دومينكاني وأبو الاعتراف الشخصي للويس، فقد وضع تاريخه تخليدا لذكرى لويس بناء على أوامر البابا جريجوري العاشر في مارس ١٢٧٢م[1]، ورغم اهتمام جوفروا بحياة لويس وفضائله وسجاياه خاصة أثناء حملته على مصر والشام حيث كان مصاحبا له فيهما، إلا أنه حين كتب عن حملته على تونس اختلف أسلوبه تماما، واتضح لنا اعتماده على وليم دي نانجي في هذا الخصوص ، خاصة أنه تعرض لتفاصيل سقوط قلعة قرطاجنة بنفس أسلوب نانجي وأورد أن العقدة النفسية التي أصابت لويس بعد هزيمته في مصر من أهم أسباب حملته على تونس، وكان نانجي أول من زودنا بهذا التحليل النفسي عن لويس وسار جوفروا على دربه في التعرض للظروف الحرجة التي مر بها المعسكر الصليبي بسبب المرض الذي تفشى بين أفراده وأسهب في وصف اللحظات التي كان لويس

١- Michaud, Op. cit., p. 199-208 .

يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة والعبارات التى كان يرددها وكتب سطورا عديدة أعرب فيها عن مشاعره الأليمة لوفاة سيده، وأوجز في التعرض لحالة الجيش بعد وفاة لويس ، وأورد اشارات مقتضبة عن شارل وأطماعه فى تونس وتعرض في النهاية لشروط الصلح المبرمة بين الطرفين ولم يأت بجديد فيها بل عاد فى نهاية مؤلفه وتحدث عن فضائل لويس وصفاته الطيبة مثله في ذلك مثل جوانفيل وشارتر وبداية مؤلف نانجي والخلاصة أن جوفروا هو الدعامة الأولى لمؤلف وليم دى شارتر عن حياة لويس لذا جاءت مؤلفاتهما معا ذات طابع واحد، باستثناء الأحداث القليلة التى نقلها جوفروا عن نانجى فيما يتعلق بحملة لويس علي تونس

يضاف إلي ما تقدم القوائم الخاصة بأسماء الفرسان الذين شاركوا فى الحملة سواء بأشخاصهم أو بمساعدات مالية وهي بعنوان Liste de Chevaliers Croisés avec Saint Louis

لمؤلف مجهول وقد كتبت باللغة الفرنسية القديمة ولها أهمية فائقة بالنسبة لموضوع البحث إذ ألقت الضوء ليس فقط على أسماء الفرسان الذين شاركوا فى الحملة بل تضمنت قوائم أخرى بالمبالغ وعدد الفرسان الذين ساهم بهم النبلاء فى فرنسا ممن لم يشتركوا فى الحملة بأشخاصهم وقد كشفت هذه القوائم عن فتور الروح الصليبية لدى هؤلاء بدليل مهاجمة لويس لهم فى مواقف كثيرة ومطالبته لهم بالمزيد من المساعدات بل إنه كان يقول لبعضهم أنه ينتظر منهم الكثير، واتهم البعض الآخر بالبخل والتقصير ومن بين ثنايا سطورها نعرف كيف أن الملك لويس قدم لهم العديد من التسهيلات والمغريات بهدف تشجيع النبلاء لكى يتقدموا بمساعداتهم ، وذلك بأن تكفل هو شخصيا بمعيشة بعض الفرسان من مأكل ومشرب واقامة علي نفقته الخاصة منذ رحيل الحملة من فرنسا وحتي عودتها الأمر الذى جعل هذه القوائم تتميز بأهمية كبيرة وبخاصة من الناحية الاقتصادية كما كشفت النقاب عن خبايا الأمور بين الملك والنبلاء وألقت الضوء علي أحوال فرنسا اقتصاديا وضعف تأثير لويس علي شعبه لاحياء الفكرة الصليبية من جديد والتى كانت أخذه فى التقلص والانكماش

ولايفوتنا فى هذا المقام أن نذكر الكتاب المعروف بتاريخ الامبراطور هرقل[١]

١- يعد كتاب «تاريخ الامبراطور هرقل ولاحتلال أرلفسي ما وراء البحار» تذييلا لكتاب وليم الصورى صاحب كتاب «تاريخ الأعمال التي انجزت فيما وراء البحار

"A History of the deeds done Beyond the Sea"

وتاريخ هرقل لايزال بلغته الاصلية وهي الفرنسية القديمة ، أما مؤلفه فهو مجهول الاسم لأن أول صفحة من هذا الكتاب تبدأ بكلمة الامبراطور هرقل ..

Le Storie de Eracles Emperor et La Conqueste de la Terre doutremer وهو لمؤلف مجهول وتناول تاريخ الفترة من عام ١١٨٤ إلى عام ١٢٧٧م (٥٨٠-٦٧٦هـ) أى أنه عاصر سنوات وأحداث الحملة على تونس .

وعلى هذا يمتاز بقيمة كبيرة فيما نحن بصدده ، فقد تناول أحداث الحملة بالتفصيل ، ولكن دون الدخول في غمار الصراع الحقيقي بين الطرفين . فتحدث عن استعداد أوروبا لها، وأسماء من شاركوا فيها ، ولحظة وصولهم تونس، واعتمد في رواياته هذه على وليم دى نانجى وجوفروا دى بلييه ، ومارينو ساناتو Marino Sanuto ، إلا أنه انفرد بذكر روايات لم تأت في مؤلفات نانجى رغم تخصصه في الكتابة عن حملة لويس ضد تونس . ويلاحظ أنه اعتمد فيها على ساناتو وبخاصة قدوم سفارة مكونة من اثنين وثلاثين فارسا صليبيا من الشام وعلى رأسهم أحد قادة الاسبتارية لمؤازرة لويس في حملته ضد الشمال الأفريقي ، وكان لهم ضلع كبير في اتمام الاستيلاء على قلعة قرطاجنة بنجاح . وقد تناول هرقل أحداث الحملة من بدايتها والاستعداد لها، وأحداث سقوط قلعة قرطاجنة بالتفصيل ، معتمدا في ذلك على وصف نانجى . بل أنه ذكر رقم الصفحات التى رجع إليه فيها لكنه أوجز في باقى التفاصيل العسكرية التى تتعلق بسقوط باقى المدينة، ولم يخض في تفاصيل الصراع أو خطط لويس العسكرية، كما انتقل سريعا إلى انتشار المرض بين الجنود وموت يوحنا الحزين ثم موت لويس ووصول الملك شارل ولقائه مع الأمير ادوارد ولم يأت بجديد أو بأكثر مما ذكره نانجى بهذا الصدد، وخاصة في شروط الصلح المبرمة بين الطرفين الصليبى والتونسى كما ذكر أسماء من تبقى على قيد الحياة من الملوك والأميرات المسيحيين، وذكر أسماء من ذهب ضحية العاصفة التى هبت على الأسطول في رحلة العودة ، وأن كان قد أخطأ حين ذكر أن تيدالو فيسكونتي Tidalo Viscounty رئيس اساقفة ليبج كان من بين المفقودين غرقا، لأنه من المعروف أن تيدالو عاد إلى بلاده واختير بابا تحت اسم جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) .

وعلى العموم يعد تاريخ هرقل من المؤلفات الهامة التي عاصرت هذه الفترة من الزمن ونقلت بصدق وأمانة من شهود العيان، وكانت افادتنا منه واضحة .

ولايفوتنا أن نذكر المؤلف المجهول صاحب الكتاب المعروف باسم فضائل القديس لويس التاسع "Gesta Sancti Ludovici noni" الذي استعرض فيه وصايا لويس لابنه فيليب بالإضافة إلى نترات مفككة عن أنباء الحملة ككل ولم يأت بأى تفاصيل عن علاقة فيليب بالتونسيين وكل

ما ذكره لايتعدى صفحة أو صفحتين عن أنباء هذه الحملة وانصب اهتمامه على حياة لويس ومصائبه ومحنه ، دون التعرض لجهوده في مصر أو الشام أو تونس بل تناول باقتضاب لحظات وصول لويس ومرضه ووصاياه لفيليب ثم موته. ويعرف عن هذا المؤلف أنه كان راهبا بدير القديس دنيس بفرنسا[١] ومن القضايا التي انفرد بها أنه أورد أسماء عدد من الصليبيين الذين وقعوا الصلح مع المسلمين بتونس ولم يرد هذا في مؤلفات الغربيين، ولكن دون التعرض لأى تفاصيل تتعلق بالصلح وغيره من الأحداث في تونس .

وهناك تآليف أخرى انفردت بذكر أنباء حملة الأمير ادوارد التي كانت تعد صلما رئيسيا للحملة الصليبية التاسعة على تونس، ومنها حوليات «مآثر القبارصة» Gestes des Chyproes التي سلطت الضوء على أحوال انجلترا ابان قيام الحملة وصراع الأمير ادوارد مع النبلاء الإنجليز الذين تقاعسوا عن مشاركته في الحملة وأشارت إلى الظروف التي دفعت ادوارد ليعدل بحملته من الشام إلى تونس أولا وإن كان يؤخذ عليها أنها أوردت أن رحيل ادوارد كان في صيف ١٢٧١م / ٦٧٠هـ وهذا عكس ما اشتهر بأن رحيله كان في خريف ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ . وعلى العموم فقد أفدنا من هذه الحوليات فائدة كبرى فيما يتعلق بأخبار حملة الأمير ادوارد سواء في تونس أو حين عودة ادوارد مع باقي فلول الحملة إلى صقلية ، أو حين هاجم بلاد الشام وفشله في تحقيق أي مكاسب دبلوماسية لانجلترا ، وعلاقة ادوارد بالصليبيين وبيبرس في بلاد الشام وتعرض لمحاولة الاغتيال من قبل الحشيشية وعودته إلى انجلترا بعد وفاة الملك هنري الثالث والاضطرابات السياسية داخل بلاده والتي كان عليه أن يتحملها حتى نصب ملكا على البلاد .

كذلك أفدنا كثيرا من «حوليات الأراضي المقدسة» Annales des Terrs Saint التي نشرها رهرشت Rohycht وريمو Raynaud وذلك فيما يتعلق بأنباء الحملة على تونس عامة، وحملة الأمير ادوارد بصفة خاصة وقد نشرها رهرشت تحت اسم حملة الأمير ادوارد الصليبية "La Croisade de Prince Edward" .

ولاننسى في هذا المقام مؤلف وليم دى سان باثوس Guillaume de St. Pathus [٢] عن حياة

١- Michaud, Crois., VI, p. 302-3.

٢- لقد وضع سان باثوس تاريخه عن لويس بناء على رغبة ابنته بلانش وكان معلم اعتراف لها ولأمها مارجريت انظر Michaud, Op. cit.,p. 198 وأيضا جوزيف نسيم العدوان الصليبي على بلاد الشام ص١٨

القديس لويس وهو معلم اعتراف الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع ، حيث تناول فيه أحوال فرنسا وقت الحملة، والترتيبات التي أقرها لويس في بلاده قبل رحيله وعلاقته بزوجته مارجريت، ودفعه لصداقها وحقها في الميراث ، وعلاقته بنساء الغير متزوجات ولم يهتم سان باثوس بالجوانب السياسية والعسكرية المتعلقة بلويس أثناء اقامته بتونس قدر اهتمامه بحياته الشخصية.

أضف إلى هذا وجود مجموعة أخرى من الكتاب الغربيين ممن عاصروا هذه الفترة وكتبوا عنها ومنهم ويجلر Wicygler ووليم دي بادوا Guillaum de Padua وتاريخا زمنيا تحت اسم Chroni que monyme flmmat لمؤلف مجهول وتاريخا زمنيا تحت اسم "Chronicon Girardi de Frachcto" لمؤلف مجهول، فقد أمدتنا بمعلومات قيمة على مدى صفحات هذا البحث.

كذلك أفدنا كثيرا من «مؤلف متي ثوف وستمنستر» Matt of Westminster Flowers of History وهو من المؤرخين القدامى، الذين سلطوا الأضواء على أحوال انجلترا بصفة عامة وحملة الأمير ادوارد إلى شمال أفريقيا ثم بلاد الشام بصفة خاصة.

هذا عن المصادر الأصلية الأوربية من لاتينية وفرنسية قديمة، أما المصادر العربية من خطية ومطبوعة ، معاصرة وغير معاصرة ، فهي تأتي في المقام الثاني من حيث الأهمية بالنسبة لدقائق وتفاصيل الحملة. فرغم أهميتها بالنسبة للأخبار المتعلقة بأحوال العالم الإسلامي عامة وبلاد المغرب على وجه الخصوص فقد أوضحت عن الصراع الدائر بين مختلف القوى السياسية ببلاد المغرب وتونس ابان الفترة الزمنية موضوع الدراسة ، ويرجع هذا إلى نظام التدوين التاريخي عند المؤرخين العرب في العصور الوسطى، حيث أنهم لم يتخصصوا في الكتابة في موضوع مستقل قائم بذاته بل اتبعوا طريقة السرد الحولي في الوقت الذي تقدم فيه فن الكتابة التاريخية في أوروبا ، وكتب المؤرخ الغربي في موضوعات متكاملة مما يشفي غليل الباحث في موضوع بعينه بالإضافة إلى أن مؤرخينا اتبعوا عادة النقل عن غيرهم لذا لم تختلف المصادر عن بعضها كثيرا، بل وجدنا الخبر الواحد قد ورد ذكره في أكثر من مصدر دون تمحيص أو تدقيق. ومنهم من كتب اسم من نقل عنه ، ومنهم من لم يذكر هذا عمدا أو عن غير عمد. هذا ، بالإضافة إلى وجود العديد من الروايات في بطون هذه المصادر نقلت عن أصول مفقودة ولم تصلنا فحفظها لنا الزمن من العبث والضياع

ولقد أمدتنا تلك المصادر بمادة من الطراز الأول عن صراع القوى داخل تونس إلى أن

انتهى الأمر بتسلط الحفصيين على الحكم . وسلطت الضوء على سياسة المستنصر الملتوية ، وخبايا الأمور المتعلقة بأهدافه ومآربه الخاصة، الأمر الذى وضع هذه الأحداث فى ميزان حساس، تأرجحت على أثره أحوال الحملة. كما تبين نتائج الصراع بين القوى الإسلامية والصليبية داخل قرطاجنة. أما دقائق وتفاصيل الحملة أو ذكر أخبار جديدة عنها فهذا ما لم تزودنا به المصادر الغربية.

وسوف نقسم المؤرخين العرب الذين تناولوا موضوع الحملة وأحوال العالم الإسلامي آنذاك إلى مؤرخين مغاربة وغير مغاربة ، وسوف يكون تحليلنا لمؤلفاتهم طبقا لأهميتهم بالنسبة للموضوع لاحسب تسلسلهم الزمني.

ويأتي ابن خلدون[1] على رأس المؤرخين العرب المغاربة الذين اهتموا بالكتابة عن الحملة بصفة خاصة، وأحوال المغرب وتونس عامة، حيث أفرد صفحات عديدة عنها فى مؤلفه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» وقد استهل حديثه عنها بالتعرض لأحوال فرنسا ، وشهرة لويس التاسع بين ملوك غرب أوروبا ، ومكانة فرنسا بين دول الغرب ودورها في الحركة الصليبية الموجهة ضد قوى الإسلام بصفة عامة، وحملتها على تونس بصفة خاصة. وتعرض ابن خلدون لأولى حملات لويس ضد المسلمين وهزيمته بمصر وقال إن تلك الهزيمة هي أولى الأسباب المباشرة للحملة على تونس انتقاما من المصريين ، على أمل الزحف من تونس برا وبحرا لمعاودة الكرة فى احتلال مصر وتحقيق باقى الأطماع الصليبية. وأوضح أن الأسباب الدينية لتلك الحملة هى أسباب واهية والحقيقة تكمن فى مطامع الصليبيين الاقتصادية فى مناهل شمال أفريقيا . وانفرد ابن خلدون بذكر اسم

١- ينتسب عبد الرحمن محمد بن خلدون إلى بنى خلدون الذين قدموا من اليمن واستقروا بمدينة أشبيلية بالأندلس وكان جد ابن خلدون يعمل فى ديوان بنى حفص، فكان للنشأة لابنه محمد فى بلاط السلطان الحفصى أثر كبير فى تحصيله العلم مما ترك أثره أيضا على ابنه عبد الرحمن الذى انصب اهتمامه على دراسة اللغة العربية وعلومها وكان لاحتكاكه بكبار الساسة والمحدثين والفقهاء سببا فى بزوغ نجمه فى دنيا السياسة بتونس. ويعد كتابه «العبر» من أفضل ما كتب عن تاريخ العرب والعجم والبربر، وركنا أساسيا فى دراسة تاريخ المغرب. وقد قام بإعداده فيما بين عامى ٧٧٦-٧٨٠هـ / ١٣٧٧-١٣٨١م كما كان لرحيله من تونس إلى مصر فائدة عظيمة بالنسبة له ، وفرصة لزيادة منابع أصول علمه وقراءاته ويهمنا من مؤلفه الجزء السادس وقد رجعنا إليه من طبعة بولاق عام ١٩٨٤ انظر عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص١٠٢

الوزير التونسي وهو «اللياني» الذي أعدمه المستنصر قبل أن يرد حقوق التجار الفرنسيين عليه، ورفض المستنصر هو الآخر أن يطيب خاطر هؤلاء التجار أو يرد إليهم أموالهم. واعتبر ابن خلدون أن هذه الرواية ضمن أسباب الحملة الغير مباشرة والتي تذرع بها الصليبيون لمهاجمة تونس .

وأسهب ابن خلدون في الحديث عن الاستعداد للحملة وتأييد البابوية لها وأسماء من اشترك فيها من الملوك والأمراء. وصور لنا بوضوح الاستعداد العسكري داخل تونس ودور مصر في شحذ همم المغاربة لمناصرة المستنصر . وألمح إلى خبث ودهاء لويس في الاستيلاء على أموال دفعت له بطريق الرشوة كيلا يهاجم تونس وجانبه الصواب في تعرضه لخط سير الحملة حيث ذكر أنه بعد رحيلهم من ميناء اجموررت تجمعوا مرة أخرى في صقلية . وهذا عكس ما أورده المؤرخون الغربيون المعاصرون أمثال باتجي وغيره، من أن مكان التجمع هو سردينيا وتعرض بجرأة إلى سياسة المستنصر الملتوية وخبثه في معالجة الأوضاع المتعلقة بمصير تونس وقت وصول الحملة، وتردده في اتخاذ القرارات التي أجمع عليها أهل الشورى من الموحدين وأمراء الأندلس. وزودنا بصورة نابضة بالحياة عن تظاهر المستنصر بالموافقة على رأي الأغلبية في بلاده في ترك العدو ينزل تونس لكي يتصيده بعد ذلك في الوقت الذي كان يعمل فيه في الخفاء لتحقيق أشياء أخرى في نفسه ويعد ابن خلدون المؤرخ الوحيد الذي جسد لنا أحداث المعركة التي دارت بين التونسيين والمسلمين بقيادة يحيى بن صالح، وحدد موقعها، والتحصينات التي أقامها الصليبيون بالمدينة ومحاولتهم في ترميم الصدع الذي كان واضحا في أسوار قرطاجنة كما تتبع بدقة أحداث هذه المعركة حين تقدم يحيى ومعه جمع ضخم من زعماء قبائل سدويكش ونبهصة وهوارة حيث دارت رحى معركة قتل فيها عدد ضخم من الفريقين المسلم والمسيحي، وصور لنا أحداث تهدم الخندق الذي بناه الصليبيون والذي كان ذا عمق كبير، وتساقط القتلى المسيحيين فيه، ولم يبالغ في عدد قتلاهم ليظهر التونسيين بمظهر البطولة، بل أورد رقما معقولا وهو خمسمائة قتيل . كما اتهم ابن خلدون في رواية أخرى المستنصر لهروبه من ساحة القتال إلى القيروان تاركا شعبه في أمس الحاجة إليه وكان دقيقا في تعرضه لأسماء القادة التونسيين الذين شاركوا في الجهاد والوحيد الذي انفرد بهذا ولكنه أغفل دور الفقهاء ورجال الدين في شحذ همم الناس على القتال أثناء المعارك الدائرة أو قبل وصول الحملة، ولم يسهب ابن خلدون في التحدث عن المزيد من هذه المعارك التي تمت بين الطرفين قبل وفاة لويس، بل

تعرض لحجة لموته، وأورد أسباب أخرى لوفاته غير تلك التي ذكرتها المصادر الأجنبية . فقد انفرد برواية تقول «أن المستنصر قد أرسل إليه ابن جرام الدلامي وطعنه بسيف مسموم . وفي رواية أخرى قال أن لويس أصابه سهم طائش فقتله . ويعود في رواية ثالثة ويتوه عن اصابته بوباء أدى إلى موته. ولذا لم يكن رأيه واضحا ومحددا بشأن هذه القضية كذلك أغمض ابن خلدون عينيه عن المزيد من الأخبار المتعلقة بالمعسكر الصليبي مثله في ذلك مثل باقي المؤرخين المسلمين، فلم يحدثنا عن انتشار المرض بين صفوف الفرنج أو عدد موتاهم مثلما فعل المؤرخ الغربي.

كما أنه أخطأ حين ذكر أن الذي تولى قيادة الصليبيين بعد موت لويس هو ابنه الذي ولد بدمياط لأن الذي ولد هناك هو يوحنا الحزين وقد مات قبل وفاة أبيه . ويرجع ذلك الخلط إلى وجود بعض الروايات التي ربما يكون ابن خلدون قد نقل عنها والتي ذكرت أن اسم الذي ولد بدمياط هو فيليب وليس يوحنا . كما أغفل ابن خلدون الفترة الهامة من تاريخ الحملة، منذ وصول شارل كونت أنجو رغم تراكم الحوادث خلال هذه الفترة القصيرة ، وتزايد عدد المعارك بين الطرفين خلالها. ولكنه مرطيها جميعا مرور الكرام، بل أورد أن الصلح تم مباشرة في أعقاب موت لويس ، وأغفل دور شارل العسكري في الأحداث ، واعتبره فقط ممثلا عن جيوش الحملة لابرام الصلح.

وقد انفرد ابن خلدون دون غيره من المؤرخين المعاصرين ، بذكر أسماء كل من حضر مع المستنصر في توقيع الصلح وهم ابن زيتون وأبو الحسن علي بن عمرو وأحمد ابن الغماز وزياد بن محمد بن عبد القوي أمير بني توجين . كما نوه عن أطماع شارل الخاصة في تونس ، وكيف أنه اقتنص الفرصة وضمن لنفسه مزايا وصلحا خاصا ببلاده. وكان دقيقا في ذكره لتاريخ عقد الصلح ومدته ، وإن كان قد اخطأ في تحديد المدة الزمنية التي أمضتها الحملة في تونس فذكر أنها ستة أشهر وهذا عكس ما أثبتناه في الفصل الخامس من أن مدة الحملة كانت فقط ثلاثة أشهر واثنتي عشرة يوما .

وتتبع ابن خلدون الآثار التي ترتبت على رحيل الحملة من تونس ، وهدم قرطاجنة وتسويتها بالأرض حتى لايعاود الصليبيون الكرة عليها من جديد. كما ألقى الضوء على أحوال الغرب الأوروبي بصورة دقيقة ولكن مختصرة وأوضح كيف اضمحلت الفكرة الصليبية في نفوس الجميع، وألمح إلى انشغال شارل بمصالح بلاده وانصرافه عن فكرة مناوأة المسلمين من جديد،

الأمر الذى يجعل لمؤلفه قيمة كبيرة قد لا نجدها فى المكاتبة التى أرسلها أبو زكريا للصالح نجم الدين أيوب بهذا الشأن . وانفرد هذا المؤرخ بالتعرض لاحتمال وجود أمراض معدية بتونس ، وذكر أن هذا كان ممكنا قبل مقدم الحملة إلى تونس باثنتي عشر عاما حين سقطت بغداد فى قبضة المغول وتزايد عدد القتلى الأمر الذى أدى إلى انتشار الأوبئة التى انتقلت بدورها إلى تونس.

أما ابن القنفذ صاحب كتاب «الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية » فهو الوحيد بين المؤرخين المغاربة الذى أتى برواية اتهم فيها المستنصر بالتخاذل فى الدفاع عن بلاده حين قرر الهروب إلى قسطينة أثناء معمعة الصراع مع الصليبيين واختلف فى هذه الرواية مع ابن خلدون الذى ذكر أنه قرر الهروب إلى القيروان .

وأعلن صراحة أن المستنصر كان يعد لهذه الخطوة من قبل، وهى الرحيل إلى قسنطينة مع أهله وحاشيته ، بدليل شحنها بالحبوب والمؤن، ونميل تماما إلى الأخذ بهذه الرواية ، نظرا لأن قسنطينة هى موطن ابن القنفذ الأصلي ، وما كتبه عنها جدير بالملاحظة والاهتمام، كما كان ابن القنفذ هو المؤرخ الوحيد الذي انفرد بذكر اسم الرسول الذى بعثه صاحب تونس إلى بيبرس، وهو محمد بن الراسي، ليبرر له فعلته الشنيعة فى عقد الصلح مع الصليبيين، ولكن لم يأت بنص الرسالة أو حتى مضمونها بل أرجع مهمة الحصول على نصها من الكتاب المتوكلى الكبير ولم يتسن لنا معرفة شئ عنه أو عن مؤلفه ، ولعله فقد ولم يصلنا .

ويؤخذ عليه أنه لم يأت بأى تفاصيل حول الصراع الدائر بين الطرفين المسيحى والإسلامى بل مر على أحداث الحملة بصورة سريعة مختصرة، ومع ذلك كان دقيقا للغاية فى التعرض لتاريخ وصولها تونس، وتاريخ عقد الصلح، والمدة التى قطعتها الحملة وتاريخ وفاة المستنصر . هذا بالإضافة إلى أنه أغمض عينيه عن الحوادث الأليمة التى مرت بها تونس وقت الحملة والحقائق المشينة التى تتعلق بشخص المستنصر ، والتى تشوه صورته أمام الحكام المسلمين، فقد أغفل ذكر هذه الحقائق، وأظهر تعصبه لبنى جلدته المغاربة ، وغلبت العاطفة على بعض كتاباته ، ولو أنه تطرق إلى هذه الموضوعات فى حيدة تامة خاصة ما يتعلق منها بزمن وأحداث الحملة بعد وفاة المستنصر، والصورة الحية التى أوضح فيها صراع القوى فى تونس منذ عهد الواثق يحيى بن المستنصر وتنازله عن الحكم لعمه أبى اسحاق ، إلى أن انتهى مؤلفه بعرض سريع لعصر الضعف الحفصى وسقوط الدولة الحفصية فى النهاية . وليس ثمة أى جديد فى روايته المتعلقة بعصر الضعف ، مثله فى ذلك مثل غيره من المؤرخين المتقدمين عنه زمنيا .

ويعد الغبريني (ت ٧٠٤هـ – ١٣٠٤م) من أهم مؤرخي القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي)، وخاصة بالنسبة للفترة موضوع البحث. وكتابه «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء ببجاية» رغم أنه كتاب جامع لسيرة كبار العلماء والمشايخ والفقهاء في عصره، إلا أنه أمدنا بمادة ممتازة عن أحوال تونس في عهد المستنصر الحفصي، وذلك من خلال تعرضه لسيرة كبار الشخصيات السياسية والعلمية ممن كان لهم دور بارز في نظام الحكم وسير الأمور في دولة المستنصر. واتسمت رواياته بالواقعية، خاصة حين كشف النقاب عن رد الفعل الحقيقي لدى الشعب التونسي تجاه الصلح مع الصليبيين، وأفصح عن سياسة المستنصر وتسلطه على شعبه مبينا أنه لم يكن يحترم رأي العامة أو الخاصة من القوم، وذلك من خلال ترجمة الغبريني لسيرة الفقيه أبي القاسم أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي. فقد أوضح في رواية مفصلة كيف حاول المستنصر إجبار أبا القاسم على شهادة الصلح دون تقديم أي مبررات لهذا، واعتبر قراره مرسوم سلطاني نافذ لايقبل المناقشة. وقد كان لهذه الروايات وغيرها من الشذرات المتناثرة في مؤلفه هنا وهناك عن سوء حكم المستنصر والتواء سياسته ولها أثر كبير في التعرف على أحوال البلاد في هذه الفترة الحرجة من تاريخها.

ولايفوتنا في هذا المجال أن نذكر أهمية مؤلف ابن أبي دينار[1] «المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس»، وهو عبارة عن تاريخ جامع لأفريقيا عامة وتونس على وجه الخصوص وقد اعتمد ابن

١- هو أبو عبدالله محمد بن أبي دينار القيرواني، ولايعرف عنه الكثير سوى أنه عاش بالقيروان فترة ثم رحل إلى تونس ويشير الناشر إلى عدم معرفته بتاريخ مولد ابن دينار أو وفاته ولكن كل ما يذكر عنه أنه كان على قيد الحياة في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (أواخر القرن السابع عشر الميلادي) ويؤكد الشيخ مخلوف في كتابه «شجرة النور الزكية» أن ابن أبي دينار كان موجودا على قيد الحياة عام ١١١١هـ / ١٦٨٩م وقد اعتمد ابن أبي دينار على الزركشي في مؤلفه «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» وابن الشماع في مؤلفه «الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية» ويعرف عنه أنه تولى بعض الخطط الشرعية اسلامية مثل تشمية سوسة والقيروان وكان أديبا له العديد من المؤلفات منها «نحلص ذوى المودة والصفا بمتم تواهر الشفاء» وأيضا كتاب «رمشاب العقيق في الروض الأنيق في مجارات الاخوان وأحوال الصاحب والصديق» وكتاب آخر في الأدب تحت اسم «هداية المتعلم». وللمزيد انظر ابن ابي دينار المؤنس، تحقيق محمد شمامه، ص هـ.

أبي دينار في أغلب الموضوعات التي رواها في مؤلفه على ابن الشماع والزركشي وعدد من الشيوخ والفقهاء الذين عاصروه . وقد أفدنا منه كثيرا في التعرف على أحوال تونس إبان الحملة، حيث استهل كتابه بفترة حكم أبي زكريا الحفصي، وأهم انجازاته الحضارية في تونس ، والظروف السياسية التي صاحبت تولية المستنصر بعد وفاة أبيه، كما ألقى الضوء على أخبار الحملة بشكل موجز دون التعرض لأى تفاصيل سياسية أو عسكرية وكل ما سجله والأسباب التي دفعت لويس للتوجه إلى تونس. وشأنه شأن غيره من المؤرخين أرجع سبب الحملة إلى عامل نفسي يعود للويس التاسع نفسه للثأر من المسلمين بعدما أمن بمصر ولكنه انفرد بذكر رواية أخرى تعد من الأسباب الشخصية للحملة ضد تونس معادها ، أن المستنصر حين ذكر أمامه اسم لويس متهكم عليه وقال هذا الذي أسره الأتراك، فغضب لويس عندما علم بذلك وعزم على أخذ تونس. عموما لم يأت ابن أبي دينار بجديد في هذا المضمار بل يتضح تأثره برواية وأسلوب ابن الشماع ، وقد اتسمت روايته بالصدق خاصة فيما أورده عن زمن وصول الحملة ومدتها وتاريخ موت لويس وقد تعرض ابن أبي دينار لأسباب أخرى حول موت لويس غير الوباء وأيد رواية ابن خلدون في احتمال تعرض لويس لمحاولة قتله بسهم مسموم.

وكان على صواب في ذكر مدة وتاريخ الصلح وفيما عدا هذا من أخبار عامة عن تونس بصفة خاصة أو المغرب بوجه عام فقد أفدنا منه على امتداد صفحات البحث

أما ابن أبي زرع (ت في منتصف القرن الثالث الهجرى / أواسط القرن التاسع الميلادى) فقد أفدنا منه بصورة كبيرة وذلك من خلال مؤلفه «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»[1]. فقد وجه عناية كبيرة لأحوال بلاد المغرب قبل الحملة على تونس بسنوات قليلة، مما ألقى المزيد من الضوء على طبيعة العصر الذي قامت فيه الحملة إذ تناول تاريخ الدول ابتداء من الدولة الادريسية حتى عهد الخليفة عثمان بن يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني أي حتى عام ١٣٢٧م / ٧٢٦هـ . لذا فهو سجل دقيق لهذه الدولة التي

١- هو أبو الحسن بن علي بن عبدالله بن أبي زرع ، ولانعرف الكثير عن حياته سوى أنه من اسرة عريقة في فاس وكتابه جامع لأخبار الدول المغربية سياسيا وحضاريا منذ الدولة الادريسية وحتى عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٧م، وقد عني بنشره تور نبرج Tornberg عام ١٨٦٠ ثم نقله الأستاذ أمبروسو اويثي إلى الاسبانية في ١٩١٨م إلى أن تم طبعه في الرباط عام ١٩٣٦ وهي طبعة غير كاملة. انظر عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص١١٤-١١٥

عاصرت مجئ الحملة وهي الدولة الحفصية . وقد اهتم بأحداثها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . أما عن الحملة على تونس، فمما يؤسف له أنه مر عليها سريعا وتناولها عرضا أثناء تناوله أحداث الفترة من عام ٦٦٥-٧٢٢هـ / ١٢٦٤-١٣٢٢م وقد جانبه الصواب في تحديد يوم وصول الحملة، وذكر أنه في شهر ذي الحجة ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٦٧م والحقيقة أنه في ٢٣ ذي القعدة ٦٦٨هـ / ١٨ يوليه ١٢٧٠م من نفس العام، كما زودنا بصورة دقيقة عن استفادة الفرنج من أعمال المستنصر في تحصين سواحله ضد العدو، ولكنه لم يكن دقيقا في تحديد وقت وفاة لويس حيث ذكر أنه توفي في ٢٥ ربيع آخر ٦٦٩هـ / ١٢ ديسمبر ١٢٧٠م وهذا عكس ما أورده المؤرخون الغربيون المعاصرون من أن وفاته في ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٤ محرم ٦٦٩هـ وعلى هذا كانت افادتنا من هذا المؤلف قد اقتصرت على الاطار السياسي لأحوال بلاد المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص . ولم نستفد منه فيما يتعلق بتفصيل الحملة أو أحداث معاركها .

يضاف إلى ما تقدم كتاب «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» لمؤلف مجهول[1] حيث أفدنا منه كثيرا في التعرف على تاريخ المغرب في عصر الموحدين خاصة، كما أنه يمتاز بدقة أخباره وصحتها وخاصة ما يتعلق بصراع القوى السياسية على الحكم قبيل مجيئ الحملة على تونس والتطاحن بين الخلفاء إلى أن انتهى الأمر بسقوط دولة الموحدين . وهو مصدر قيم عن أحوال المغرب، وأسلوب الحرب والقتال المتبع آنذاك ونوعية الأسلحة التي كان الموحدون ورثتهم يستخدمونها أمثال بنو حفص حكام تونس وقت قدوم الحملة، ومما يؤسف أنه لم يتعرض في ثنايا مؤلفه لأخبار الحملة على تونس .

١- ذكر صاحب الحلل أنه انتهى من تأليف هذا الكتاب عام ٧٨٣هـ / ١٣٧٠م في عصر محمد الغني بالله سلطان غرناطة وأبي زيد بن أبي الحسن المريني سلطان المغرب واعتمد في مؤلفه على مصادر معاصرة منها مؤلفات ابن الصيرفي وعبيد الله البكري وأبي بكر الصنهاجي الذي أفاد منه كثيرا في الكلام عن أخبار دولة الموحدين وقد عني بنشر هذا الكتاب المستشرق الأسباني امبروسيو اوميثي ميراند، وذلك باللغة الاسبانية بمدينة تطوان من بين منشورات معهد الجنرال فرانكو، وذلك عام ١٩٥٢ . أما الطبعتان اللتان ظهرتا قبل ذلك في تونس عامي ١٩١٠، ١٩٣٦م فهما مليئتان بالأخطاء والتحريف، وللمزيد انظر عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص١١٠ .

أما الزركشي [١]، فعلى الرغم من أنه تاريخ جامع للمغرب العربي من القرن السادس وحتى القرن التاسع الهجري من (١٢-١٥م) إلا أنه لم يتعرض لأحداث الحملة من قريب أو بعيد، بل تعرض لهذه الفترة من خلال ترجمته لسيرة المستنصر وبيعته وأهم أعماله وعلاقته بخصومه وجيرانه ، ثم وفاته ولذا فهو أشبه ما يكون بكتب السير والتراجم ولكن لاتنكر افادتنا منه في التعرف على أهم الأحداث السياسية التي عاصرت سقوط دولة الموحدين وتوطيد حكم الحفصيين في تونس، مما كان له قيمة في الكشف عن أحوال المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص زمن الحملة

ولايفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أهمية مخطوط «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» لابن تغري بردي (٨٧٤هـ / ١٤٥٤م[٢] أهم مؤرخي القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) لقد تعرض بالتفصيل لأهم أسباب الحملة وذكر أن الألم النفسي داخل لويس من جراء ما حدث له بمصر كان من أهم أسباب حملته ضد تونس ، كما علل سبب مقصده تونس أيضا بأنه يعود إلى هدف عسكري استراتيجي يتعلق بتطويق مصر برا وبحرا ان تملك تونس. ولكنه أوجز عندما تعرض لأخبار نزول الفرنج بقرطاجنة، وتفاصيل الصراع بين الطرفين، بل جانبه الصواب في تحديد زمن وصول الحملة وأورده تحت عام

١- هو محمد بن إبراهيم بن اللؤلؤ الزركشي عاش في القرن التاسع الهجري وقد سمي باللؤلؤ نسبة إلى جده وهناك روايات تفيد بأنه مملوك مجهول الأصل بتونس وساهم في تكوين عائلته وتسمية ابنائه على أسماء لتونسيين، وشهد فترة الضعف والتمزق الحفصي ولمع الزركشي في كتابة التاريخ في عصر الاضمحلال والتدهور الفكري في تونس ومن أهم مؤلفاته «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» وشرح «الدماميية» وهي قصيدة مدح أرسلها شاعر مصري يقال له بدر الدين محمد الدماميني السكندري في مدح الخليفة أبي العباس أحمد الحفصي أما وفاة الزركشي فيرجح أنه لم يكن موجودا بعد عام ٨٩٤هـ / ١٤٧٩م وقد عني بنشر وتحقيق كتابه عن الدولتين الموحدية والحفصية الكاتب محمد ماضور عام ١٩٦٦ أنظر الزركشي، تاريخ الدولتين، ص٣-٥ .

٢- هو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي توفي عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م، وله العديد من المؤلفات، ومنها «النجوم الزاهرة» الذي تناول فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي (منذ القرن الأول وحتى القرن التاسع الهجري) وقد نشرت دار الكتب المصرية الأجزاء من ١-١٢ في الفترة من ١٩٢٩-١٩٥٦ أما المنهل الصافي، فهو مخطوط لم ينشر بعد .

٦٦٠هـ / ١٢٦١م. وأخطأ أيضاً في تحديد تاريخ وفاة لويس وأوردها تحت عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م . وقد اعتمد على ابن مطروح في ذكر الأبيات الشعرية التي ذكرت وقت وصول الحملة إلى كل من مصر وتونس كما أمدنا بعرض ممتاز لسيرة المستنصر الحفصي كما أفدنا كثيراً من مخطوط «نثر الجمان في تاريخ الأعيان» للفيومي (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) [١]، حيث أمدنا بمادة قيمة عن أحوال بلاد المغرب وتونس قبل الحملة، وصراع القوى الثلاثة ورثة الموحدين وهم الحفصيين وبني مرين وبني عبد الواد. وأثر ذلك على أحوال تونس داخليا . كما أورد عرضا قيما حول سيرة المستنصر ، وعدم التزامه بالكلمة مع خصومه وغدره بأقاربه والمقربين منه في سبيل الانفراد بالحكم لنفسه واعتمد في هذه الأخبار على اليونيني في مخطوطه «ذيل مرآة الزمان» وأمدنا بصورة رائعة من علاقة المستنصر بالعربان وجماعات الملوط، وبحميه اللحياني والمجدور، وصراع أبي دبوس على الحكم ولكنه أغفل تماما أخبار الحملة بل انشغل عندما تعرض لأحداث عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م بالأحداث التي ترتبت على سقوط دولة الموحدين ومقتل أبي دبوس، مما أضاع علينا فرصة التعرف على المزيد من الأخبار المتعلقة بالحملة والاستفادة من أسلوبه التفصيلي الدقيق في سرد الأحداث المحيطة بتونس في تلك الفترة من الزمن .

وأفدنا أيضا من مخطوط العيني «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» (ت٨٥٥هـ / ١٤٥١م) فقد أسهب في الحديث عن أحوال مصر وقت الحملة على تونس ومدى استعداد الظاهر بيبرس لها سواء في مصر أو بلاد الشام ، والمدد الذي قدمه لتونس كما أورد لنا قائمة بأسماء الملوك المسيحيين الذين اشتركوا في الحملة، وأثر الصراع الدائر بين بيبرس والمغول على سير الأحداث في تونس، ومدى ارتياح بيبرس لخبر وفاة المستنصر . وألقى الضوء على الصراع الدائر بين الصليبيين وابن الأحمر سلطان الأندلس، وغارات التتار على القسطنطينية وعلى الرغم من أنه لم يتعرض للتفاصيل العسكرية الخاصة بالصراع الدائر بين الصليبيين والتونسيين ، أو التحديد الزمني الدقيق للحملة إلا أننا لاننكر افادتنا منه في مواضع عديدة من البحث وبخاصة في التعرف على أحوال العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ابان الفترة الزمنية موضوع الدراسة.

١- هو أحمد بن محمد بن علي الفيومي ومخطوطه «نثر الجمان» عبارة عن مجلدين المجلد الأول يبدأ من عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٤م وينتهي عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م، وهو لم ينشر بعد

كما أفدنا من مخطوط «تاريخ الدول والملوك» لابن الفرات (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) فبالرغم من عدم معاصرته للأحداث ، إلا أنه أمدنا بمادة قيمة عن الحملة ، من حيث أسبابها واستعداد تونس لها عسكريا واقتصاديا وعدد الجيش الصليبي التي تكونت منه والمراسلات التي تمت بين المستنصر وبيبرس ابان الحملة، ويؤخذ عليه عدم ذكر مضمون الرسالة التي بعث بها السلطان بيبرس إلى المستنصر يعلمه بقدوم الحملة على بلاده وإن كان قد تعرض لدور بيبرس في شحذ همم المغاربة لتصدي للصليبيين كما ألقى الضوء على علاقة الصداقة بين بيبرس وكبار ملوك الفرنج أمثال الامبراطور الألماني مانفرد Manfred وشارل الانجوي صاحب صقلية . وأشار كذلك إلى رسالة أخرى لم يأت بمضمونها أرسلها المستنصر لبيبرس ومعها هدية قيمة حتى يثنيه من اتهامه بالتواطؤ والخيانة ، نظرا لاحساسه بالتقصير في حق بلاده تونس وإن كان ابن الفرات قد ألمح إلى مضمونها بأنها حملت عبارات التوبيخ التي وجهها بيبرس إلى المستنصر وقد نوه أيضا وفي مناسبات عديدة عن إحساسه بخيانة المستنصر والتواء سياسته . والجدير بالذكر أن ابن الفرات على الرغم من أنه لم يوفق في ذكر زمن قدوم الحملة إلى تونس فوضعه خطأ تحت أحداث عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م وعلى الرغم من أنه لم يأت لنا بتفاصيل كافية عن أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين هناك. إلا أن مؤلفه كان له أعظم الأثر في الكشف عن الجوانب الغامضة في سياسة المستنصر الملتوية ، ومكانة مصر بين باقي الدول الإسلامية وتزعم بيبرس لقيادة كلمة المسلمين. هذا بالإضافة إلى أنه المؤرخ الوحيد الذي انفرد بذكر المراسلات بين بيبرس والمستنصر ، وألمح في مرات عديدة إلى محتواها دون الاتيان بنصوصها كاملة .

ومن بين الكتب التي رجعنا إليها من مؤلفات القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وأمدتنا منها بصورة عرضية غير متخصصة في أحداث الحملة كتاب «مفرج الكروب» لابن واصل[1]

---

١ - هو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل قاضي حماة ، ولد عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧ م وقدم إلى القاهرة أكثر من مرة ، وبعث في مهمة دبلوماسية إلى صقلية في عهد الملك مانفرد Manfred ابن الأمبراطور فردريك الثاني ، وكان موجودا بالقاهرة وقت قدوم حملة لويس ضد مصر ١٢٤٨م / ٦٤٨هـ ومات بحماة عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م، ومن أهم مؤلفاته« مفرج الكروب » و«التاريخ الصالحي» انظر ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر وتحقيق د. جمال الدين الشيال، ج١ ، ص٤-٨ ، جوزيف نسيم يوسف العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص٢٨-٣٩ .

واصل (ت٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) حيث يعد من أهم المصادر المعاصرة لأحداث حملة لويس على مصر، وشاهد عيان لكل وقائعها عام (٦٤٦-٦٤٨هـ / ١٢٤٨-١٢٥٠م) ، فكان مصدرا ممتازا لأخبار تلك الحلقة الهامة من سلسلة حملات لويس على ديار الإسلام أما صليبية لويس على تونس فلم يتعرض لها ابن واصل ، بل ألقى الضوء على أحوال مصر ابان هذه الفترة ، ودور بيبرس في تصفية وجود الفرنج ببلاد الشام.

وأفدنا أيضا من «تاريخ مختصر الدول» لابن العبرى[١] (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) حيث أمدنا بمادة قيمة عن التتار وعلاقتهم بالأرمن ابان الفترة موضوع البحث مما يعكس الاتجاهات السياسية على المسرح الدولي وقت الحملة .

ومن بين المصادر الإسلامية التي ترجع إلى القرن الثامن الهجرى / القرن الرابع عشر الميلادى، والتي لها أهميتها أيضا مخطوط «ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » لليونيني» (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) حيث ألقى الضوء على الأحوال الاقتصادية لتونس وقت الحملة والنظم العسكرية التي أقرها المستنصر ببلاده ، ونظام التسليح لجيشه وقت السلم والحرب. كما افدنا أيضا من مخطوط «كنز الدرر وجامع الغرر» لابن أيبك (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م) و«زبدة الفكر في تاريخ الهجرة» لبيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) وهو من أجل الكتب عن عصر الظاهر بيبرس ودوره في الحملة على تونس وأيضا مخطوط «مختصر التواريخ» للسلامي (تاريخ الوفاة غير معروف» و«عيون التواريخ» للكتبى (ت ٧٤٦هـ / ١٣٦٢م) ونزهة العيون لابن رسول (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) وجميع هذه الكتب بين مخطوطه ومصورة لم تنشر بعد أما الكتب التي نشرت والتي افدنا منها بشكل أو بآخر كتاب «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) و«تتمة المختصر» لابن الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) و«دول الإسلام» للذهبى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) .

لقد أفدنا منها جميعا في القاء نظرة موضوعية على أحوال المغرب وقت قدوم الحملة.

١- ولد ابن العبرى عام ٦٢٣هـ ١٢٢٦م في ملطية حاضرة أرمينية ، وتوفى عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م، وكان راهبا منذ صغره، وتنقل في وظائف عديدة ، وعين أسقفا على حلب وشغف بالكتابة والتأليف في العديد من الفنون. أنظر لويس شيخو ترجمة العلامه غريغوريوس أبي الفرج، ص٤-٢٠، ٢٨ ، وأيضا دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن العبرى

ومن أهم مؤلفات القرن التاسع الهجرى / القرن الخامس عشر الميلادى، والتى أمدتنا منها أيضا «كتاب السلوك» و«الخطط للمقريزى» (ت٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) ويلاحظ أن المقريزى لم يتوخ الدقة فيما أورده من أنباء عن الحملة على تونس ، فتارة يوردها فى أعقاب حملة لويس على مصر ، أى عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وأخرى يذكرها تحت أحداث عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م ومرة ثالثة يوردها ضمن أحداث عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م مجاريا فى ذلك أبا الفضائل فى كتابه «النهج السديد»[١] ولم يفطن الناشر إلى ذلك . وعلى أى الأحوال، يعد كتاب السلوك من أهم مصادر العصر الأيوبي والمملوكي أما الخطأ الذى ورد فى روايته عن الحملة فيعود إلى عادة النقل عن الغير من السابقين دون وقفة فاحصة مع ما ينقله من أنباء .

ومن الكتب التى رجعنا إليها أيضا والتى ترجع إلى العصور التالية «تاريخ مصر والمعروف» ببدائع الزهور فى وقائع الدهور » (ت ٩٣٠هـ / ١٢٥٣م) وقلادة النحر، لبامخرمة (عاش فى القرن العاشر الهجرى/ القرن السادس عشر الميلادى) وهو مخطوط لم ينشر بعد، «والنزهة الزهية» و«عيون الأخبار» لابن أبي السرور (١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) وهما مخطوطتان لم ينشرا بعد .

وإذا كنا قد استعرضنا أهم المصادر والأصول التاريخية ، من عربية وغير عربية خطية ومطبوعة ، والمتعلقة بحملة لويس التاسع الصليبية على تونس- أقول أننا إذا كنا قد تناولنا هذه المنابع بالبحث والتحليل، فقد لجأنا فى ذات الوقت إلى الموازنات والمطابقات والمقارنات التاريخية بين هذه المنابع وبعضها البعض وتمكنا فى كثير من الأحيان من حسم العديد من القضايا والمسائل التى كانت حتى تدوين هذه الرسالة مثار جدل وخلاف بين المؤرخين .

يضاف إلى كل ما تقدم أننا رجعنا إلى مجموعة كبيرة من كتب الجغرافيين والرحالة حيث أمدتنا بمادة قيمة عن جغرافية تونس وطبوغرافيتها. كما ألقت الضوء على الكثير من النواحى الاقتصادية والاجتماعية ويأتى على رأسها كتاب «صفة المغرب وأرض الأندلس» للادريسى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٦م) حيث أمدنا من خلال رحلته إلى تونس بمادة ممتازة عن جغرافيتها وألقى الضوء على قرطاجنة ومساحتها وأهميتها بالنسبة لتونس، وأيضا «المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ت فى حدود ٣٠٠هـ / ٩٧٠م) و «مروج الذهب» للمسعودى (ت٣٤٦هـ / ١٠١٦م)

١- انظر المقريزى، السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٥٨٧-٥٨٨ ، حاشية ٥

وصورة الأرض» لابن حوقل (عاش في القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) و«معجم البلدان» لياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) وغيرهم. فهذه المؤلفات لها قيمتها التي لاتنكر في عرض المسرح الجغرافي لتونس بصفة عامة وقرطاجنة حيث دارت على سواحلها وفوق أرضها معارك الحملة على وجه الخصوص .

أما عن المراجع الثانوية فيمكن تقسيمها بالنسبة لموضوع البحث إلى أربعة أنواع :

أولا كتب عن تاريخ الحروب الصليبية ومن أهمها مؤلفات ستيفن رانسيمان S. Runciman ورنيه جروسيه R. Grousset ، وهما من أهم وأعظم المؤلفات الأجنبية عن الحروب الصليبية المبكرة كما أفدنا أيضا من مؤلفات آرثر وكينجزفورد Archer & Kingsford ، وفرديناند شالندون F. Chalndon وج. ف. ميشو J. F. Michaud وكامبل Campbell .

ثانيا كتب متخصصة في تاريخ سيرة القديس لويس أمثال مؤلفات Guizot وهنرى بوردو H. Bordeaux وجاك بولانجيه J. Boulenger وسيجور Sejor ، وميلر Miller ، وبيرى Perry ، وريشارد Richard وواطسون Watson .

ثالثا كتب متخصصة في تاريخ الشرق اللاتيني ومن أهمها تأليف Raynaud ، وقد أفدنا منهما في تتبع أخبار الحملة ضد تونس منذ الاعداد لها في أوروبا وحتى قدومها تونس كما ج» رينو بتفاصيل المعاهدة التي عقدت بين والمستنصر وشارل الانجوى وجاء تأليفه مزيجا بين وجهتى النظر العربية والغربية ، حيث كان رينو جامعا لآراء المؤرخين العرب في هذا الصدد ، كما أفدنا أيضا من مؤلف Rohricht الذى أفرد فيه فصولا كاملة عن حملة الأمير ادوارد، وأيضا تأليف رى Ray ، وشلومبرجيه Schlumberger وماس لاترى Mas Latrie وغيرهم.

رابعا هذا بالإضافة إلي عدد ضخم من المراجع العربية الحديثة عن تاريخ الصراع بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ومنها «حملتا لويس على مصر والشام» للدكتور جوزيف نسيم يوسف ، و«خلاصة تاريخ تونس» لحسن عبد الوهاب و«لب التاريخ» لمحمد الحبيب و«تاريخ الحركة الصليبية» للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور و«المغرب الكبير» للدكتور السيد عبد العزيز سالم و«حضارة العرب» لوبون و«تاريخ الأندلس» ليوسف اشباخ و«الجبهة الإسلامية» لمحمد سعيد غنيم وغيرها .

الفصل الأول

الغرب اللاتيني والمغرب الإسلامي قبيل حملة لويس التاسع على تونس

أحوال العالم الإسلامي بصفة عامة وتونس بصفة خاصة- أحوال الغرب الأوروبي قبيل مجئ الحملة بصفة عامة وفرنسا على وجه الخصوص- أسباب حملة لويس التاسع الصليبية على تونس- الدعوة للحملة والتبشير بها

اتقطع الصراع بين العالم الأوروبي المسيحي والعالم العربي الإسلامي، في جبهتيهما الشرقية والغربية ، من العصور الوسطى عشرة قرون من الزمان أو يزيد ، وذلك اعتبارا من ظهور الإسلام في بدايات القرن السابع الميلادى (القرن الأول الهجرى) وحتى بدايات القرن السادس الميلادى (القرن العاشر الهجرى) . وتمثل الحروب الصليبية مرحلة رئيسية من مراحل هذا الصراع الدامي، وقد شغلت الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، ومن أهمها حملة لويس التاسع على تونس عام ١٢٧٠م (٦٦٨-٦٦٩هـ) وهي الحملة التاسعة والأخيرة في عداد الحروب الصليبية المبكرة .

ففي ذلك الوقت الذي استعدت فيه أوروبا لتوجيه ضربتها إلى المغرب الإسلامي، كان توازن القوى في الصراع بين المسلمين والصليبيين يميل لصالح الإسلام، وكانت مصر هي قلب هذا العالم النابض بالحركة والحياة، ومصدر امداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح وكان يحكمها آنذاك السلطان الظاهر بيبرس هذا، بينما كان الكيان الصليبي في بلاد الشام يتداعى وينهار في الوقت الذي أحجمت فيه القوى الأوروبية تنفض يدها عن المزيج الشرق، وتتنكر لتلك الفكرة العقيمة في دعم الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة. أما المغرب الإسلامي وتونس بصفة خاصة التي كانت تتمتع بحالة من الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي ، وخاصة في مجال التجارة فقد أصبح مطمعا للصليبيين إذ فجروا مطامعهم في تلك الحملة على تونس

وقبل الخوض في تفاصيل هذه الحملة، يحسن استعراض أحوال كل من المغرب الإسلامي والغرب الأوروبي بصفة عامة وتونس وفرنسا على وجه الخصوص في الفترة السابقة لقيامها، لفهم الظروف التي هيئت لاخراجها إلى حيز التنفيذ . لقد كانت تونس هي الأرض التي شهدت تداعي الفكرة الصليبية وموت أشد المتعصبين لها وهو لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد ثلاث حملات كبيرة كانت أولاها ضد مصر ، وثانيتها ضد بلاد الشام، وثالثتها تلك التي نحن بصددها.

كان يحكم مراكش آنذاك بنو عبد المؤمن مؤسسو دولة الموحدين بالمغرب ، وكانت المغرب منذ أوائل القرن السابع الهجري/ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، تعاني من الفتن والمؤامرات والاضطرابات السياسية خاصة بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م. فقد أجمع المؤرخون العرب أن هذه الموقعة كانت السبب الرئيسي في انهيار الكيان الإسلامي في بلاد الأندلس بصفة عامة[١]. فقد تمكن النصارى من الاستيلاء على أكثر مدن الأندلس، ولم تقم لدولة الموحدين قائمة بعد ذلك ، حيث تعددت الأسباب التي أعانت على انهيارها. وكان من أهمها الضعف الحربي والسياسي الذي منيت به البلاد بعد هزيمة الموحدين في تلك الموقعة. هذا بالإضافة إلى انتشار الفوضى والاضطراب ، وكثرة الحركات الداخلية المناوئة ، وازدياد التوسع المسيحي في بلاد الأندلس أضف إلى هذا ضعف الخلفاء الذين تولوا الحكم بعد الخليفة محمد الناصر. ويعتبر الخليفة المستنصر بالله يعقوب بن محمد الناصر أول الخلفاء الضعاف (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) الذي كثرت في عهده الفتن والثورات والاضطرابات ، كما كثر الخارجون عليه. ولما توفي ازداد الأمر اضطرابا ، واجتمع الناس على خلافة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن. وفي عهده تفرق الموحدون وازدادت مطامعهم في الخلافة ، ولم يهنأ الخليفة الواحد منهم على حكم مستقر دون دسائس أو مؤامرات وقد استقل أبومحمد عبدالله بن يعقوب المنصور بالأندلس وتلقب بالعادل. ورغم أن عددا كبيرا من أعيان الموحدين قد أيدوه، إلا أن العهد لم يطل به فقتل غيلة في ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م[٢] وخلفه

١- الفيومي (أحمد بن محمد بن علي) نثر الجمان في تاريخ الأعيان المجلد الثاني، مخطوط ، ورقة ٦ب.

٢- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) المغرب الكبير- العصر الإسلامي الاسكندرية، ١٩٦٦، ص٨٢٩

أخوه أبو العلاء ادريس بن المنصور. إذ انتهى الأمر بمبايعته بالخلافة في أشبيلية مقر ولايته ، وتلقب بأبي العلاء المأمون وبايعه أهل الأندلس، وفي نفس الوقت بويع أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة في مراكش وتلقب بالمعتصم، واشتد الصراع بين خليفة الموحدين بالأندلس وخليفتهم بالمغرب ، ولم ينته هذا الصراع إلا بوفاة أبي العلاء ادريس في ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م[1]. وبذا أصبح المغرب مسرحاً للقتال بين خلفاء الموحدين وانتشرت الثورات في كل مكان، ومن أشهرها ثورة محمد بن يوسف بن هود الجذامي بمدينة مرسية. فقد تمكن من التغلب على شرق الأندلس كله وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء وأيقن أهل الأندلس أن امارته ستكون مخرجا لهم من حالة الفوضى والاضطراب ، ولكنه اصطدم بحركات مضادة من قبل القشتاليين والأراغونيين وبعض خصومه من زعماء الأندلس، وكانت كل هذه الصراعات فرصة كبيرة لضياع معظم بلدان الأندلس فسقطت قرطبة وأشبيلية وغيرها في يد المسيحيين ، كما تمكن ادريس بدهائه وحنكته السياسية من التخلص من أتباع ابن هود واستئصال شأفتهم نهائيا حتى كان يطلق عليه «حجاج المغرب» . وبعد فترة تقارب العشرين عاما دخل مراكش أبو العلاء ادريس الثاني المعروف بأبي دبوس ولقب بأمير المؤمنين وبالواثق[2] . ويعرف عنه أنه كان داهية في السياسة وأنه دخل مراكش غدرا ، وذلك في عهد الخليفة المرتضى أبي حفص بن إسحاق الذي تولى بعد وفاة المعتضد بن المأمون

وقد ترك المرتضى الحكم [3]، وبويع أبو دبوس بالخلافة بجامع المنصور يوم الأحد ٢٣ محرم ٦٦٥هـ / ١ ينايير ١٢٠٨م أي في اليوم الثاني من دخوله مراكش[4] أما سبب تعرض

١– كان أبو العلاء قد استعان بفرقة من النصارى المرتزقة أدخلهم في جيشه وأقاموا في مراكش بعد أن بنى لهم فيها كنيسة ، وبينما كان المأمون منشغلا بمحاربة المعتصم انقض عليه أخوه أبو موسى في سبتة وتخلص منه ولقب نفسه بالمؤيد. أنظر عبد العزيز سالم. المرجع السابق. ص٨٢٩

٢– اختلفت المصادر المعاصرة في نسبة ، فمنهم من يقول أنه أبودبوس ابن ادريس المأمون ، ومنهم من يقول أن اسمه ادريس بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد الواحد. أنظر الفيومي. نثر الجمان ، ج٢، ورقة (٩٨)

٣– ابن أبي زرع (علي بن محمد الفاسي). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، نشره تورنبرج ، أبسالا ١٨٤٣، ص١٧٢–١٧٥ .

٤– اختلفت المصادر المعاصرة حول يوم دخول أبي دبوس مراكش، وهل هو ٢١محرم أم ٢٢ . ويرجح =

أبي دبوس بالمرتضى فذلك لأن الأخير كان يريد أن يفتك به أثناء اقامته بمراكش ولما احس أبو دبوس ذلك فر هاربا إلى أمير المؤمنين أبي يوسف بن يعقوب بن عبد الحق من بني مرين، وطلب منه المساعدة ضد المرتضى . وتشير المصادر المعاصرة أنه على الرغم من الحفاوة الرائعة التي قوبل بها أبو دبوس من قبل أبي يوسف إلا أنه أنكر ذلك الجميل وتمرد عليه في نهاية الأمر، رغم أن أبايوسف قد وافق في هذه المقابلة على امداد أبي دبوس بكل ما يحتاج إليه من أموال وعتاد حتى ينتصر على المرتضى ويمكنه من حكم البلاد. وفعلا أمده بجيش قوامه ثلاثة الاف فارس من قبائل بني مرين،[1] وأعطاه خيولا وعشرين ألف دينار، ولكنه اشترط عليه أن يعطيه نصف ما يحصل عليه من البلاد ، ووافق أبو دبوس على ذلك ، وانصرف من عنده بعد أن تمكن من ضم عدد كبير من عربان افريقيا ممن كانوا في طاعة لخليفة المرتضى إليه، وطلب منهم أن يبايعوه ووافقوا على ذلك وساروا معه حتى بلدة مكسورة.

وقد مكث أبودبوس بهذه البلدة بضعة أيام ، وتمكن من اجراء مراسلات سرية مع بعض اتباع المرتضى الذين أجابوه قائلين «أقبل ولاتخف فنحن نؤيدك والجند فرقناها في البلاد»[1] وفعلا ساعدوه على دخول مراكش ليلا في غفلة من أهلها الذين لم يستسلموا له. ودارت معركة حاسمة صباح يوم ٢٢ محرم بين قوات كل من المرتضى وأبي دبوس الذي رجحت كفته وأدرك المرتضى هذا فهرب من باب سري بقصره. ودخل أبو دبوس القصر وأقر الأمور ووصل إلى مدينة أزمور التي كانت تزخر بأتباع ابن عطوش ، وهو صديق حميم للمرتضى ، حيث كان قد أسر ذات مرة فدفع له المرتضى مبلغا كبيرا من المال وفك أسره وزوجه ابنته وولاه تلك المدينة

---

* أن دخوله كان يوم ٢١ محرم لأن اليوم التالي لدخوله حفل بالأحداث السياسية السريعة والناجمة من قبل أبي دبوس ضد المرتضى فمن المنطقي أن أبا دبوس أمضى يوما على الأقل داخل البلاد لاقرار الأمور فيها ثم انتزع الخلافة من المرتضى ، لأن لايعقل أن تكون تلك الخطوة قد حدثت دون إعداد لها على الأقل قبلها بيوم واحد، وحتى هذا اليوم يعتبر غير كاف لكل هذه الأحداث ، وربما قد تم الإعداد لتلك الخطوة قبل ذلك بفترة أنظر مجهول الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ص١٢٦ ، النويري نثر الجمان ، ج٢ ، ورقة (٥٧) ابن أبي زرع - الأنيس المطرب ، ص١٧٣ .

١- ابن أبي زرع الأنيس المطرب، ص١٧٣، مجهول، الحلل الموشية، ص١٢٦

فكان ابن عطوش مصدر ثقة المرتضى وملنه، فهرب إليه طالبا منه الحماية. فما كان من ابن عطوش إلا أن أوثقه بالحديد، وكتب إلى أبي دبوس قائلا: «اعلم يا أمير المؤمنين أني قد قبضت على الشقي وإني سأرسله إليه». وفعلا أرسله ولكنه قتل في الطريق. وبعد أن تخلص أبو دبوس من المرتضى وأتباعه، بدأ يعمل جاهدا على استتباب الأمور داخل البلاد والاهتمام بأحوال مراكش السياسية والاقتصادية ... وصلت هذه الأخبار إلى أبي يوسف الذي سبق وقدم له كل العون في بداية صراعه مع المرتضى. وكتب إلى أبي دبوس يطلب منه الوفاء بوعده، وأن يمكنه بما اشترط عليه من قبل. ولكن رد أبي دبوس «قل له أن يغتنم السلامة ويقنع بما في يده من البلاد وإلا أتيته بجنود وعتاد لاقبل له بها»[1]. فلما علم أبو يوسف بذلك، صمم على قتال أبي دبوس، وأصدر أوامره بالقبض عليه حيث حمل إلى مدينة فاس فظلوا يطوفون به في أسواق المدينة إلى أن علق على أحد أبوابها، وقتل في شهر ذي الحجة ٦٦٧هـ / أغسطس ١٢٦٩م، وقيل في محرم ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٦٩م [2] وفي رواية أخرى أنه لم يقبض عليه، ولكن دارت بينه وبين قوات بني مرين بقيادة أبي يوسف معركة ضارية عضد فيها أبا دبوس عدد من العربان والفرنج، وأن الدائرة دارت عليه وهزم في المعركة وعلقت رأسه على سور المدينة

وبناء على ما تقدم، فإنه بموت أبي دبوس انقرضت دولة الموحدين وانتشرت الفتن والفوضى التي دبت في بلاد المغرب والأندلس وانقسم ملك الموحدين إلى ثلاث دول مستقلة، فقد استغل بنو حفص المصامدة وولاة أفريقيا في عصر الموحدين فرصة احتضار هذه الدولة، وأعلنوا استقلالهم عنها، ودامت لهم السيطرة على طنجة وسبتة وبعض مدن الأندلس بينما

١- ابن الفرات (ناصر الدين محمد عبد الرحيم بن علي): تاريخ الدول والملوك، ١٨ مجلدا، مخطوط دار الكتب المصرية، ج١٢، لوحة ٦٠.

٢- اختلفت المصادر حول السنة التي قتل فيها أبو دبوس وهي هل ٦٦٧هـ أم ٦٦٨هـ؟ وقد أجمع عدد من المصادر على أن أبا دبوس ظل في الحكم ثلاث سنوات (٦٦٥هـ / ٦٦٨هـ) في حين يؤكد البعض الآخر أنه قتل سنة ٦٦٧هـ. وعلى أي الأحوال فالخلاف بين هذين التاريخين هو اختلاف بسيط لايتعدى أن يكون يوما واحدا ما بين نهاية عام ٦٦٧هـ وبداية أول يوم من ٦٦٨هـ. وبناء على هذا، فإن مدة حكم أبي دبوس التي تقرب من ثلاث سنوات تعد أمرا بالغ الأهمية حيث أن مقتله كان النهاية الحتمية للدولة الموحدية. انظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٧٣-١٧٥، مجهول: الحلل الموشية، ص١٢٨، الفيومي: نظم الجمان، ج٣، ورقة ٧ ب، ابن الفرات: تاريخ الدولة، ج١٢، لوحة ٦٠

اقتسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزناتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهم، فاختص بنو مرين بالمغرب الأقصى ، بينما استقل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط ، في حين تمكن بنو حفص من توطيد نفوذهم في المغرب الأدنى وقد تأثروا كثيرا بكل هذه الاضطرابات والفوضى التي أصابت المغرب، وتمكنوا بدهاء من اعلاء كلمتهم على معظم أنحاء شمال أفريقيا إلى أن استقر بهم الحال في تونس . والحفصيون هم أمراء ينتسبون لأبي حفص يحيى بن عمر الهنتاني[1] الذي تمكن في عهد الموحدين من أن يبلغ مكانة سامية نظرا لسبقه في الجهاد إلى جانبهم وكان أبو حفص من أكبر أصحاب ابن تومرت بن عبد المؤمن ففي عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م تداول أبناء أبي حفص المناصب المرموقة في المغرب والأندلس إلى أن تمكن أبو زكريا يحيى بن أبي حفص في عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م من الهيمنة على شئون تونس الداخلية مستقلا في ذلك ضعف وتفتت كلمة الموحدين وبالتحديد في ٢٦ رجب ٦٢٥هـ / ٢ يوليو ١٢٢٧م تمكن من السيطرة على البلاد بصورة رسمية ودامت له السيطرة على الحكم اثنين وعشرين عاما ٢٦ (٢٦رجب ٦٢٥هـ- ٢٣ جماد آخر ٦٤٧ / ٢٨ يوليو ١٢٢٧-٤ أكتوبر ١٢٤٩م) وقد واجه بنو حفص صعابا عديدة في بسط سيطرتهم على البلاد فقد اصطدموا ببني عبد الواد ودارت بينهم معارك عديدة إلى أن تمكن الحفصيون من فرض سيطرتهم على الجزائر . كما اصطدموا ببني مرين، ودارت حروب كثيرة بينهم، هذا في الوقت الذي دبت فيه الفتنة بين أفراد البيت الحفصي نفسه، فحين قام أبو عبدالله بن محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص في عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م، بتولي الأمور في افريقيا، ولى أخاه أبا زكريا قابس[2]، وولى أخاه أبا

١- هنتانة : قبيلة من برابرة المصامدة الساكنين بالمغرب الأقصى ويذكر أبو الفدا أن الهنتاتة المقصود بها مدينتين متقاربتين من فوقهما ، ويزعم الهنتاتيون أنهم قرشيون من بني كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه، انظر أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل أبو علي): المختصر في أخبار البشر، ٤ ج، ج٣، ص١٩٦ ، أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ٣ ج ، مخطوط دار الكتب المصرية، ج٣، ورقة ٣١٢، الفيومي نثر الجمان، ج٢، ورقة ١٩ (أ)

٢- قابس: مدينة بين طرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل البحر فيها نخل وبساتين ، غربي طرابلس الغرب ، ذات مياه جارية وبها حصن حصين وفنادق وجامع وبها مرفأ للسفن ولها ثلاثة أبواب يسكنها العرب والأفارقة. وساحل مدينة قابس يشتهر بالتجارة. أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤ ، ص٢٨٩ ، وأيضا ابن الفقيه (أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني): كتاب البلدان، بريل ١٣٠٢هـ ص٧٩

ابراهيم اسحاق بلاد الجديد، خرج أبو إبراهيم اسحاق على أخيه أبي عبد الله وطرده وولى مكانه أخاه أبا زكريا فتقم بنو عبد المؤمن على أبي زكريا. فقام الأخير باسقاط اسم عبد المؤمن من الخطبة وخلع طاعتهم وتملك افريقيا وخطب لنفسه بالأمير وقد واجهته في بداية الأمر صعابا كثيرة وخاصة من قبيلة هوارة [١]، وتمكن من اخماد ثورتها عام ٦٣١هـ / ١٢٢٤م، كما تمكن من الاستيلاء على تلمسان وجزء كبير من أملاك بني عبد الواد وقد ساعده على ذلك عدم وجود القوة المتسقة الموحدة التي يمكن أن تقف أمامه وخطب له في الصلاة، ووفد عليه ابن مردنيش صاحب بلنسية يستنجد به ضد النصارى الأسبان بقيادة خايمي الأول ملك أراجون الذي ازدادت أطماعه في بلنسية وغيرها من مدن الأندلس[٢] وقد أجابهم أبو زكريا بأسطول ضخم شحنه بالأقوات والأسلحة.

وشهدت تونس في عهد أبي زكريا نهضة علمية ، ولازالت هناك العديد من مظاهر الحضارة والعمران ممتدة آثارها حتى اليوم وترجع إلى هذا العهد، وتأثرت حضارة بني حفص كثيرا بالحضارة الأندلسية ، وكان بلاط أبي زكريا يزخر بأهل الأندلس من العلماء والأدباء ، وكان هو مولعا بمجلس الشعراء [٣] وهذا يعني أن البلاد في عهده كانت تنعم بحالة من الهدوء والرخاء والاستقرار ، الأمر الذي لم تتمتع به القوى الإسلامية الأخرى في المغرب[٤] حسبما يتضح من العرض الذي أسلفناه .

١- هوارة قرية بالقرب من تونس اشتهرت بانتشار المذهب الشيعي بها، وسكنها يعرفون بالهواريين، أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص٩٩٥، طبعة ليبزج ١٨٦٩

٢- بلنسية السين مهملة مكسورة وياء خفيفة وهي كورة ومدينة مشهورة بالأندلس شرقي قرطبة وهي بلد برية بحرية بها أشجار وأنهار وتتصل بها مدن تعد في جملتها ، ولابطحاء منها سهل ولاجبل وأهلها خير أهل الأندلس، أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ١ ، ص٤٩٠ .

٣- ابن القنفذ الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص١١٢ وقد ذكر ابن مردنيش مرة بحضرة أبي زكريا بعض الأبيات الشعرية التي كتبها الأديب أبوعبدالله بن الآبار ليطلب حملة لمساعدته ، ومنها

أدرك بخيلك خيـــل الله أندلسـا إن السبيل إلى منجاتها درسـا

أنظر الغبريني عنوان الدراية، فمن عرف من العلماء في المائة السابعة السابقة ببجاية، الجزائر ١٩٧٠، ص٢٥٧ ، ص٢٥٧ . وأنظر عبد العزيز سالم المغرب الكبير، ص٨٧٦

٤- أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص٦٩٦ .

وتوفي أبو زكريا في ٢٢ جمادى الآخر عام ٦٤٧هـ / ٤ أكتوبر ١٢٤٩م[١]، وذلك حين خرج معه ولده المستنصر وكان ولي عهده في رحلة إلى مدينة بونا ومرض فجأة وسقط ميتا بين يدي ولده. فما كان من المستنصر إلا أن تركه على حاله بين يدي الناس الذين اشتغلوا بجنازته وامتطى جوادا كان يسمي «الجيش» وفرع نحو مدينة تونس ، وذلك خوفا من أن يسبقه عماه اللحياني والمجدور ويضعا أيديهما عليها [٢] وعند دخوله تونس وجد الخبر بموت أبيه قد سبق، والنواح في القصر فأبطل المستنصر كل هذا وقال لهم «أشروا بي عفى خلف عن الماضي»[٣]. واحتفل المستنصر على الفور بمبايعة البلاد الإسلامية له، خاصة حين أرسل له أمير الحجاز وأهلها مبايعتهم له بالخلافة عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م فاحتفل المستنصر بهذا ولقب نفسه يومئذ بأمير المؤمنين ، وقد بايعته قبائل بني مرين وقدم إليه ملك برنو[٤] بالسودان هدايا نفيسة. كما كان يتلقى السفارات من المدن الإيطالية وبعض دول البحر المتوسط وعدد من دول أوروبا الدنيئة التي كان ملوكها يقدمون إليه الهدايا، ويعرف عن المستنصر أنه كان ملكا عظيما على بلوغ مقصده شهدت تونس في عصره حضارة عمرانية مزدهرة فقد اهتم بإنشاء المباني، ورمم الحنايا الرومانية القديمة لجلب ماء زغوان وأجرى بعضا من مائه

١- ابن القنفذ الفارسية في تاريخ الدولة الحفصية ، ص١١٤ ، أبو المحاسن، المنهل الصافي، ج٣، ورقة ١١٢ ، بامخرمة (أبو محمد بن عبدالله بن أحمد ابن علي) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج٦ ، مخطوط ج٥ ، ورقة ٢٢٨، اليونيني (موسى بن محمد بن أحمد قطب الدين) ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج١٥ و١٧ ، مخطوط ، ج١٧ ، ورقة ٨٤ ، ب ، الفيومي نثر الجمان، ج٢، ورقة ١٩٠ أ، ابن رسول (عباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر) نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون ، مجلدان ، مخطوط، المجلد الأول، ورقة ٤٦٤-٤٦٥ ، أبو الفدا المختصر ، ج٣ ، ص١٩٦ ، ابن أبي دينار القيرواني المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في تاريخ أمراء أفريقية ، ص٦٢ ، الزركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص١٥٠ .

٢- سمي أحدهما باللحياني لكثرة لحيته وكان يدعى محمد اللحياني، والآخر سمي المجدور لكثرة الجدري بوجهه وهو ابراهيم أبو عبدالله المجدور، أنظر اليونيني ذيل مرآة الزمان، ج١٧ ، ورقة ٨٤ أ ب وأيضا الفيومي نثر الجمان، ج١٢، ورقة ١٩٠-أ

٣- ابن أبي دينار المؤنس ، ص١٢٧ ، المسعودي، الخلاصة النقية، ص٦٢ ، الزركشي تاريخ الدولتين ص١٥٠ ، وأيضا حسن عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس، ص١١٣

٤- برنو، مملكة بأواسط السودان عاصمتها مدينة كوكه ، ويسكنها زنوج مسلمين أنظر محمد الحبيب لب التاريخ ، ص٢١٥، حسن عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس، ص١١٣

البستان الذى اتخذه برأس الطابية والبعض الآخر للبستان المعروف بأبى فهر قرب اريانه (١)، كما أجرى البعض الآخر إلى داخل المدينة وجامع الزيتونة، وأضاف العديد من الانشاءات الأخرى، وكثرت ثروات الناس، وتأنق أهل تونس فى ملبسهم ومسكنهم ومبانيهم، حتى الآنية التي كانوا يستعملونها كانت تتميز بقيمتها، كما اهتم ببناية السقاية شرقي جامع الزيتونة، وبالغ المستنصر في اكمال الحناية التي يجرى ماؤها إلي مدينة قرطاجنة (٢)، كما انشأ مسجد باب البحر بالمنستير وكل أبنيته تأثرت بالأسلوب الأندلسي وفي عهده توطدت العلاقات التجارية بين تونس وبرشلونه ومرسيليا وجنوه وبيزا، وصقلية والبندقية، وانشأ فى تونس الفنادق الأجنبية الفخمة (٣). كما تميز عهده بمشاهير العلماء الذين انقطعوا لنشر العلم مع من نزح من الأندلس وصقلية ومنهم أبو علي بن موسى النحوى المعروف بأبي عصفور الأشبيلي وغيره، هذا، وقد انفرد بعض المؤرخين العرب العديد من صفحاتهم عن حياة المستنصر، وأن لقبه المنتصر وليس المستنصر، وإن اتفقت الأغلبية على أنه المستنصر(٤). وكان يعرف عنه أنه محبا للشعر والأدب(٥).

كما أشارت العديد من المصادر إلى اهتمامه بشهواته الخاصة، وأنه كانت تزف إليه كل يوم جارية(٦) وأنه كان محبا للمظاهر والعظمة واستمر يلقب نفسه بأمير المؤمنين، ولكن لم يتمتع طويلا بهذا اللقب إذ عمد السلطان الظاهر بيبرس إلى احياء الخلافة العباسية في

١- اريانه: يقال لها أيضا اريونة وهى على ساحل قرطبة تقع لغر بلاد الأندلس مما يلي بلاد الفرنج، أنظر: ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص٨٢، أنظر أيضا: ابن القنفذ، الفارسية، ص١١٧، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية، ص٣٠٢.

٢- محمد الحبيب: أب التاريخ، ص٢١٤.

٣- عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص٨٧٨.

٤- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج١، القاهرة ١٩٥١، ص١١٥

٥- هذه بعض الأبيات الشعرية على لسانه:

مالي عليك سوى الدمع معين	إن كنت تنصر في الهوى وتعين
من منجدي غير الدموع فانها	لمعينة مهما استغاث حزين
الله يعلم أن ما حملتني	صعب ولكن في رضاك يهون

أنظر أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٣، ورقة ٣١٢.

٦- أبو المحاسن: المنهل، ج٣، ورقة ٣١٢ بامخرمة: قلادة النحر، ج٥، ورقة ٣٣٨

القاهرة حين أحضر أحد الأمراء من بقايا العباسيين وكان يسمى «الحاكم بأمر الله» ولقبه بالخليفة العباسي وقام يدعو له على منابر مصر، الأمر الذي ترتب عليه أن سحب لقب الخليفة أو أمير المؤمنين من المستنصر وأصبح لقبه السلطان وذلك منذ عام ١٢٦١م / ٦٥٩هـ [1].

وعلى الرغم من كل هذه المظاهر الحضارية التي شهدتها تونس على عهد المستنصر قبيل الحملة الصليبية الثامنة عليها، إلا أنه توجد اشارات مبعثرة هنا وهناك في بطون مصادر هذا العصر تبين أن المجاعة والوباء كانا منتشرين في تونس إلى الحد الذي شجع شارل الأنجوي حاكم صقلية على اقناع أخيه لويس التاسع ملك فرنسا على التوجه إليها، مستغلا هذه الظروف السيئة التي كانت البلاد تمر بها. وثمة تساؤلات عديدة تطرح نفسها ملحة في طلب الاجابة عنها، هي : كيف تتمتع تونس بمثل هذا الرخاء والاستقرار، وبعد ذلك ينتشر بها الوباء والمجاعة ؟ وهل من المعقول أن تنظم حملة عسكرية من أوروبا لتكون وجهتها بلدا انتشر به الوباء، وما هو الدافع لذلك ؟ وهل الوباء يعتبر دافعا للقدوم إلى مكان ينتشر فيه أم الفرار بعيدا عنه؟ وعلى هذا فلابد لنا من وقفه مع رأى كل من ابن خلدون والمقريزي بهذا الشأن[2]. فلايمكن لبلد مثل تونس تمتعت بكل هذا الازدهار الحضاري في شتى المجالات أن تكون عرضة لهذا المرض. حقيقة أن تونس قد عانت من قلة الأقوات، ولكن ذلك كان أثناء حصار حملة لويس لها، وليس قبل مجيئه إلى تونس ، بدليل اقتناعه بالتوجه إليها حيث وجد فيها كل ما يشتهيه والمرض بالطبع لايدفع إلى الشهية [3].

ومع ذلك ، لم يكن عهد المستنصر كله رخاء في رخاء فلم يخل من العديد من الاضطرابات السياسية الداخلية ، وخاصة من قبل عميه اللحياني والمجبور. فقد ذكرنا آنفا أنه من شدة خوفه على حكم تونس ترك أباه على حاله في بونة ورحل إلى بلاده خشية من عميه ، لأن كلا منهما كان يطمع في الحكم، وكان عليه سرعة الخلاص منهما بما لديه من دهاء وحنكة سياسية . فأمر في أعقاب توليه الحكم بأن تعد الجيوش وأن يكون عمه اللحياني في مقدمتها وعمه المجبور في مؤخرتها . وكان قصده من هذا أن يتعرف على أمور جنده، ويكتشف من يتبعه ، ومن في نيته التمرد عليه. وفعلا اجتمعت بين يديه الجيوش ما عدا عميه ومعهما سبعين

١- الغبريني : عنوان الدراية ، ص١٠٢-١٠٣ ، ابن القنفذ ، الفارسية ، ص١٢٣ - ١٢٤ محمد مزالي والبشير بن سلامة: تاريخ أفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي حتى عام ٨٣٠، معرب ، تونس ، ١٩٧٨، ص١٧٩

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٠ ، المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد) : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ٢، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٤٢ ، ج١، ق١ ، ص٣٦

٣- سوف أتعرض لهذه القضية بالتفصيل في الفصل الرابع

آخرين ممن تمردوا من الجند . وقام المستنصر بالاختفاء بجيشه، وأقام لرجاله الولائم. كما قدم الهدايا والمساعدات لكل الرعية، كل هذا وهو في قلق من أمرهما. واستمر على هذه الحال ما يقرب من عام ونصف دون أن يبت في أمرهما. ومما ضاعف من قلق المستنصر انضمام ثلاثة من كبار القوم والأعيان في تونس إلى جانب اللحياني والمجدور، وهم ابن الريمان وابن اسحاق بن رحان وابراهيم بن اسحاق [1]. وقد استعمل المستنصر معهم كل حيلة، حيث تظاهر بالتودد والرغبة في الصلح ، واستدركهم في بستان له وقطع رؤوسهم وطاف رجاله بها في طشت من الفضة ثم أمر بدفنهم .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المستنصر إنما تخلص من عميه وأتباعهما حين وضعهم مع جماعة من الخوارج داخل قبة عمرها بدون أساس ثم أرسل عليها الماء فانهدمت عليهم[2]. المهم أنه بعد خلاصه منها، تفرغ لترتيب أحوال بلاده وجيشه ، وتمكن بشدته من التخلص من أية محاولة تمرد جديدة. ففي وقت السلم كان يجمع الأسلحة من الجند ويضعها في خزائنه ، فاذا وقع أمر أخرجها ووزعها عليهم . ونظرا لأن تونس في عهده قد شهدت المزيد من مظاهر الرخاء الاقتصادي ، فقد اعتمد المستنصر على ربع حصيلة موارد السكان القادرين في تصريف الكثير من شئون البلاد [3].

والمهم ما أن فرغ المستنصر من صراعه مع عميه حتى واجه عدوا أخطر يهدد سلامة وأمن البلاد ، وهم عربان أفريقيا الذين أظهروا عداءا سافرا له منذ توليه الحكم بقيادة قائدهم السبع بن يحيى . وقد أظهر المستنصر في عدائه معهم الدهاء والحيلة عند الضرورة فلم يثر في وجههم ، ولم يقم بأي خطوة عسكرية ضدهم بل عمل على مداهنتهم ، وأخذ في ارسال البعوث والسفارات المحملة بالهدايا إليهم حتى يستميلهم إليه وبالفعل أمن العربان له وحضر مقدمهم بنفسه ومعهم كبار الزعماء لكي يتشاوروا مع المستنصر في اقرار العلاقات السلمية بينه وبينهم إلا أنه غدر بهم وضرب أعناقهم جميعا[4]، فكتب أحد الشعراء ، بعض الأبيات الشعرية بشأن تلك الحادثة[5].

١- القيومي، نثر الجمان ج٢، ورقة ١٩١

٢- ابن المحاسن : المنهل الصافي ج٣ ، ورقة ٣١٢

٣- القيومي، نثر الجمان ج٢ ، ورقة ١٩٠ أ

٤- القيومي، المصدر السابق ، ورقة ١٩٢ أ

٥- ومن هذه الأبيات: فضحى سباع السباع وبعده ... يسطو به أسد من الآساد

وسطت بحداد وسائر قومه ... وهم أنت من مربط الصداد

أنظر القيومي: المصدر السابق ، نفس الصفحة .

وقد بلغ ذلك الخبر جماعة تدعى الخلوط [١]، الأمر الذي أثار ضغينتهم ضد المستنصر ، فتجمع هؤلاء يؤيدهم بعض الموحدين الذين توارثوا ثار الحقد ضد الحفصيين الذين سلبوهم السلطة والحكم رغم الصداقة الوطيدة التي كانت تجمع بينهما ، ولذا وجدوا فرصتهم فى الانتقام بانضمامهم مع الخلوط، وتشاوروا فى أفضل السبل التي يجب اتباعها للتخلص من المستنصر الذى اتهموه بأنه قد ضيق عليهم سبل العيش وسلبهم أمجاد آبائهم وقرر الجميع الخروج للقائه بحرا وبرا . أما خطة المستنصر لمجابهة ذلك الخطر المزعوج فكانت أيضا ملاطفتهم ومداهنتهم . فبدأ بأن منحهم ملكية خمس مدن صغيرة ، هذا فى الوقت الذى أخذ يعد العدة لمواجهتهم ، وأمر باستعمال السيوف والرماح التي أخرجها من خزائنه ، وأحضر الخياطين وحاك الدراريع الملونة والملابس الموشاة وحملها هدايا إلى عربان الخلوط ، وذلك بصحبة رجل يدعى يحيى بن صالح وكان صديقا للعربان ، وموضع ثقة المستنصر وثقتهم، وأقسم يحيى للمستنصر بأن تكليفه بهذه المهمة لن يخرجه عن طاعته ، وفعلا حمل رسالة منه إليهم، ولما رآه العربان فرحوا بلقائه وقدموا له هدايا قيمة للمستنصر ، وقد أقام يحيى لديهم ما يقرب من ثلاثة أشهر أحسنوا فيها ضيافته ، وفي تلك الأثناء تجلت من جديد مهارة وذكاء المستنصر فى احتواء أعدائه فكتب إلى أبي يحيى برغبته في أن يخطبوا إليه إحدى بنات العربان وفعلا زوجوه ثلاثة منهن. وكانت نية المستنصر في هذا هو بذل كل الجهد للتقرب منهم وأن يجعل من نفسه أحد أفراد عشيرتهم ، ولكن فى باطن الأمر كان يكن لهم كل الشر، وبالفعل أقيمت الأفراح وتناسى المستنصر والخلوط ما كان بينهم من عداء بعد أن أصبح المستنصر صهرهم، واستولى على عقولهم ، وأرسلوا إليه قائلين «احضر إلينا لنزف إليك البنات ونعاهدك بأنك إن قدمت إلينا ومت وتولى ابنك الحكم مكانك فسوف نبايعه ونكون له مؤيدين»[٢] ورد عليهم المستنصر بإرسال الهدايا والخيول والجوارى ، والأموال الكثيرة وتقدم الحراس رافعين أعلامهم البيضاء لأمير المؤمنين صاحب تونس . وفعلا لما رآه العربان فرحوا به وسكنوا إليه وأمن هو شرهم إلى حين. واستمر الوضع على هذا مدة طويلة إلى أن

١- الخلوط هم جماعة من العرب المتفرقين في أفريقيا وبلغ عددهم آنذاك ما يقرب من ٦٠ ألف نسمة .

أنظر الفيومى : نثر الجمان ، ج٢، ورقة ١٦٢

٢- الفيومى ، نثر الجمان ، ج٢، ورقة ١٩٢ .

انتهز فرصة استتباب الأمور داخل دولته ، وقرر التخلص من هذا العبء الثقيل الذي كلفه الكثير. فدعا إلى قصره بتونس سبعين رجلا من أكابر القوم لذي الطوط واستضافهم أربعين يوما هذا، في الوقت الذي أحضر فيه أحد البنائين وأمره بأن يبني له قبة عظيمة يكون أساسها من الملح لاستضافة المستنصر الرجال فيها وجعلهم يشربون حتى ثملوا تماما. ثم أمر باطلاق الماء على أساس القبة ، فذاب الملح وتهدمت على من فيها ومات زعماء العربان ثم سير إليهم جيوشه بعد أن استأصل شأفتهم وفرق كلمتهم وأخذ يسترد منهم كل ما أخذوه في شكل هدايا ومجاملات. فكانت تلك الخطوة الجريئة منه لطمة على وجوه كل خصومه ، الذين اتهموه بعدم الشرف في الخصومة والغدر بالأصدقاء[1] الذين أحسنوا إليه ووطدوا علاقتهم به وجددوا البيعة له ولوريثه من بعده [2] ولم يمض المستنصر عينيه عن أي عدو مستتر يتصدى له فقد تمكن في أعقاب هذا من استئصال شأفة أولاد عميه اللحياني والمجدور حين تجددت خطورتهم في محاولة يائسة للانتقام منه ونكل بهم جميعا [3]

ولعلنا نخلص مما تقدم أن تونس كانت تتمتع بصفة عامة بالاستقرار والرخاء في عهد المستنصر فيما عدا تلك الفتن والاضطرابات التي استهدفته والتي كانت تثور بين وقت وآخر ، والتي تمكن من القضاء عليها بالحيلة تارة وبالفتنة والحرب تارة أخرى . وعلى هذا فقد أصبحت تونس في عصره عاصمة متألقة للمغرب كله بلا منازع ، ونشطت بها حركة التجارة، وازدهرت الأسواق ، وكان التجار يتوافدون عليها من كل جهة ، وأبرم المستنصر العديد من المعاهدات التجارية مع بيزا وجنوه وغيرهما من دول الغرب. وعلى أي الأحوال ، فقد تأثرت الحضارة الحفصية – إن جاز هذا التعبير – بالحضارة الموحدية التي تركت بصماتها على شتى الميادين . فالحفصيون هم ورثة الموحدين ، ولذا فقد سعوا جاهدين للحفاظ على طابع مدينة تونس الذي كان للموحدين ضلع كبير في تشييده [4]

١– أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٣ ، ورقة ٢١٢

٢– الفيومي: المصدر السابق، ج٢ ، ورقة ١٩٥ .

٣– حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢ .

٤– محمد مزالي : تاريخ افريقيا الشمالية، ص١٩٦ .

هذا، وهناك اشارات صريحة عن العديد من الصداقات التي كان يعقدها المستنصر مع ملوك الفرنج ، ومنهم امبراطور ألمانيا. فيروى أنه بعد أن تخلص من عميه صعد على منبر من العاج مصفح بالذهب كان أحد هدايا الامبراطور الألماني إليه[١]، وقد شكك بعض المؤرخين العرب في نوايا المستنصر نتيجة هذه الصداقات لدرجة أن بعضهم وجه إليه عبارة بأنه «لايحق أن يلي أمور المسلمين نتيجة صداقاته الوطيدة مع لويس التاسع ملك فرنسا أيضاً ويتهمونه بأن هذه الصداقة كانت سببا في قدوم حملته على تونس. وفي حقيقة الأمر، فإن المستنصر إنما عقد هذه الصداقات دون تقديم أي تنازلات تضر بمصلحته في الامساك بزمام الموقف داخل تونس قبل أي شئ .

لقد ساعد المستنصر على نجاح سياسته هذه حاشيته المقربة منه، وعلى رأسها ابن عمه أبو يحيى زكريا بن أحمد وولده وولي عهده[٢] المؤيد بالله أبو زكريا يحيي بن المستنصر . فكان هذا الاستقرار الذي نعمت به تونس من أهم العوامل التي اطمعت فيها الفرنج في الوقت الذي كان فيه بقية المغرب الإسلامي مسرحا للفوضى والفتن والاضطرابات التي لا أول لها ولا آخر.

اما عن أحوال مصر قلب العروبة والإسلام آنذاك ففي الواقع أن تونس استمدت سطوتها من الاستقرار الذي تمتعت به مصر على عهد الظاهر بيبرس الذي أرهب غرب أوروبا بتلك الهزيمة التي أنزلها بالمغول في موقعة عين جالوت الشهيرة عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م فقد أزعج المغول العالم بشقيه المسيحي والإسلامي، وأعتبر بيبرس عداء معهم أمرا يجب أن يقدم فيه كل ما يستطيع ، فقد نالوا من الإسلام وحضارة المسلمين. ولذا قام بدوره في مجابهتهم والتصدي لهم وهيأ لمصر من جديد دور الزعامة الديني والسياسي في المشرق الإسلامي.[٣] هذا ، في الوقت الذي كان يوجه فيه أشد الضربات الى باقي المعاقل الصليبية في بلاد الشام. ولم يتورع بيبرس عن عقد صداقات عديدة جعلها جميعا لصالح الجبهة

١- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٢٧ .

٢- ابن رسول : نزهة العيون ، ج١ ، ورقة ٤٦٤

٣- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ورقة ١٢٥٢- ١٢٦ القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله) : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جـ القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠م، ج١٤ ، ص١٢٩

الإسلامية(١)، واستعرض من خلالها قوته السياسية والعسكرية على أصدقائه من الفرنج . فيذكر ابن الفرات أنه قدم إليه ذات مرة شارل(٢) أخو لويس التاسع يطلب منه الشفاعة في الفرنج عكا الساحلية . وكان بيبرس موجودا بجزيرة الروضة ، جالسا فوق الأخشاب . فذهل رسول شارل لما رأى من صناعة السفن والشواني وأدرك خطورة مصر العسكرية آنذاك . وكان شارل هذا قد راسل بيبرس من قبل يبشره بفرحته بالانتصار على مانفرد Manfred ابن الامبراطور الألماني فردريك الثاني صاحب صقلية وأنه تمكن فعلا من الاستيلاء على صقلية(٣). وترجع قصة الصراع بين مانفرد وشارل حين قام مانفرد الابن الغير شرعي للامبراطور فردريك بعزل الطفل كنرادين الملك الاسمي لصقلية وبيت المقدس من الحكم وحل هو مكانه . وقد حاز مانفرد آنذاك قدرا كبيرا بما اشتهر به أبوه من الفطرسة ، ولقي من البابوية كراهية كبيرة مثلما لقي أبوه . وأخذ البابوات يسعون للبحث عن أمير جديد لعرش صقلية التي خضعت عرفا وتقليدا لسيادتهم . وعثر البابوات على ضالتهم في شارل كونت انجو وقد اقتنع أخيه لويس التاسع ملك فرنسا بهذه الخطوة ، ورحب باستئصال شأفة آل الهوهنشتاوفن الألمان من صقلية كخطوة تمهيدية لضمان نجاح أي خطوة عسكرية يقوم بها مستقبلا . وفعلا في عام ١٢٦٥م / ٦٦٣هـ تقدم شارل بمساعدة لويس الى ايطاليا وأنزل الهزيمة بمانفرد وقتله، وأضحت صقلية وجنوب ايطاليا في حوزة شارل الذي سعد كثيرا بهذا الخطوة، فبادر بالاسراع لابلاغ بيبرس بها مما يدل على التقارب بينهما

وعلى أي الأحوال فقد تمكن بيبرس من جراء هذه الصداقات أن يكون على بينه دائما بأخبار أهل الغرب اللاتيني، مما هيأ له فرصة الاستعداد والتيقظ ، بالإضافة إلى أن هذه الصداقات كانت فرصة لاستعراض قوته العسكرية، الأمر الذي جعلهم يفكرون مرارا قبل أن يقصدوا مصر . ولم تمنعه هذه الصداقات أبدا من توجيه الضربات القاسية ضدهم في بلاد

١- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج١٧ ، ص٣٦ .

٢- كان يقال له ري حار وجارلا وأنجانا شارل والمقصود بذلك شارل صاحب انجو أنظر

Reinaud , M. , extraits des Historiens Arabes Relatifs aux Gueres des Croisades, Paris, 1829. p. 516 .

٣- Matthew of Westminster , the flowers of History, 2 vols , London , 1853, vol II, p. 445

الشام، وتمكن من استرجاع انطاكية وقيسارية ويافا وأرسوف (١). ولم يغفل في خضم هذه الأحداث دور الأرمن في مساندة الفرنج ، وموقفهم الخطير من المسلمين لصالح المغول فبدأ بإرسال سفارة إلى ملكهم هيثوم Hethoum يطلب منه دفع الجزية للمسلمين ، فلما رفض هيثوم ذلك دارت معركة ضارية بينهم وبين بيبرس ، تمكن فيها من الانتصار عليهم وأسر أماليو Amalco ابن هيثوم، وأعمل المسلمون في بلادهم الخراب والتدمير ما يقرب من عشرين يوما. وغدت مملكة أرمينيا نهبا مباحا أمام المسلمين الذين هاجموا المصيصة وأذنة وأياس وطرسوس كما أصاب مدينة سيس العاصمة الكثير من الهدم والتخريب كذلك هدمت بعض القلاع التابعة للداوية إلى أن اضطر هيثوم في النهاية بعد فشله في الحصول على حليف له، إلى طلب الصلح من بيبرس عن ولده أماليو مقابل الفدية، وتسليم عدد من المدن والقلاع إليه فرد عليه بيبرس قائلا: «إن نحن مالنا رغبة في الأموال والمدن وغيرها وإنما لنا شخص صديق أسير عند المغول يسمى سنقر الأشقر تخلصه وتسيره وتتخذ ولدك» وفعلا فعل هيثوم ذلك وتسلم ابنه عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م (٢). وبهذا تفرغ بيبرس للمسؤليات التي ألقيت على كاهل المسلمين بحملة لويس على تونس وحتى يكون قادرا على اظهار دور مصر ، باعتبارها قلب العروبة والإسلام، تجاه تونس فإنه لم يبخل بأي جهد أو مساعدات مادية أو عسكرية لتونس لما في ذلك من تقوية للجبهة الإسلامية كلها سواء في المشرق أو المغرب (٣).

ويجدر بنا بعد أن تعرضنا لأحوال العالم الإسلامي وبلاد المغرب بصفة عامة وتونس خاصة، أن نلقي الضوء على أحوال غرب أوروبا بعامة وفرنسا على وجه الخصوص لأهمية ذلك بالنسبة لموضوع البحث.

إن فكرة غزو اللاتين لتونس ليست في حقيقة الأمر بالفكرة الجديدة على أوروبا . فقد مرت هذه الفكرة بمراحل عديدة إلى أن تبلورت أهدافها وترجمت في شكل العديد من الحملات كان لفرنسا منها نصيب الأسد فقد كان الاعتقاد السائد لدى غرب أوروبا آنذاك أن امتلاك بيت المقدس من جديد لن يتأتى إلا بعد استئصال شأفة مصر رأس الأفعى ، تلك العبارة التي

١- ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص١١٢٣، المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٦٧٥.

٢- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص٤٩٨-٤٩٩ .

٣- سنتناول بالتفصيل موقف بيبرس من حملة لويس على تونس في الفصل الثالث.

قالها روبرت كونت ارتوا أثناء حملة لويس التاسع الصليبية في مصر ، ولكن المسيرة نحو مصر أصبحت أشبه بذكرى أليمة كان الغرب يتمنى أن ينساها

لذا كان لابد من البحث من طريق غير مباشر يؤدى إلى نفس النتيجة، فكانت تونس في الشمال الأفريقي ولم يكن ترعم فرنسا لفكرة الحملة الجديدة نحو تونس أمرا جديدا بالنسبة للأوروبيين ، بل كان عاديا أن تكون فرنسا هي أكثر الدول تحمسا لهذا الغرض، فمن فرنسا خرجت أول صرخة ضد المسلمين عام ١٠٩٥م من كليرمونت أيام البابا اربان الثاني ، وكليرمونت مدينة فرنسية والبابا فرنسي الأصل، وكان أول راهب انخرط في سلك الحملة الصليبية الأولى هو بطرس الناسك الفرنسي ، أضف إلى هذا دور جد لويس التاسع فيليب أغسطس أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة وإن نسينا فلا ينبغي أن ننسى حملات لويس التاسع الثلاث ضد العالم العربي الإسلامي، ومع ذلك يجب ألايغيب من البال أن الحركة الصليبية من صميمها عبارة عن حملات جامعة قام بها الغرب الأوروبي من أقصاه إلى أقصاه ضد العالم العربي الإسلامي بأجمعه ، وإن مساهمة أى دولة من دول الغرب في أى حملة من الحملات كان يتوقف على ظروفها من سياسية واقتصادية واجتماعية السائدة وقت قيام حملة ما ولما كانت فرنسا تتمتع بظروف أكثر استقرارا، وبخاصة اعتبارا من القرن الثالث عشر الميلادي/ القرن السابع الهجري ، ولذا كان اسهامها في الحركة الصليبية واضحا ومميزا ، بل أن بعض الحملات مثل حملة لويس التاسع كانت فرنسية الصبغة والطابع . لقد أعطى هذا لفرنسا دور الزعامة على ما عداها من دول الغرب لتبني الفكرة الصليبية، واستمر هذا الوضع قائما حتى نهاية الحروب الصليبية المتأخرة في أخريات القرن الرابع عشر الميلادي (أواخر القرن الثامن الهجري) .

ويروى ابن خلدون حقائق هامة عن فرنسا تؤكد زعامتها في الحركة الصليبية ، منها «أن الفرنسة أمة عظيمة من أعظم دولهم يعني دول الغرب وقد استفحل أمرهم بعد الروم وصدرا من دولة الإسلام العربية فسموا إلى ملك بلاد الشرق من ناحيتها وتغلبوا على جزر البحر الرومي، ، ثم سموا إلى ملك ما وراء البحر من أفريقيا وبلاد الشام والاستيلاء على بيت

١- جوزيف نسيم يوسف. العدوان الصليبي على بلاد الشام الاسكندرية، ١٩٨٤، ص٤، ٣٦٣

المقدس، وطال ترددهم في ذلك ... وكان ملكها يقصد لويس التاسع من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه ري الافرنسي[١] ومعنى ري في لغتهم ملك افرنس[٢].

أما ابن واصل فيتعرض للويس قائلا «وكان هذا ريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأسا، وافرنس هي أمة من الفرنج»[٣]. وجاء في أبي المحاسن «أن لويس كان من أجل ملوك الفرنج وأعظمهم قدرا وأكثرهم عساكرا، وأوسعهم بلادا وأكثرهم أموالا»[٤] وكتب العمري يقول «إنه من أجل ملوك الفرنج قدرا .. وهو عريق النسب في الملك القديم والمملكة المعهودة عن السلف .. وله مدن كثيرة عامرة وعساكر كثيرة وافرة » كما جاء في موضع آخر من كتابه أن لويس «ملك جليل، ليس في ملوك الفرنجة أعرق منه نسبا ولا أرسخ في العليا أصلا»[٥].

ورغم كل هذه الأدلة القوية التي تظهر أهمية فرنسا السياسية والعسكرية بين بقية بلدان الغرب، وزعامتها للحركة الصليبية على ما عداها من الدول، وسعيها الدائب لانجاح أي دعوة صليبية ضد الإسلام، إلا أن هذا لايمنع أن لكل جواد كبوة ، والكبوة التي مرت بها فرنسا ابان الحملة كانت ممثلة في العديد من المشاكل السياسية والاقتصادية والمذهبية داخل فرنسا نفسها. ففي أثناء غياب لويس التاسع عن بلاده في حملته ضد مصر كانت القائمة بشئون الحكم هي أمه الملكة بلانش القشتالية [٦]. وقد وصلت الأنباء إلى لويس بعد فك أسره من مصر ورحيله إلى بلاد الشام بوفاة والدته وكان ذلك في أوائل عام ١٢٥٤م / ٦٥٢هـ. ويقول

١- ري الافرنس هي إحدى التسميات التي أطلقت على لويس، ومنها أيضا بواش ، وريد افرنس ، وللمزيد من هذه التسميات أنظر جوزيف نسيم العدوان الصليبي على مصر، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص٧٧ ، ٢٠٠

٢- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥ ، ص١٨٣ ، ٣٥٩

٣- ابن واصل (جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم) : مفرج الكروب في بني أيوب، ج٢ ، تصوير شمسي (مخطوط)، لوحة ٣٥٠ (ب)

٤- أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج١ ، ورقة ٣٥٨ أ.

٥- العمري (شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل) ، مشاهير ممالك الفرنج، ص٣٠٢

٦- Joinville, Jean de , Histoire de Saint lois , texte original du XI ve Siécle accompgné d'une traduction en Francais moderne par M. Natalis de Wailly , Paris , 1874 , p. 331 .

جوانفيل أن لويس قد تأثر كثيرا بهذا الخبر، وأن ذلك أثر على معنوياته وعلى جميع خططه بالأراضي المقدسة [١]. فقد كان أمن فرنسا وسلامتها أمام جميع المخاطر لايعني شيئا بالنسبة للويس ، طالما زمام الموقف بيد أمه . ولكن بعد وفاتها شعر بالأخطار التي أصبحت تهدد البلاد، وخاصة من قبل جارته انجلترا والنبلاء الاقطاعيين. وأدرك أن بقاءه بعيدا عن بلاده سيكون له أسوأ العواقب على سلامة فرنسا وأمنها. فقد وصلته الأنباء بتفجر الحروب الأهلية داخل البلاد، وازدياد مطامع الشخصيات الكبرى في الحكم ، وأضحت فرنسا نهبا للصراع والتنافس بين شقيقي لويس شارل كونت انجو والفونس كونت بواتييه. هذا، بالإضافة إلى تفجر الأزمات السياسية الخارجية القديمة بين انجلترا وفرنسا. فقد انتهز ملك انجلترا هنري الثالث هذه الفرصة ، وقدم إلى فرنسا محاولا اثارة المؤامرات و الدسائس ضد ملكها الغائب عنها، وذلك بتفجير الصراع من جديد داخل مقاطعات نورمانديا وجاسكونيا وبواتييه ، مستغلا في ذلك المرض الشديد الذي ألم بالفونس كونت بواتييه وفشل سيمون دي مونتفرات حاكم جسكونيا في قمع الاضطرابات داخل بلاده.. ولم تكن نوايا هنري خافية على كبار القادة الفرنسيين آنذاك. فالكل يعلم أن اتفاقية السلم المعقودة بين البلدين قد أوشكت على الانتهاء ، مما زعزع من ثقة فرنسا بنفسها في كبح جماح انجلترا والتصدي لنزعتها العدائية المتأصلة ضد فرنسا منذ أيام أجداد لويس التاسع[٢]. أضف إلى ذلك السياسة العدائية المتأصلة بين كل من البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤١م- ١٢٥٢م) والامبراطورية البيزنطية ، والتي أثرت بصورة أو بأخرى على ازدياد الأحوال سوءا داخل فرنسا [٣]. وإذا لم يكن أمام لويس خيار في أمر البقاء ببلاد الشام أو الرحيل. فقد رجحت كفة رحيله عنها ومثلت أمام عينيه الذكريات الأليمة التي مر بها في مصر[٤]، والآمال العريضة التي ذهبت هباء دون

١- جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص٣٤٦ .

٢- Nangis , Guillaume de, Vita Sancti Ludovicae regis Franciae , Ed. R. H. G.F., t. xx, p. 389 , cf also : kitchen, A History of France , vol , I, oxford, 1968 , p. 347

٣- Bray A. The Good St. Louis and his times, London , 1870, p. 292

٤- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٨٧، أبو المحاسن، المنهل الصافي ، ج٢ ، ص٣٥٩ ، ابن رسول: نزهة العيون ، ج٢ ، ص١٩٨-١٩٩ .

أن يتمكن من تحقيق أي منها[1] لا في مصر ولا في بلاد الشام، خاصة بعد أن أصبحت بلاد الشام هي الأخرى مرتعا خصبا للمشاحنات والفتن بين الصليبيين وبعضهم البعض. وضاعت الكلمة الموحدة وضاع الأمل في جمع الشمل من جديد، وتكوين جبهة قوية بين افرنج الشرق، هذا، في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تنصرف تدريجيا عن مساعدة الكيان اللاتيني المتداعي في الشرق بسبب انغماسها في مشاغلها الخاصة، يضاف إلي ما تقدم أن من بين الأسباب التي عجلت برحيل لويس إلي فرنسا ذلك الخطر الجاثم أمامه والمقصود به التتار، خاصة بعد أن فشلت كل محاولاته السلمية لعمل على استمالتهم للمسيحية على المذهب الكاثوليكي الروماني، والقيام بعمل مشترك ضد المسلمين وكانت تلك هي سياسة البابوية بصفة عامة منذ أيام البابا انوسنت الرابع اعتبارا من أواسط القرن الثالث عشر الميلادي (أواسط القرن السابع الهجري) ، لقد أضحى التتار شبحا يهدد العالم بشقيه المسيحي والإسلامي ، وتعامل خان التتار مع لويس والبابوية بمنتهى الحكمة والذكاء، وترك لهم العنان في مصر، حتى تنشغل مصر عن الخلافة العباسية في بغداد التي كانت في طور الانهيار إلى أن أتى عليها التتار وقد ظل التتار مصدر رعب بالنسبة للويس التاسع فترة من الزمن . وعلى الرغم من الضربة القاصمة التي وجهها بيبرس إليهم في عين جالوت، إلا أن النتائج التي ترتبت على ذلك تركت آثارها على أوروبا بصفة عامة وفرنسا بوجه خاص. فيذكر المؤرخ رينو «أنه على الرغم من زعزعة وانهيار قوة التتار على يدي بيبرس ، إلا أنه قامت صداقة بينهما بعد ذلك، وقام بيبرس بالاشتراك مع بوركيه خان كابتشاك ، بعمل موحد ضد مغول بلاد فارس، وأرسل لهم فعلا أسطولا ضخما وشاركهم في هذه المهمة العديد من أمراء أوروبا إما طوعا أو كرها. وقد واجهت هذا الأسطول عاصفة قوية أتت على معظم سفنه ، ولم تبق منه رسا في ميناء عكا[4].

١- Archer , T A. & Kingsford, the Crusades, London , 1919, p. 401

٢- كابتشاك مدينة تقع على البحر الأسود أنظر Reinaud , p. 516

٣- لم يتسن لنا معرفة تاريخ هذا التحالف الذي تم بين بيبرس ومغول كابتشاك ضد مغول فارس.

٤- كانت امبراطورية التتار مفككة ومقسمة وظلت هكذا حتى عام ١٢٧٠م/ ٦٦٨هـ فكان حكام التتار في كابتشاك يدينون بالولاء لسيد آخر غير ذلك الفارسي في آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين ، وكان البعض الآخر من التتار لاتربطهم علاقات حسنة مع حاكم آسيا الصغرى الفارسي خاصة بعد موقعة عين جالوت الشهيرة انظر عن ذلك ، وللمزيد من التفاصيل عن التتار في هذه الفترة

وعلى الرغم مما في هذه الرواية من مبالغة ، إلا أننا لانستبعد أي محاولة يقوم بها التتار التقرب من بيبرس بعد تلك الضربة القاصمة التي وجهها إليهم في وقت كانت مصر في أوج قوتها ومركز الثقل في الصراعات القائمة يميل موضوع إلي جانبها . وليس من الغريب أن يلبي بيبرس نداء التتار. فكما سبق القول لم يكن بيبرس ممتنا من عقد صداقات مع أعدائه طالما أن ذلك لن يكون على حساب الجبهة الإسلامية بل لمصلحتها وقد ضربنا أمثلة على ذلك . ولذا فربما لجأ إلى نفس الأسلوب مع خان التتار حتى يقربه من الاسلام ويحببه فيه ، خاصة وأن المناظرات كانت قائمة على قدم وساق في بلاط خان التتار بين المسلمين والساطرة ، والكاثوليك واليهود وقد أتت جهود بيبرس ثمارها واعتنق التتار الإسلام في نهاية الأمر[1]. وبذلك أمن شرهم وركز اهتمامه على استئصال شأفة الفرنج من بلاد الشام أما سعى العديد من أمراء وحكام أوروبا مع بوركيه خان كابتشاك فهذا مرجعه إلي حالة الرعب التي عاشوا في ظلها فترة غير قصيرة من الزمن عندما كان التتار يهددون دول الغرب ، والذكريا الاليمة التي تركها التتار في نفوس الجميع فلم يمتنع أحد عن تلبية نداءهم.

أما العلاقات بين روما والقسطنطينية ، وبكلمة أدق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فقد كانت خلال الفترة التي وجهت فيها الحملة إلي تونس سيئة للغاية إذ ازداد العداء بين اللاتين الكاثوليك والاغريق الأرثوذكس ، واتخذ مظاهر عديدة من العنف ما جعله وصمة عار لكلا الكنيستين ، وقصة غير مشرفة للعالم المسيحي أجمع[2]. وكما أكد أحد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو ستيفن رانسيمان في مؤلفه عن «الحضارة البيزنطية»[3]، أن هذه العلاقات المذهبية المتفاقمة بين شقي العالم المسيحي قد حالت بين كل من روما والقسطنطينية وبين

Reinaud , p. 516 , Deguignes, Histoire generale des Huns, des Turcs , des Mongols et = des autres tartares Paris, 1756-8 , vol III, pp. 527; Howorth, H., History of Mongols, London, 1876-1927 , vol . IV., pp. 93-4 .

١- Atiya, A.S, Crusade in the Later Middel Ages, London 1934, p. 256 , Arnold, T.W., Preaching of Islam. London, 1935, p. 219 , Conder , C.R, Latin kingdom of Jerusalem , London, 1897 , p. 366 .

٢- جوزيف نسيم يوسف العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص ٢٠

٣ Runciman, S., Byzantine Civilization , London 1948, pp. 124-8

تقديم أي عون إيجابي الملك لويس التاسع حين كان يستعد القيام بحملة ضد تونس. فلم تكن بيزنطة إذن مستعدة للمساهمة في حملة صليبية جديدة لأن العلاقات بينها وبين مسيحيي غرب أوروبا كان يسودها الفتور والكراهية بوجه عام. ولم ينس البيزنطيون ما فعله الصليبيون بهم فى الحملة الصليبية الرابعة عام (١٢٠٤م / ٦٠١هـ) تلك الحملة التى فشلت فى تحقيق أهدافها سوى سلب القسطنطينية ونهبها بعد أن تأسست امبراطورية لاتينية بها. وقد أدى ذلك إلى اتساع شقة الصراع والبغضاء بين شقى العالم المسيحى. وعانى اللاتين فى القسطنطينية الأمرين، خاصة بعد أن قامت حكومات بيزنطيه فى المنفى سواء فى نيقية فى آسيا الصغرى أو فى طرابيزون على البحر الأسود أو فى شبه جزيرة البليبونيز فى ظل هذه الظروف التى كان يمر بها العالم الأوروبى لم يكن من السهل على لويس التاسع توجيه الاهتمام إلى مملكة اللاتين فى القسطنطينية قبل استرداد البيزنطيين ملكهم الضائع ولكنه اعتبرها جزءا لايتجزأ من كيانهم في بلاد الشام. وقد واتته الفرصة حين اشتدت الخلافات بين حاكمي طرابيزون ونيقيه المتنافسين إلى مناصرة كومنين العظيم Comnene على يوحنا فاتاس John Fatas الذى كثيرا ما أزعج اللاتين بالقسطنطينية، وعلى الرغم من أن تلك الخطوة قد شدت أزر طرابيزون ضد نيقيه ، إلا أن الصراع استمر طويلا بينهما إلى أن تمكن الامبراطور ميخائيل بليولوجس Michael Paleologos من وضع حد نهاية لهذا الصراع فى عام ١٢٦١م / ٦٥٩هـ[١]. وهكذا فقد لويس الأمل نهائيا فى مساعدة بيزنطة له وهو يستعد لتوجيه حملته ضد تونس.

أما أحوال الكيان الصليبي المتداعي ببلاد الشام أثناء اقامة لويس فى الشرق فلم تكن أحسن مما كانت عليه في غرب أوروبا. فقد استشرى الفساد والشرور والتمزق بين كافة طوائف المسيحية هناك لدرجة أنه فقد حماسه في البقاء في الأرض المقدسة وفكر في العودة إلى بلاده وقد شجعه على ذلك وفاة أمه بلانش حسبما أسلفنا [٢] فاجتمع بمجلسه

١- Joinville, pp. 272-274 , Cf. also Guizot, M. , St. Louis, London 1809, p. 135

وأيضا جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية، ١٩٨٢، ص١١١-٢٥٨ ، عمران، الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤٥

٢- Nangis, Vie de Saint Louis, p. 839 , Cf. also , Archer and Kingsford, p. 410

الاستشاري وعرض عليه الأمر، وبكر أن الواجب يحتم عليه العودة إلى بلاده بعد أن قدم للقضية الصليبية كل ما أملاه عليه ضميره وإخلاصه لها. ومن الغريب أنه وسط هذا الضياع والتمزق ، وفي محمة هذه الحالة المتردية التي وصلت إليها الفكرة الصليبية ، يذكر رينو «أنه أثناء اجتماع لويس بمستشاريه في ميناء عكا قبل الرحيل أعلن عن نيته في القيام بحملة صليبية جديدة ضد تيار الإسلام، وأنه أبلغ فعلا مندوب البابا بمدينة يافا عن رغبته تلك، وطلب منه أن يبلغ كل امراء الغرب بانتظار صدور اعلان رسمي لاخراج هذه الفكرة إلى حيز الواقع، وأن تبلغ كل الكنائس بذلك»[١].

وهنا لابد لنا من توخي الحذر في قبول هذه الرواية فالواقع أن حالة أوروبا بشقيها وافرنج الشرق كانت تدعو إلى اليأس والقنوط. وأصبحت الفكرة الصليبية أشبه بمغامرة فاشلة وقضية خاسرة بالنسبة لهم وكان صوت العقل أنذاك لايمكن أن يملي عليهم بفكرة أفضل من محاولة رأب الصدع أولا لا الدعوى لحرب جديدة [٢] فقد شاب الفتور التام الفكرة الصليبية آنذاك إلى أن تقلصت وانكمشت ، وبدأ الناس في الغرب يتهامسون من حولها ويتشككون في جدواها وفائدتها بعد أن فقدت أوروبا زهرة شبابها فوق أرض المعركة بين قتيل وأسير وجريح و زداد الشعور بالمرارة والحقد ضد المنادين باحياء الفكرة الصليبية في الغرب، وأصبح الرأى العام المعاد للحرب ضد العرب أشبه بسريان تيار قوى بين الغرب، فكان هذا سندا قويا لموقف العرب في الدفاع عن قضيتهم[٣]. ومما يؤيد ذلك أن فكرة الاعداد للحملة التاسعة والأخيرة ظهرت بعد الاجتماع الذى عقده لويس بحوالي اثنين وعشرين عاما، أى بعد أن رأب لويس الصدع الذى أحاط ببلاده ، وبعد أن استردت أوروبا أنفاسها اللاهثة بعض الشئ والحقيقة التى لايمكن أن نغفلها أن رينو ربما قصد من روايته هذه أن لويس كانت تحدوه فقط الآمال العراض بحملة جديدة ضد المسلمين لمحو عار الهزيمة التى منى بها في الشرق الأدنى الإسلامى، ولكن رينو بالغ في التوقيت الدعوة لهذه الحملة. ومما يؤكد هذا الرأى أن لويس كما

١- Reinaud, p. 517 .

٢- موبروند ، الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤٩

٣- العدوان الصليبي والرأي العام الغربي، مقال الدكتور جوزيف نسيم من سلسلة المحاضرات العامة، الاسكندرية ١٩٦٨، ص٥٢

يقول موبروند لم تزده المحن إلا كراهية ورغبة في الانتقام من المسلمين ولم تقض أبدا على روح الجهاد ضدهم، فقد كان لويس أشبه في عدائه لهم بقطعة الذهب التي مهما مرت عليها الأيام فلن تتغير ولن تضعف »[١]. ولعل ذلك يرجع إلى تلك التنشئة الدينية المتعصبة التي اشتملت عليها أمه بلانش منذ نعومة أظافره ، حينما كانت تقول له أنه أهون عليها أن يموت من أن يقترف اثما يغضب الله[٢] ولقد انعكست عليه هذه التربية وسيطرت على حواسه ومشاعره، وتركت آثارها بشكل أو بآخر على مشاريعه وتصرفاته وما يهمنا في هذا الأمر أنه بعودة لويس إلى فرنسا في أوائل عام ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ تمكن من فرض سيطرته على البلاد ورفع الآلام عن شعبه ، وأزال المحن وقضى على الاضطرابات والصراعات المذهبية التي تفاقم خطرها عن فترة غيابه يقول جوانفيل «لقد عاد لويس إلى بلاده ، وحفظ العدل لشعبه، وكنت أشاهده مرات عديدة في فصل الصيف حين كان يسمع القداس وحين كان يتجول ليروح عن نفسه لم يمنع أحدا من شعبه مطلقا من أن يأتي إليه، ويلبي حاجته التي يعرضها عليه ، سواء كانت مساعدة أو حلا لمشكلة فكان يستمع لكل الشاكين ، وكان ينفق بسخاء على شعبه من المحتاجين ، سواء كانوا أرامل أو يتامى أو ممن تحتاج لنقود لزواجها »[٣]. ولم يفعل لويس ذلك إلا من نقاوة نفسه ورغبته الصادقة في أن يمحو عن فرنسا كل ما ألم بها من مرارة أثناء غيابه عنها وهكذا بفضل حكمته وقدرته استقرت الأوضاع سريعا داخل بلاده[٤]. ولكن لم يغب عن ذهنه ولا عن ملوك وأمراء أوروبا تلك القوة الإسلامية الآخذة في النمو والتي باتت تهدد بقايا الوجود الصليبي المتداعي في بلاد الشام ، خاصة ما فعله الظاهر بيبرس في يافا وقيسارية وانطاكية وأرسوف وغيرها من المدن التي سقطت تباعا وبسرعة في قبضته .

١- موبروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤١

٢- Joinville, pp.10-38, 49 ; Geoffroy de Beaulieu , Vita et Sancta conversatio Piae memoriae Ludovici noni regis Francorum, Cf. Michaud, Crois, VI , paris, 1822, p. 202; Guill. de Saint Pathus les Miracles de S. Louis , pp. 195-197 .

٣- Chronique Anonyme des rois de France, R.H.G.F., t.xxi, p. 83

وأيضا موبروند : الحروب المقدسة ، ج٢، ص٣٤٢ .

٤- أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٢ ، ورقة ٣٥٩ (أ)

وأصبحت أحلام لويس وأوروبا ألعوبة سهلة في أيدي بيبرس والمسلمين، لدرجة أن بيبرس أرسل إلى لويس رسالة بالغة الاستفزاز قال له فيها «أننا ملكنا انطاكية بالسيوف والجنود التي تركت قبل رحيلك . ولو حضرت وشاهدت قبور موتاك قد بقرت وقصورك وحصونك قد حرقت وحولت إلى دمار ، لصدمت من هول ما رأيته [١]. كان هذا الوصف لحال الصليبيين ببلاد الشام من العوامل الرئيسية التي جعلت من فرنسا المستقرة وقتها شيئاً أشبه بفوهة البركان التي تفجرت من أجل النداء لحملة جديدة ضد ديار الإسلام ، وكانت وجهتها تونس هذه المرة وقبل الاستطراد في موضوع الحملة والدعاية والتبشير بها في أوروبا لابد من استخلاص الأسباب التي أدت إليها، وهي أسباب عديدة متشابكة متداخلة في بعضها متفاوتة التأثير ما بين رئيسية وثانوية مباشرة وغير مباشرة.

لم تكن حملة لويس على تونس ولادة قيصرية لمغامرة جديدة، بل هي فكرة قديمة نضجت ونمت على مر قرنين من الزمان ، وجسدت أهدافها في العديد من الحملات كانت آخرها تلك الحملة ضد تونس، ولم تكن تونس هي بيت القصيد، بل كانت مصر هي مكمن الخطر والقوة الإسلامية التي أصبح الغرب يعمل لها ألف حساب، ولقد أدرك لويس وكبار ساسة أوروبا أن قصد مصر مرة أخرى وبصورة مباشرة مثلما حدث في حملته الأولى عليها، من المؤكد أن نتائجها لن تكون أفضل من تجربته الأولى عام ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ . فقد تمكن المصريون وقتها من انزال هزيمة فادحة به وبرجاله على ضفاف النيل [٢]، حين تم القبض عليه وأسر بدار ابن لقمان في المنصورة ومعه جمع كبير من كبار قادته وشقيقاه شارل كونت انجو و لفونس كونت بواتييه إلى أن تمكن من افتداء نفسه بأموال كثيرة ورحل عن مصر بعد أن سلم المصريين مدينة دمياط وقد أهدرت بالفعل كرامة لويس، وتحطم كبرياؤه فسعى جاهدا للرحيل إلى بلاد الشام أملا في جمع الشمل من جديد فكان ذهابه إليها حملة متكاملة رغم عدم اتسامها بالطابع العسكري، إلا أنها أخذت طابعا سياسيا اصلاحيا بعد أن فشلت جهوده في قيام

١- مورويند : المرجع السابق ، ص٢٤

٢- أشار ابن القنفد إلى أن سلطان تونس آنذاك الأمير أبو زكريا الحفصي ، كان قد أرسل إلى صديقه صاحب مصر ، الصالح نجم الدين أيوب يعلمه بقدوم هذه الحملة ويعلن له عن أسفه في تقديم المعونة العسكرية ولكنه لم يتمكن من ذلك خوفا من عدوه صاحب صقلية المجاورة له وخوفا من أعراب أفريقيا والمزيد أنظر ابن القنفد ، الفارسية في تاريخ الدولة الحفصية، ص١١٢

حملة عسكرية جديدة. ولولا موت والدته فجأة لربما أطال اقامته في بلاد الشام، محاولا اصلاح الفساد الذي استشرى بين الصليبيين هناك. ولكنه عاد مسرعا إلى فرنسا خاسرا كل شيء[1] نادما على ما فعل ، حزينا لما حل به وبكرامته ، وذلك وفقا لرواية مؤرخ سيرته جان دي جوانفيل[2]. وهذا الفشل يعد من الأسباب النفسية التي هيأت الجو لقيامه بحملته الثالثة والأخيرة التي اختتمت بها الحروب الصليبية المبكرة. أضف إلى ذلك العامل عوامل سياسية أخرى من أهمها ما أشار إليه المؤرخ رينو من «أن لويس جمع بالفعل مجلسه الاستشاري وعرض عليه ضرورة قمع مصر كقوة سياسية خطيرة أصبحت تهدد أمن وسلامة الصليبيين في بلاد الشام. وذكر أنه من المستحيل التوجه إليها مباشرة بعد تلك الضربة التي تلقاها على ضفاف النيل، واقترح ضرورة التوجه إلى تونس في الشمال الأفريقي حتى يمكنه تطويق مصر برا وبحرا[3]، حيث أن تونس له بها صديق حميم وهو المستنصر الحفصي الذي يبدي استعدادا دائما لصداقة قوية مع لويس. بل أنه وعد في مرات عديدة بتحول المسيحية ، ورغم أن هذا السبب يعد من جملة الأسباب الدينية للحملة ويعتبر في نفس الوقت أحد أهداف الحركة الصليبية وهو نشر المسيحية الغربية في العالم العربي الإسلامي، إلا أننا نعتبره من أكبر الدوافع السياسية التي شجعت لويس على المضي قدما نحو تونس ، وقد أكد المقريزي ذلك، بل اتهم المستنصر بممالأة الفرنج قائلا «أنه لايحق لأن يلي أمور المسلمين»[4]. يضاف

١- Rothelin . t. II, p. 609 . Joinville . pp. 150-160; Reinaud, p. 517 . Cf also Guizot, St Louis , pp. 135-136 .

انظر أيضا أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٤ ، أبو المحاسن المنهل الصافي ، ج٢ ، ورقة ٥٢، ابن الفرات تاريخ الدول والملوك ج١١ ، لوحة ٢٧، ابن أبي دينار المؤنس في أخبار أفريقيا، ص١٢٨، الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٨٥ ، والملوك ج١١ ، لوحة ٢٧ ، الكتبي فوات الوفيات، ج١، ص١١٠

٢- لقد أفرد استاذي أ.د. جوزيف نسيم يوسف كاملا عن حملتي لويس التاسع على مصر وبلاد الشام، انظر حملته على بلاد الشام، ص٥٥-٥٨ ، موروند الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤٤

٣- Nangis, p. 447 . Reinaud. 517 .

وأيضا أبو المحاسن المنهل الصافي، ج٢ ، ورقة ٢٠٥ أ، الكتبي فوات الوفيات ج١ ، ص٨٤-٨٥، المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٢ ، ابن الفرات تاريخ الدول ج١ ، لوحة ٢٧

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور تاريخ الحركة الصليبية ، جزءان القاهرة، ١٩٦٣، ج٢ ، ص١٢٢٨

إلى هذا سبب سياسي آخر لايمكن تجاهله ألا وهو الدور الذى لعبه شارل كومت انجو أخو لويس التاسع فى اقناعه بالتوجه إلى تونس . فقد أصبح شارل بعد أن ألحق الهزيمة بمانفرد ابن الامبراطور الألماني فردريك الثاني[١]، ملكا على جنوب ايطاليا وصقلية ، وكان بنو حفص يدفعون جزية سنوية لمانفرد مقابل حماية تجارتهم بالجزيرة من قرصنة الصقليين. فلما اعتلى شارل عرش صقلية رفض المستنصر الاعتراف بحقوق شارل السياسيين وأعلنوا جميعا تمردهم على شارل[٢]، فكان ذلك سببا سياسيا حاسما فى قيام الحملة وتوجهها ضد تونس ، يضاف إلى ما تقدم أن شارل نجح فى اقناع أخيه بالتوجه إلى تونس تحقيقا لآماله العريضة بتوسيع أملاكه على حساب شمال أفريقيا ، وتوسيع مجال تجارته فى حوض غربي البحر المتوسط. وفوق هذا وذاك ، فإن لويس بعد أن استشار مجلسه عن أفضل الاتجاهات التى تفتح الطريق إلى مصر، ذكروا أن تونس أفضلها ، لأن الطريق من سردينيا إلى تونس يستغرق ثلاثة أيام فقط، في حين أن الطريق من سردينيا إلى مصر يستغرق ثلاثين يوما . ولذا رحب الملك الفرنسي لقرب بالمسافة بينها وبين مصر سواء بالبر أو بالبحر. وكان اختيار الفرنج لسردينيا بالذات لأنها تقع ضمن أملاك أخيه شارل وكان لويس قد عقد آمالا كبيرة عليه فى ترطيد دعائم هذه الحملة.

وبناء على هذا، فإن فكرة اختيار تونس قد صاحبها العديد من المناقشات إلى أن استقر الأمر أخيرا عليها لموقعها الاستراتيجي الممتاز الذي يعد من أهم الأسباب ،الاقتصادية لهذه الحملة. فحينما بذل شارل كومت أنجو جهوده لاقناع أخيه بالتوجه إلى تونس، كان هذا نابعا من مصالحه الخاصة وأطماعه التجارية على ساحل شمال أفريقيا حسبما أسلفنا ، ورغبته في توجيه الضربات ضد المغاربة الذين برعوا فى التجارة، وركوب البحر لدرجة أنهم نافسوا وبشدة التجار الفرنج في صقلية، واستفحل خطرهم على أملاك الصليبين في ايطاليا ، منذ أن استقلوا عن جسد الدولة الأموية ببلاد الشام، وسعوا جاهدين لتكوين أسطول بحرى عظيم بلغ ذروته في القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر الميلاديين) [٣]. ويضيف نانجى قائلا

١- Nangis, p. 439 . Cf. also Guizot, St. Louis, p. 135

وأيضا حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢

٢- مونتروند: المرجع السابق، ج٢، ص٢٤٩

٣- السيد عبد العزيز سالم وآخرون : البحرية المصرية، ص٤٦٦؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٢٨ وأيضا Segor , Saint, Louis, pp. 155-157

«أن تجارة تونس أصبح باستطاعتها الوقوف على قدم المساواة مع تجارة الصليبيين عامة[١]. ولذا وجدنا شارل طامعًا باللهفة نحو توسيع سلطته بإخضاع سواحلهم وقمع تجارتهم[٢] وقد شجع العديد من القادة المسيحيين المنخرطين في سلك الحملة الملك لويس قائلين له «أن أخذ تونس سيعم الخير علينا جميعا، فهي مليئة بالذهب والفضة والثروات الكثيرة»[٣] وهذه اشارة واضحة تدل على الاستقرار الاقتصادي الذي كانت تتمتع به تونس آنذاك، حتى أن أحد المؤرخين ذكر «أن تلك الحملة إنما جاءت لتكون سببا في اتلاف الأموال الكثيرة التي تركها أبو زكريا لابنه المستنصر الذي اضطر أمام هذه الضغوط الصليبية إلى اخراج الأموال وإنفاقها على الأجناد والحصون والأعراب استعدادا للقاء العدو»[٤]، مما كان له أسوأ الأثر على ظروف تونس الاقتصادية فيما بعد. وفيما يتعلق بالأسباب الاقتصادية لهذه الحملة، تلك الدوافع التي لايمكن تجاهلها ونحن في صدد تحليل عوامل قيامها. يقول ابن خلدون «إن لويس لم يلتزم بالمعاهدة التي عقدها مع المصريين بعد فك أسره في المنصورة[٥]، فعزم على التوجه إلى تونس متجنيا عليها، وتعلل بأن بعض تجار الفرنج اشتكوا إليه بأنهم ذهبوا إلى المستنصر يشكون له أحد رجاله ويسمى «اللياني» وكان المستنصر قد قتل هذا الرجل[٦]، شكوا إليه بأن لهم لديه مبلغ ثلاثمائة دينار. ولم يكن معهم ما يستندون إليه، وطلبوا من المستنصر بأن يدفع لهم هذا المبلغ فرفض، فشكوه إلى ملكهم الذي امتعض من المستنصر وعزم على غزو بلاده»[٧].

١- لقد نشطت تونس في تصدير الحبوب والبصور وزيت الزيتون والشمع والحوت والملح والأقمشة والمرجان وبعض الأسلحة والجلود والصوف، وكانت تستورد بعض أنواع الطيور والبلور والخشب المصنوع والأسلحة والتوابل والعطور والكتان وغيرها. أنظر محمد مزالي تاريخ افريقيا الشمالية، ص٩٩٦

٢- مونتروند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٤٩

٣- Nangis, pp. 478–479 .

٤- ابن أبي دينار، المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس، ص١٢٨ .

٥- حول التزام لويس بالمعاهدة من عدمه انظر جوزيف نسيم العدوان الصليبي على مصر، ص٢١٥-٢١٨ ، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص٩٢

٦- ذكر أن هذا الرجل كان يعمل في رتبة وزير زمن المستنصر الحفصي وقد أصدر حكما بإعدامه ولم يتسن لنا معرفة سبب هذا، أنظر محمد مزالي والبشير بن سلامة تاريخ افريقيا الشمالية، ص١٨٠

٧- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص٢٩٠-٢٩١

وعلى الرغم من سطحية هذا الدافع وعدم امكان التسليم به ، لأنه من غير المعقول أن حادثا فرديا مثل هذا تعد له حملة كبيرة تشمل غرب أوروبا من أقصاه إلى أقصاه ، إلا أنه يلقي الضوء على طبيعة العلاقات الاقتصادية بين تونس والغرب، والتي اتسمت بالطابع العدائي وشابها الفتور في بعض الأحيان، وكان هذا عاملا مساعدا للانتقام من التونسيين.

وإلى جانب ما تقدم ، يوجد العديد من الدوافع الدينية للحملة فقد أجمع عدد غير قليل من المصادر الأجنبية على موضوع العرض الذي قدمه المستنصر للويس باعلان رغبته في ترك الاسلام ودخول المسيحية فيذكر نانجي «أن ثمة مراسلات وسفارات متبادلة بين ملك تونس ولويس، كان المستنصر يعرض فيها ميوله الصادقة تجاه المسيحية ، ورغبته في ترك الديانة المحمدية ، لدرجة أنه عندما توجه لويس إلى تونس لم يكن لديه أدنى شك في أن سيوفق في ادخاله في المسيحية»[١].

وفعلا بدأ حلم لويس يكبر ، وأخذ يتصور نفسه وهو ينشر الدين المسيحي في شمال أفريقيا ومما زاد من تصوره هذا تلك المعاملة الطيبة التي كان يبديها المستنصر تجاه المسيحيين لدرجة أن لويس كان يحدث نفسه قائلا «حتى لو لم أتمكن من نشر المسيحية في تونس، فسيكون لي الحظ في جمع محاصيل هذا البلد مع بداية شهر أغسطس القادم»[٢] ولم يكف لويس عن التمني والدعاء في كل صلواته لتحقيق هذه الأمنية التي كانت تجيش في صدره ، وكان دائما يبتهل إلى الرب قائلا «أيها الرب أنني أعتقد في هذه المرة حين ذهابي إلى تونس سأكون الصديق والأخ والحليف وإنني سأقوم بهذا العمل تلك الارادة العليا»[٣].

١- Nangis , p. 478 , Michaud ., Cross VI p. 202 , Cf also Hassall , France , p. p. 38 , Archer and kingsford, p 40 , Guizot , St Louis , pp. 135-136 , Miller , Hist , t. II pp. 43-44 .

٢- أغسطس ١٢٧٠م / محرم ٦٦٩هـ، هو نفس الشهر الذي شهدت فيه الحملة أسوأ مراحلها على أرض تونس بعد تفشي الوباء في الجيش، وهذا ما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد.

٣- Nangis, p. 477 , Michaud, p. 202 .

وهكذا تمكن لويس من اقناع الجميع بأن الذهاب إلى تونس فيه ارضاء للسيد المسيح بادخال شعبها في المسيحية على المذهب الروماني الغربي. ولكن إن كان هذا صحيحا فلماذا طلب المستنصر من الظاهر بيبرس سرعة ارسال المساعدات لدفع قوات لويس[1]؟ ولماذا أخرج المستنصر كل ما لديه من أموال وعتاد استعدادا لملاقاة هذا العدو[2]؟ ولماذا تحرش المستنصر بالتجار المسيحيين في بلاده ورفض أن يرجع لهم أموالهم[3]؟ ولماذا تحدى شارل كونت انجو ورفض دفع الجزية له كما كان يدفعها لآل هوهنشتاوفن[4] من قبل ؟ ولماذا يظهر الضعف والخزى وتونس تعيش عصرها الذهبي على عهده وفي ظل هذا الاستقرار يمكنها مواجهة العدو[5]؟ وفي الواقع لو تمكنا من الاجابة بحيدة كاملة على هذه التساؤلات ، سنجد أن كل هذه الأقاويل التي نسبت إلى المستنصر ما هي إلا أقاويل جانبها الصواب ، وأن هذه التساؤلات التي طرحناها تحمل بين طياتها الاجابة عليها .

حقيقة لقد أيهم في هذا الرأى أحد المؤرخين المسلمين القدامى وهو المقريزى، حين اتهم المستنصر بأنه لايحق له أن يلي أمور المسلمين. ولكن هذا لايعتبر سندا أو دليلا يؤكد ما ورد في المصادر اللاتينية بهذا الخصوص.

ولاشك أن هذه الادعاءات لاتتعدى مجرد صداقات عقدها المستنصر مع لويس تحقيقا للمصالح المشتركة، شأنه في ذلك شأن الملك الكامل محمد ومن بعده الظاهر بيبرس. فهل اتهم أحد منهم بيبرس أو الكامل محمد بمثل هذا الأمر. أن مثل هذا الأمر لم يحدث لأن بيبرس والمستنصر لم يعملا إلا لصالح الجبهة الإسلامية.

ولكن يجب ألا نغفل عن نفسنا ما تميز به المستنصر من دهاء وخبث مع أعدائه ، فصداقته ووعوده مع لويس كانت تحمل فى طياتها معان أخرى وهي أنه كان يتمنى في قرارة نفسه أن

١- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج١٢ ، لوحة ٧٤ .

٢- ابن أبي دينار : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس، ص١٢٨ .

٣- محمد الحبيب ، لب التاريخ، ص٢١٤

٤- Nangis, p. 439

وأيضا محمد مزالي، تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨٠ .

٥- ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٢٩٠-٢٩١ .

يجمع في ممالأة عدوه بالخارج حتى لايفتح على نفسه جبهة معادية جديدة بالإضافة إلى خصومه بالداخل وهم ورثة الموحدين من بني مرين وبني عبد الواد، وعربان افريقيا بالإضافة إلى عدو آخر وهو شارل صاحب صقلية، فمن خلال هذه الصداقة نجح المستنصر في أن يمسك العصا من منتصفها وأظهر نفسه صديق الجميع في حين أنه لم يكن يعمل إلا لمصلحته الذاتية في أن يحافظ على حكمه وسلطانه على تونس

وفي هذا الصدد يجب ألا ننسي المحادثة التي تمت بين لويس التاسع وبين مؤرخ سيرته جوانفيل أثناء حملته على مصر فيشير جوانفيل أنه بعد اغتيال سلطانهم تورانشاه ؟ اقترحوا في اجتماع لهم أن يهبوا عرش السلطنة المصرية الملك لويس التاسع، وأن هذا الاقتراح لم يحل دون الموافقة عليه إلا وثوق هؤلاء الأمراء من أن الملك الفرنسي لن يقبل ذلك العرض لأنه لن يرضى أن يرتد عن دينه، وأنهم إذا جعلوه سلطانا عليهم فاما أن يرغمهم على اعتناق المسيحية وإما أن يقضي عليهم، يقول جوانفيل في هذا الصدد : «سألني الملك ذات يوم عما إذا كان من رأيي ، إذا عرضت عليه مملكة مصر أن يقبلها ، فأجبت أنه لو قبلها لارتكب خطأ كبيرا بعدما رآهم يقتلون ولي نعمتهم بقصد المعظم تورانشاه. وقال لي الملك أنهم لو عرضوها علي لقبلتها دون تردد»[١]. ويتضح من العبارة السابقة، على الرغم مما فيها من مبالغة، إذ لايعقل أن يقبل المصريون لحكمهم إلا رجلا مسلما مصريا يتضح منها أن الهدف الرئيسي الذي كان يحرك لويس في كل حملاته وفي أحلام يقظته هو نشر المسيحية الغربية بين المسلمين إلى جانب التوسع والاستعمار وجميعها أقاويل غير معقولة ولامقبولة ترددت كثيراً في مجلس لويس .

وعلي هذا ، يمكن القول أن المستنصر كان داهية حريصا على دينه، نجح في خداع لويس إلى أبعد الحدود فهو لايمكن أن يكون قد فكر في التحول إلى المسيحية، ولايمكن أن تكون قد خطرت علي باله هذه الفكرة، وسوف تكشف لنا أحداث الحملة في تتابعها الزمني صدق هذا القول. وقد ألمح المؤرخ الفرنسي ميشو بأن لويس كانت لديه مجرد آمال في ادخال ملك تونس إلى المسيحية، ولم تكن هناك نوايا معينة وكبيرة على هذا الموضوع [٢]. ويدعم هذا القول كل

١- Jouville, p. 200 cf. also . Davis, E. J. The invasion of Egypt in A.D 1249 by Louis IX of France, London 1897, p. 66 .

٢- Michaud , Crois VI , p. 202 .

من ميلر وجيزو وأرثر هاسال الذين أشاروا إشارات صريحة في مؤلفاتهم مفادها أن موضوع المسيحية كان مجرد أمنية داخل لويس وليس اتفاقا صريحا ومبرما[1]، وبكلمة أدق كانت مجرد أحلام أو أضغاث أحلام .

وبالإضافة إلى كل هذه العوامل مجتمعة ، فهناك سبب شخصي آخر ذكره ابن أبي دينار إذ علل قيام الحملة «بوجود عداء شخصي بين لويس والمستنصر حتى ذكر لويس ذات يوم بحضرة المستنصر فهضم من جانبه وقال هذا ... الذي أسره الترك وافتدى نفسه فبلغ هذا القول لويس فحقد عليه وعزم على غزو تونس»، خاصة وقد وصلت إلى مسامع لويس بعض الأبيات الشعرية التي ذكرها الشاعر جمال الدين بن مطروح ، وبعثها الظاهر بيبرس إلى لويس مع رسول من عنده عندما علم بنواياه في مهاجمة ديار الإسلام من جديد ومنها :

قل للفرنسيس إذا جئته   مقال صدق من قؤول فصيح

قد جئت مصر أتبتغي أخذها   تحسب أن الزمر يا طبل ريح

دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشي صبيح[2]

كما قال فيه أحد الشعراء المغاربة أيضا يوم نزوله تونس.

يا فرنسيس هذه أخت مصر   فتيقن لما إليه تصير[3]

وعلى أي الأحوال ، ورغم تعدد الأسباب، فالسبب الأكثر ترجيحا هو رغبة مسيحيي غرب أوروبا في تطويق مصر بأي وسيلة باعتبارها معقل العالم العربي والإسلامي ومصدر امداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح، ومنها كانت تخرج صيحة الجهاد للقتال ضد المعتدين. فكان لايمكن الذهاب إلى بلاد الشام للحالة المتردية للصليبيين هناك، ولايمكن التوجه أيضا إلى مصر، فذكريات الهزيمة والخزي والعار كانت لاتزال تملأ القلوب. لذا اختاروا تونس، وتعللوا بمختلف الحجج والمعاذير، وأهمها جميعا قوة تونس وتسلطها وقدرة التونسيين آنذاك على

١- Hassal, Op. cit., p. 38 , Archer and Kingsford, p. 40 , Guizot, p. 131 , Miller , p. 44

٢- ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٢٨ ، ابن القنفذ: الفارسية في تاريخ الدولة الحفصية، ص١١٠، ١١١

٣- لم يتسن لنا معرفة اسم الشاعر المغربي الذي ذكر هذه الأبيات ، أنظر الكتبي: فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٣-٨٤ ، ابن إياس: تاريخ مصر، ج١، ص٨٧-٨٨، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٩١

أحداث القلق لدى أهل الغرب وسيطرتهم على زمام الموقف في سواحل شمال أفريقيا، وقطع طرق المواصلات والامدادات والاسعافات القادمة من غرب أوروبا إلى افرنج الشام. كل هذه الأسباب مجتمعة بالإضافة إلى الحماسة الدينية لدى لويس وحبه وإخلاصه للقضية الصليبية ، وتصوره الدائم، وقد صار اشبينا لسلطان مسلم، كانت الدافع لتلك الحملة. وكثيرا ما كان يردد أنه تمنى لو أمضى بقية أيام حياته مكبلا بالسلاسل فى سجن مظلم لاتنفذ إليه أشعة الشمس فى سبيل أن ينال ثواب الآخرة[١].

وهكذا تكاتفت الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية والنفسية والشخصية من أجل انجاز الحملة. ولكن كان أخطرها جميعا الأطماع السياسية والرغبة فى التوسع وأن الدافع الدينى لم يكن المحرك لهذه الحملة وهو ما تجلى بوضوح منذ بدايات الحركة الصليبية، وما أشار إليه العديد من المؤرخين الغربيين الحديثين أمثال رينيه جروسيه ، ولويس هالفن، وبرنارد لويس وجورج تريفيليان وغيرهم[٢].

فلو كان الدافع الدينى قويا لديهم لكان الأجدر بهم التوجه مباشرة نحو بيت المقدس بدلا من التوجه إلى الشمال الافريقى.

وبعد أن استعرضنا أحوال كل من العالم المسيحى والعالم الإسلامى قبيل الحملة، وناقشنا مختلف الأسباب والدوافع التى أدت إلى قيامها يجدر بنا أن نتناول موقف سادة الغرب من رجال الدنيا والدين من تلك الحملة المزمع القيام بها، ودورهم فى سبيل اخراجها إلى حيز الواقع والأشياء الملموسة .

فى الواقع بذل لويس جهدا كبيرا فى سبيا اقناع ملوك وأمراء الغرب بهذه الفكرة ، بالرغم من مشاكلها الخاصة والمحلية. وأصبحت فرنسا هى القوة العلمانية الوحيدة فى أوروبا التى خرجت منها الندائات المتكررة لحمل الصليب ضد ديار الإسلام وعلى الفور أرسل لويس مبعوثه السير سيمون Sir Simon لمقابلة كاردينال الكنيسة المقدسة ليعرض عليه الأمر وأبلغه

١- موتروند: الحروب المقدسة ، ج٢ ، ص ٢٥١-٢٥٢

٢- Grousset, R. The Sun of History , Oxford, 1951, p. 191 , Halphen , L. , L, Essor de L, Europe , Paris, 1941 , p. 63 ff , Lewis, B., The Arabes in History , London, 1958 , p. 150 Trevelyan , G.M., Ashortened history of England, Aglesbury , 1960 , p. 141

أنه إذا وافق على تلك الخطوة ، فعليه أن يأخذ زمام المبادرة ويبلغ البابا برغبته في أن يجتمع ملوك الغرب وكبار الأمراء ورجال الدين بباريس، لإلقاء الخطب الحماسية وشرح الموقف كاملا، مثلما يحدث عادة عند الدعوة إلى حملة صليبية كبيرة، وعليه أن يصور لهم مدى الخراب والدمار الذي حل بمملكة اللاتين في بلاد الشام، ومدى غضب الرب عليهم في هذا الجانب الآخر من البحر، وأبلغه بضرورة حلف اليمين لتكريس كل الجهود لانقاذ هذا الوضع المتردى بالنسبة للقضية الصليبية وبشكل سريع ومكثف [١].

وفعلا قام البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨م) بتوجيه الدعوات إلى ملوك أوروبا وحكامها ، كما أخذ في القاء الخطب الحماسية ضد المسلمين ، وشرح حالة الفرنج في الشرق الذين فقدوا أملاكهم وأولها بيت المقدس. وذكر كيف ذهبت أعداد هائلة من صفوة شبابهم وفرسانهم في سبيل الصليب ، كما أخذ يصور لهم أعمال التدمير والعنف التي يعاني منها فرنج الشام، وتسلط المسلمين عليهم. كما بدأ في حث الناس على الاشتراك في الحملة، بأن وعدهم بغفران خطاياهم والتكفير عن آثامهم، وغيرها من الامتيازات التي كان البابوات يمنحونها عادة للمحاربين الصليبيين[٢] كما قام البابا بتقديم كل التسهيلات اللازمة للويس ، وأطلق يده في أموال الكنائس ليأخذ منها ما يشاء من أجل الاستعداد للحملة. وقد لبى دعوته عدد كبير من الملوك والأمراء في الغرب[٣]. وفي حقيقة الأمر لم تكن البابوية آنذاك تهتم بتوفر الدافع الديني لدى لويس من عدمه ، طالما أن انخراطه في سلك الحملة سيكون فرصة طيبة للبابوية للتخلص من مضايقة أمراء الغرب لها ، في وقت كانت تسعى فيه لفرض نفوذها الروحي والدنيوي على دول الغرب المسيحي [٤] لذا لانستبعد أن يكون تحمس البابا كليمنت الرابع وتأييده للويس في حملته الجديدة خوفا من أن يطغى على نفوذه وسطوته رجل دنيوي

١- Nangis, p. 439 , Matt. of West. , vol . II, p. 450 , Reinaud p. 516

٢- Campbell , G , The Crusades, London . 1935 , p. 421 Ludlow, J M, The age of the Crusades, Edinburgh, 1897 , p. 328

٣- المقريزي: السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥ أنظر أيضاً

Richard, J St. Louis, p. 183 , Bailly , St. Louis. p. 307 , Boulegr, la vie de St. Louis, p. 239

٤- جوزيف نسيم العدوان الصليبي على مصر، ص٥٥ .

مثل لويس عرف بتدينه وتقواه وكان يتمتع بمكانة كبيرة بين المسيحيين الغربيين مما ترى فيه الكنيسة اللاتينية تهديدا لسلطانها . وهكذا يخلو للبابوية الجو لتحقيق مطامعها بتغييب ملك مثل لويس عن أوربا عرف أيضا بمواقفه الحازمة حيال الكنيسة ورجال الدين وهو نفس الموقف الذي سبق وسلكه البابا انوسنت الرابع مع لويس من قبل ، أثناء الدعوة للحملة الصليبية على مصر. فقد كانت مطامع أنوسنت تتخلص في الخلاص من نفوذ لويس، بل الأخطر من ذلك أنه كان يتمنى أن يحول جهود هذه الحملة واستعداداتها لصالحه في أثناء صراعه مع خصمه الامبراطور فردريك الثاني ، وهو ما عبر عنه صراحة الكاتب الفرنسي جيل ميشليه Jules Michelet من أن البابا لم يترك سلاحا دينيا كان أم دنيويا إلا واستعمله لاحباط مشروع الحملة أملاً في الاستفادة بقواتها واهتمامها بمصالحها الخاصة

وبناء على ما تقدم، لبى نداء البابوية عدد كبير من أمراء وقادة أوروبا ، ووفد الجميع على باريس حيث عقد اجتماع كبير يوم الاحتفال بعيد القديس دنيس St. Denis [٢]. وفي ذلك الاجتماع شرح لويس للحاضرين الأمر بكل وضوح ، وذكر أنه ينوي قمع قوات المسلمين بنفسه، لأنه سيتولى قيادة هذه الحملة. «ويقال أنه دخل عليه في أثناء انعقاد المجلس وفد من قبل السلطان المستنصر الحفصي، وكان الملك جالسا وبجواره البابا كليمنت الرابع وكل الأمراء والسلام فقطع لويس حديثه عن الحملة وخاطبهم بصورة مليئة بالتأثر والحماسة «قولوا لسيدكم ملك تونس نقلا عني أنني أرغب في تنظيم أمر هذا البلد، وأنني قادم إليكم لاقتفاء أثر المسلمين ، وأنه في هذا الدير حيث هذا الجمع الكبير أذكر هذا والجميع شاهد على ما أقول، أنني قد قررت في هذه المرة أن امتلك زمام الموقف وأجني ثمار أفريقيا في شهر أغسطس القادم، ذلك ارضاء لسيدنا يسوع المسيح، وقد أزره كل الحاضرين وأيدوا قوله لسفارة تونس»[٣].

ويشوب هذه الرواية الكثير من المبالغة ، إذ لايعقل أن يدخل سفراء من تونس على مجلس لويس وهو يخطط لغزو بلادهم دون حجابة بينه وبينهم والمقصود منها اظهار التونسيين بمظهر الحليف المتواطئ مع لويس ضد باقي القوى الإسلامية، وهي محاولة جديدة من مؤلف عربي

١- جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين ، ص٣٦ .

٢- تاريخ العيد ٩ أكتوبر ١٢٦٨م وهي الفترة التي صاحبت استعداد لويس للرحيل بالحملة وتجهيزها

٣- Nangis, p. 438 .

مسيحى ليضفى صبغة حقيقية على موضوع تحول صاحب تونس فى المسيحية، وأن الأمر كان معدا له بموافقة التونسيين أنفسهم، ويرفض أن يصرح بأنهم كانوا مخدوعين من قبلهم. ويقول جوانفيل فى هذا الصدد «أنه حين سمع هذا الكلام من سيده لويس أى عزمه على القيام بحملة جديدة، أصابه شعور بالحزن والاكتئاب . وفى احدى الليالى كان جوانفيل مختليا إلى نفسه وتساءل عن الدافع القوى الذى يجعل سيده يتسلم زمام الأمر بنفسه، وتستمر الرواية أن جوانفيل ظل مستغرقا فى أفكاره إلى أن غلبه النوم ورأى حلما مزعجا مفاده أن الملك والعديد من الأمراء، والبارونات سيقتربون من مكان يسمى ريمز Reims ، وأن ثمة أحداثا غير طيبة سوف تحدث لهم فزاده هذا قلقا على سيده وحزنا عليه، إلى أن تذكر رجلا يشتهر بحكمته ورجاحة عقله ، وكان يسمى ويليام ، فقص عليه هذه الرؤيا ، فايد جوانفيل فى أحاسيسه قائلاً له «فعلاً سيتوجه الملك إلى قلعة ريمز وأن الرب سوف يهبه المنح والعطايا وأنه سيكون معه فى كل خطواته وقد توجه جوانفيل على فوره حيث كان الملك والأمراء مجتمعين وقص عليه الرؤيا وذكر أن الملك كان مستمرا فى الاعداد للحملة واتخاذ التدابير اللازمة لقيامها . ثم يستكمل حديثه قائلا «أن القديس لويس أعلن فجاة النبؤة على المجتمعين وكان يجلس إلى جواره أبناؤه الثلاثة وملك نافار ، والعديد من البارونات الآخرين، ويبدو أنهم تشاءموا حين سمعوا ذلك». يقول «جوانفيل» أنهم لم يقتنعوا بحديثى وطلبوا منى تعميم ما جاء فى رؤيتى من أن دمارا شديدا سوف يحدث للقوم، وأن الرب سيكون بمثابة القلب والروح لمساعدة شعبه وانقاذه ، وقد حزن لويس لهذا». وأقسم جوانفيل أنه لم يضف حرفا واحدا على الرؤيا التى تراءت له، وأنه لايستحق غضب الرب أو القوم، ويستطرد قائلا أنه حدث ما توقع إذ ذهب الملك ورجاله إلى قلعة قرطاجنة وحل بهم مرض شديد ومات لويس نفسه متأثرا بهذا المرض[١]

وليس مستغربا فى مثل هذه الظروف والاستعدادات قائمة على قدم وساق للدعاية للحملة المقترحة والتبشير بها ، ظهور مثل هذه الرؤى والمنامات التى هى أقرب إلى الأساطير والمرجفات منها للحقائق التاريخية. إذ كان الهدف منها اثارة الحماسة الدينية لدى الناس للانخراط فى سلك الحملة[٢]. ورغم كل هذا ، فقد كان تحمس لويس لهذه الفكرة شديدا بحيث أنه لم يقف كثيرا أمام نبوءة جوانفيل ، بل أسرع بالعمل الجاد من أجل اعداد القوات والأموال

١- Joinville, Op. cit., p. 299 .

٢- جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين ، ص٥٥ ، والعدوان الصليبى على مصر، ص٥٢

اللازمة للحملة، ويبدو أن تلك الحماسة التي غمرته لم يكن يشعر بها غيره من الأمراء والملوك في أوربا. فقد أحس لويس بصعوبة التأثير على عدد غير قليل منهم. ويؤكد نانجي قول جوانفيل من أن الملك الفرنسي لما شعر بعدم صدق النية من بعض النبلاء ورجال الدين، غضب واتهمهم بالتخاذل والانصراف عن القضية الصليبية، وأضاف أنه لافرق بينهم وبين اللاتين الشرقيين الذين خرجوا عن واجبهم الديني في تحرير الأرض المقدسة وتركوا أنفسهم للأهواء الشخصية[١]. والواقع أن الفكرة الصليبية قد بدأت في الاحتضار، في وقت أصبح فيه زمام المبادرة في قبضة العرب بعد أن توحدت كلمتهم واتحدت جبهتهم واتخذوا سياسة الهجوم دفعا للعدوان. وتعرض دعاة الحرب الصليبية في الغرب للسب والاهانة من الناس علنا وجهرا، في الوقت الذي بدأ فيه الناس ينفضون من حول الكنيسة اللاتينية ويخرجون على أوامرها وأصبح «انهيار الكنيسة في طريقه هو الآخر نحو التداعي والانهيار»، وكان «المسيحيون الغربيون يسخرون من زملائهم الذين ينخرطون في حملة صليبية ضد العرب، وكانوا يرددون «ما الفائدة من القيام بمثل تلك المغامرة التي تكلف الكثير، بينما يترك المرء مصالحه الخاصة في بلاده التي تدر عليه الربح الوفير، ليشترك في حرب لاتنتهي وقد يخسر فيها كل شيء». وهم أيضا يقولون في أسلوب لاذع على لسان أحد الرهبان الغربيين في حوار باللغة اللاتينية بينه وبين الله، أنه لأحمق غبي هذا الذي يشترك في معركة جديدة ضد العرب»[٢] وكانت مثل هذه الأقوال والعبارات اللاذعة تتردد على ألسنة الناس في الغرب أثناء الحملات الصليبية، ومهما يكن من أمر، فقد أيد البابا هذه الحملة علانية فقط، وإنما في حقيقة الأمر كانت ضد رغبته، ورغبة البابوية[٣]. فقد عاد جوانفيل يؤكد هذا الاحساس من جديد حين قال «إن القديس لويس سوف ينفذ هذه الحملة سواء كانوا مقتنعين بها أم لا، فالأمر أصبح يشكل خطورة بالغة لفرنسا، وبات من الضروري بذل كل شيء في سبيل الدفاع عن الوطن»[٤]

١- Nangis, p. 439 .

٢- جوزيف نسيم، العدوان الصليبي والرأي العام الغربي. مقال من سلسلة المحاضرات العامة، ص٣٧-٣٩، ٤١ .

٣- Michaud, Cruss, VI , p. 302 .

٤- واضح هنا أن جوانفيل كان ضد فكرة الحملة على تونس بعدما شاهده في حملتي لويس التاسع على مصر والشام، كما أنه نصحه بعدم القيام بها مبينا أن فرنسا أولى بجهوده ورعايته. أنظر Joinville p.300.

لقد كان اصرار لويس على انقاذ هذه الحملة نابعا من الماضي البعيد والهزيمة المريرة التى منى بها علي ضفاف النيل فتمنى وهو شيخ في السبعين من عمره أن يمحو هذا العار عن نفسه، خاصة بعد فشل محاولاته أثناء اقامته في بلاد الشام عقب انتحاره في مصر، ولكن لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن. فقد مات على أرض تونس دون أن يحقق أيًا من أهدافه.

وهناك قضية أخرى لابد أن نتوقف عندها، فمن الواضح من رواية جوانفيل أن تونس لم تكن في الحسبان على الاطلاق وقتذاك. فيقول أنه رأى أنهم يتجهون إلى مكان يسمى «ريمز» وليس قرطاجنة أو تنيس أو تونس أو تانسي أو ترشيس أو غيرها من المسميات التي كانت تطلق على تونس في كتب المسالك والممالك ومؤلفات الرحالة والجغرافيين. ومن المعروف أن ريمز هذه هي بلدة في فرنسا [١]. فربما قصد جوانفيل أنها ستكون مكان التقاء لويس بجيوش حملته ، لأنه لم يشر إلى أن وجهة لويس ستكون تونس، ومن المحتمل أن لويس احتفظ بسرية اتجاه الحملة إلى تونس لنفسه ولم يطلع عليها كل المقربين منه .

وبناء على ما تقدم ، لم يكن أمام لويس سوى الاعداد العسكري للحملة وتجهيز الأسطول، وتوفير الموارد المالية اللازمة لها[٢]، ثم بعد ذلك التفرغ لترتيب أمور مملكته من جديد أثناء غيابه عنها، وذهب إلى مدينة سان دينيس حيث تقابل مع رجال الدين في كنيسة السيدة العذراء هناك ، وتناقش معهم في الكثير من الأمور الخاصة بالحكم في فترة غيابه. فهذه المدينة تشتهر باخلاصها المطلق للبابوية وعلاقتها المتينة بلويس، لذلك عين الكونت فكيوسين Vicosein كونت مدينة سان دينس ليكون مسئولا عن المؤن والعتاد الخاص بالحملة ، وأن يكون له حق الاشراف على أمور فرنسا أثناء غيابه [٣]، بالاشتراك مع خمسة من كبار رجالات فرنسا هم ماهيان Mahan ، ونيل Nile ، والسير سيمون Sir Simon ، ومتى دي فاندوم Matthew de Vandom ، وسيمون دي ناظلا Simon de Nazila [٤]، ثم بدأ لويس في

١– جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ، ص١٤ .

٢– موروند ، الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٢٥٠

٣– لقد بلغت تلك المدينة مكانة مرموقة في فرنسا لدرجة أن شعار فرنسا آنذاك كان العلم الخاص بدير القديس دينيس، بحيث كان يرفرف كألسنة النار بلونه الأحمر المشقوق من جانبه الطليق ، وكان هو شعار رجال دير دينيس الخاص بهم ، ولم يصبح شعار ملوك فرنسا إلا بعد عهد فيليب أغسطس وابنه لويس الثامن أنظر Joinville (Johnes, tr), p. 390

٤– كانت هذه الشخصيات من كبار النبلاء المقربين من لويس وموضع ثقته. أنظر Nangis, p. 439

ترتيب الأمور الخاصة بأسرته فوزع ميراثه على أبنائه الأربعة، وأعطى لكل من بناته الباقيات بلا زواج ما يخصصهن من ارث ومال لجهازهن. ثم توجه إلى زوجته الملكة مارجريت دي بروفانس (1)، وأعطاها صداقها وارثها ، ثم وزع أموالا طائلة على الفقراء والمرضى والأديرة والمستشفيات، وكذلك على خدمه وحاشيته وكافة الذين وقفوا إلى جانبه بإخلاص، وقد تألم شعبه كثيرا حين رأى أن العظات تقترب ليفارق زعيمه من جديد، فقد كان وجوده بين شعبه يبعث على الاطمئنان رغم كل المتاعب والاضطرابات ، وكان الشعب ينظر لملكه وقد اعتصره الألم واشتدت به الحسرة ، فقد أصبح كهلا ضعيف البنية(2) وكما يقول جوانفيل كان غير قادر على ضبط سيره ، ولايطيق ركوب الخيل(3).

وعلى أي الأحوال فإن الملك لويس حين عقد النية على القيام بحملته الجديدة من أجل الاستيلاء على بيت المقدس وقمع مصر، فإنه بدأ يسير وفق خطة دقيقة منظمة محكمة مرت بعدة مراحل منذ أن كانت فكرة تداعب خياله حتى قيام الحملة، ولم يبخل بأي شئ في سبيل انجازها ، وبذل قصارى جهده في سبيل اقناع السلطات الدينية والعلمانية بها متخذا في ذلك كافة الأساليب والوسائل التي كانت تتأرجح بين اللين والعنف وبين الترهيب والترغيب . حقيقة أن الحماسة كانت تنقصه ، ولكن سوء الأحوال السياسية والاقتصادية في غرب أوروبا، واحتضار الفكرة الصليبية جعلت من هذه الحملة قوة هزيلة ضعيفة غير كافية. فلم يضع الملك في حسبانه عامل الزمان والمكان والمستجدات التي طرأت على المسرح الدولي وقتها ولم يكن هذا هو ذنب لويس، بل ذنب العصر الذي عاش فيه فقد باتت الحروب الدينية ضد المسلمين أشبه بكابوس ثقيل تمنى المسيحيون الشرقيون والغربيون الخلاص منه ونفض آلامه وذكرياته عنهم، لقد بدأ الغرب وقتها يمر بفترة تغير وانتقال من مفاهيم العصور الوسطى المبكرة إلى أوضاع جديدة مغايرة، مما أثر على الفكرة الصليبية. ولم تكن لدى لويس بعد نظر كاف ، فقام بحملته الصليبية الثالثة والأخيرة ضد تونس ليضيف فشلا جديدا إلى هزيمته السابقتين في مصر والشام، وسوف تكشف الفصول القادمة عن ذلك .

١- مارجريت هذه هي ابنة ريمون برنجيه Raymond Berenger كونت بروفانس ، وقد تزوج لويس التاسع منها عام ١٢٣٤م، ورافقته في حملتيه على مصر والشام، أنظر: Kitchen , Op. cit , p. 334

٢- موبروند، الحروب المقدسة، ج٣، ص٣٥٠-٣٥١

٣- Joanville, p. 300

الفصل الثاني

الاستعداد للحملة وقيامها

فئات الجيش الصليبي وعناصره- الاستعدادات للحملة: الموارد المالية- التموين والإمدادات- الأسطول وتجهيزاته- الأحداث التي صاحبت تجمع القوات الصليبية بميناء إيجمورت- إبحار الحملة من إيجمورت إلى سردينيا، والمصاعب التي واجهتها والنتائج المترتبة على ذلك- تخبط لويس في قراراته وتصرفاته: أسبابها وانعكاساتها على كل من الصليبيين والمسلمين- رد فعل القوى الإسلامية داخل تونس بصفة خاصة والعالم الإسلامي بصفة عامة، والآثار المترتبة عليه.

بعد أن استعرضنا أحوال العالمين المسيحي والإسلامي بوجه عام، وظروف تونس وفرنسا على وجه الخصوص، يجدر بنا أن نتعرض بالتفصيل لاستراتيجية الحملة المزمع القيام بها، والفئات التي اشتركت فيها، والاستعدادات لها من حيث التمويل اللازم والمؤن ووسائل النقل، هذا، بالإضافة إلى إلقاء الضوء على مختلف الظروف التي صاحبت قيامها من ميناء إيجمورت[1] جنوب فرنسا، إلى أن يممت وجهها شطر تونس، وأثر ذلك على المعسكر الإسلامي

لقد سبق القول أن الملك الفرنسي لم يأل جهدا في الدعوة لحملة جديدة ضد العالم الإسلامي وقد لقي تجاوبا من قبل البابوية التي أطلقت يده في أموال الكنائس ليدعم بها حملته. وبالفعل انخرط في صفوفه العديد من الأمراء والبارونات. وأجمعت المصادر الأوربية المعاصرة أنه لم تتوافر في كل من اشترك في الحملة النية الصادقة للمساهمة الفعلية، بل

١- تعرف باللاتينية باسم Aquae Mortuae أي المياه الراكدة وإيجمورت الحالية هي إيجمورت الصليبية انظر.

Kitchen , Op. cit., p. 341 , Bordeaux, H., Un Precurseur: Vie , mort et Survie de St. Louis, Paris 1949, p. 217

هناك من أعلن حضوره ثم تباطأ ولم ينخرط في صفوفها في الموعد الذي حدده لويس التاسع للقاء الجميع في ايجمورت[1] ويلاحظ أن التأييد القوي للويس وحملته لم يصدر عن كبار ملوك أوروبا، بل تركز في عدد من الأمراء والبارونات فقط فقد كره هؤلاء الحكام أن يتسيد عليهم لويس لما في ذلك من اضافة دور جديد إلى دور فرنسا الفعال في تاريخ الحركة الصليبية، خاصة وأن الصراع بين فرنسا وانجلترا لم يخمد بعد، وكانت هذه المسألة من الأمور التي شغلت بال لويس التاسع أثناء تغيبه عن وطنه في حملته ضد مصر والشام (١٢٤٨-١٢٥٤م/ ٦٤٦-٦٥٢هـ) وقد أكد ابن خلدون ذلك حيث ذكر «أن كل من حضر مع لويس من قادة أوروبا قد تبدو في اظهار قوتهم على حساب الآخرين، ولكن لويس بفضل قوة شخصيته وعظمته تمكن من التسيد عليهم جميعا وملك زمام الأمور»[2].

وقد أخذ القديس لويس على عاتقه مهمة انجاح الدعاية للحملة، الأمر الذي ترتب عليه انضمام عدد كبير من الأمراء والبارونات إليها وازداد عدد المتطوعين فيها يوما بعد يوم، خاصة وأنه لجأ إلى خدعة دينية طريفة لاكتساب أكبر عدد ممكن من رعاياه فيها، وذلك عن طريق تقديم المعونات المالية العاجلة لكل محتاج من رعاياه حتى لو لم يكن فقيرا. فقد ذكرنا من قبل أنه كان يعطي الأموال للأرامل واليتامى ومن يرغب في الزواج وليس لديه الامكانيات تماما مثلما كان يفعل أثناء استعداده لغزو مصر فيذكر د. جوزيف نسيم «أنه كان يقدم الهدايا القيمة بمناسبة عيد الميلاد من كل عام إلى كبار رجال المملكة من النبلاء والبارونات، وكانت عبارة عن وشاح طبع عليه علامة الصليب ففهم الجميع حيلته وأنهم لابد من الانصياع لرغبته بالانخراط في سلك الحملة.

وقد كان أبناء واخوة لويس من أوائل من شاركوا في الحملة. فقد انضم إليه أبناؤه الثلاثة يوحنا الحزين John Tristan وكان قد ولد في دمياط أثناء أسر لويس بدار ابن لقمان في المنصورة [3]، وتوفي في تونس بسبب الوباء الذي انتشر بين صفوف

١- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٤-٣٦٥. أنظر أيضا: Nangis, Op. cit., p. 439

٢- ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٣٩١.

٣- جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، ص٣٤.

الحملة[١]، واشترك فيها أيضا ابنه فيليب الثالث Philippe III ، وهو الذي تولى بعد وفاة لويس قيادة الحملة إلى أن حضر عمه شارل كونت انجو . أما الابن الثالث فهو الكونت اليسون Elenson [٢] وشارك في الحملة أيضا أخوه شارل كونت أنجو. وقد اختلفت المصادر المعاصرة من عربية وغير عربية ، حول مسألة مصلحية شارل لأخيه لويس، فمنهم من قال أنه ظل بجوار أخيه حتى وصولهم تونس، ومنهم من قال أنه تركهم بسردينيا ورحل إلى صقلية بسبب مصالحه الخاصة هناك. وهذا هو الرأى الأرجح الذى أجمع عليه عدد كبير من المؤرخين المعاصرين والمحدثين، وخلاصته أن شارل عندما وصل إلى تونس كان أخوه لويس يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجلس على الأرض باكيا حزينا على تأخره عن امداد جيوش الحملة ومساعدة لويس[٣]. يضاف إلى ما تقدم ما جاء في بعض المصادر من أن شارل كان ملكا على نابلس بالاضافة إلى صقلية وجنوب إيطاليا. وقد انفرد بهذا الرأى المؤرخ الفرنسى رينو دون غيره من المؤرخين الذين أجمعوا على أن أملاك شارل كانت تنحصر في صقلية وجنوب ايطاليا فقط. هذا بالإضافة إلى أحلامه الواسعة في الاستيلاء على شمال أفريقيا[٤]، لما يحققه ذلك له من مصالح اقتصادية كبيرة.

أما ملك إنجلترا فقد تضاربت الآراء حول موضوع اشتراكه في الحملة. إذ ذكر بعض المؤرخين أنه كان ضمن قادة الحملة وأن اسمه ادوارد[٥]. وهذا غير صحيح لعدة أسباب أولها أن ملك انجلترا آنذاك كان هنرى الثالث Henry III (١٢١٦- ١٢٧٢) أما ادوارد فقد كان وليا للعهد. والسبب الثاني أن العداء المزمن بين ملكي انجلترا وفرنسا لم يكن يسمح بالمرة باشتراكه فيها ، خاصة وأن موقفه المتردد في الانخراط في الحملات الصليبية كان واضحا

١- Eracles, R.H.C.- H. Occ., t. II, p. 458 .

٢- Reinaud, Op. cit., p. 517 .

٣- Eracles, p. 458 , Cf. also; Wiegler , Infidel Emperor, p. 317

٤- Reinaud , p. 517 .

٥- المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٠٠،٣؛ العيني: عقد الجمان ، ج٢، ق٢، ورقة ٥٥٨ ؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص٦٠٠،٣٩-٣٩١ .

منذ حملة لويس على مصر . فعلى الرغم من أنه قيد اسمه في سجل الحرب المقدسة متعهدا بحمل الصليب لنجدة اخوانه في أرض الميعاد، وحذا حذوه كثير من النبلاء والفرسان ورجال الدين الإنجليز[١]، إلا أنه سرعان ما تكشفت نواياه عندما دفع البابوية مبلغا ضخما من المال لتعفيه من العهد الذي ارتبط به . وفي الحقيقة أن هنري الثالث كان يتخذ من تأييده الظاهري للحملة وسيلة لابتزاز الأموال من رعاياه ارضاء لجشعه [٢]. والجميل الوحيد الذي قدمه للويس هو أنه وافق على مد أجل الهدنة المبرمة بينهما إلى حين انتهاء الحملة وعودة لويس إلى مملكته. ويتضح من هذا أنه من المستبعد تماما أن يكون هنري قد انخرط في سلك حملة لويس ضد تونس في الوقت الذي بدأت فيه الفكرة الصليبية تلفظ أنفاسها

ومع هذا، فإنه قد سمح لابنه ادوارد بالمشاركة فيها، وأكثر من ذلك أنه جعل من ادوارد قائدا مستقلا عن لويس وليس تابعا له، بأن جعل وجهته بلاد الشام وليس تونس على وعد أن يلتقي بلويس في تونس بعد ذلك. وعلى أي الأحوال، فقد كان ادوارد مشهورا بالكفاية والنشاط، وقد ظهرت مواهبه السياسية فعلا في معالجة موقف المتمردين على والده لذا استعد للقيام بحملته بعد أن سمع بسقوط انطاكية والحالة المتردية التي وصل إليها المجتمع الصليبي ببلاد الشام على أنه من سوء حظه بعد أن أبدى نبلاء انجلترا موافقتهم على أن يرافقوا ادوارد، أخذوا يعتذرون الواحد بعد الآخر عن التوجه معه في الحملة، الأمر الذي أخر من رحيل ادوارد بحملته حتى عام ١٢٧٠م / ٦٦٨-٦٦٩هـ عكس ما كان متفقا مع لويس ولم يتحرك بقواته من انجلترا إلا بعد فشل حملة لويس في تونس ووفاته هناك [٣]

يضاف إلى ما تقدم، أنه قد حدث خلط في بعض المصادر حول اسم الأمير ادوارد إذ ورد اسم ولي عهد انجلترا الذي اشترك في عداد الحملة هو دوبارو Donoro [٤] ويرجع هذا الاختلاف إلى أن ادوارد رغم الاتفاق على أنه يلتقي باقي قوات الحملة في بجمورت إلا أنه تأخر عن ذلك وقدم إلى هناك ابنه المسمى يوحنا لانير John Lanz ومعه زوجته الانجليزية ، مما

١- Eracles, p. 44 ; Michaud, Crois., V I , p. 545 .

٢- جوزيف نسيم العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص١٢٦، وانسا العدوان على مصر ، ص٢٦٨

٣- سوف أتعرف بالتفصيل لرحيل حملة الأمير ادوارد في الفصل الخامس من الكتاب

٤- Reinaud, p. 517 .

أوجد هذا اللبس بين المؤرخين. وقد أكد هذا أحد مؤرخي القرن الثالث عشر الميلادي وهو متى أوف وستمنستر قائلا «أن الأمير ادوارد لم يتجه صوب تونس إلا عندما وصلته أخبار أكيدة بموت لويس فذهب إلى هناك على أمل اقتطاف ثمرة النصر التي زرعها لويس، وقد فوجئ بتلك الأحداث الأليمة التي كانت المنطقة مسرحا لها والتي خيبت آماله»[١]. وفي حقيقة الأمر رغم احساس لويس بتنصل ادوارد عن المشاركة في الحملة ضد تونس مباشرة ، إلا أنه لم يمانع في توجهه صوب بلاد الشام لترميم الصدع الذي أصاب الكيان اللاتيني هناك ، واحراز أي تقدم على القوى الإسلامية الآخذة في الازدياد. ومما يدعو إلى الدهشة أن نفس المؤرخ عاد ونقض روايته الأولى بخصوص موقف الأمير ادوارد من الحملة على تونس عندما قال «إن الملك لويس عندما قرر الذهاب إلى تونس للاستيلاء على ممتلكات وأموال هؤلاء البرابرة كان قد سبقه إلى هناك الأمير ادوارد الذي وصل تونس بعد أن تعرض لرياح عاتية»[٢]. وهذه الرواية بعيده عن الحقيقة تماما، لأن كافة المصادر الأخرى أجمعت على ادوارد لم يتقابل قط مع لويس فوق أرض تونس، بل وصل إليها بعد موته مباشرة .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد شارك في الحملة عدد آخر من أمراء أوروبا من بينهم الفونس كونت بواتييه وتولوز وهو شقيق آخر للويس [٣]، وايسوفي Isovy كونت الفلاندرز [٤]، وهيدى Hize كونت لوكسمبورج، والسيد يوحنا بركيني John Birkeny وهو من كبار سادة أوروبا[٥].

١- Matt. of West. , Op. cit., vol. II, p. 450 , Eracles, Op. cit., p. 458

٢- Matt. of West., Op. cit., p. 540

٣- من المعروف أن الملك لويس ثلاثة أخوة أولهم شارل كونت انجو وكان من أوائل من شاركوا في هذه الحملة وذكر بأسماء متعددة في المصادر العربية المعاصرة ، فأحيانا كان يطلق عليه جيرلا وكارلوس ردى جار وغيره . والأخ الثاني هو روبرت كونت أرتوا وهو الذي مات في حملة لويس التاسع على مصر، والأخ الثالث هو الفونس كونت بواتييه وتولوز. أنظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٤٩ ، حاشية ١، وأيضا جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص١٠ ، موموند: الحروب المقدسة، ج٢، ص٢٤٨

٤- الفلاندرز: هي بلاد الفلمنك وتعرف أيضا باسم الأراضي الواطئة، أنظر جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص٢٦ .

٥- Nangis, Op. cit., p. 445 .

وملك أرغونه بشمال أسبانيا[١] ، وملك اسكوسنا Askoosa وثوروك Thorok [٢]. وشارك فيها أيضا ملك برشلونة ويدعى ريداركون Raudarcon ويذكر العيني أن من بين من ساهم في الحملة ملك القوركب وهى بلاد الناقر [٣]، كما انخرط في سلك الحملة يوحنا كونت بريتاني[٤] ، وثيبوت Thepot ملك نافار، والفونس دى بريانا[٥] ، ودى مارشا De Marshard ودى سواسون De Sosson ، هذا فضلا عن عدد كبير من نساء أوروبا الشهيرات، ومنهن الأميرة أوسفور Osfor أميرة بواتيه وتولوز زوجة الأمير الفونس، وملكة شامبانيا [٦]، بالإضافة إلى زوجة ابن ولي عهد انجلترا وهى انجليزية الأصل وجيهان Gihan ملكة الفلاندرز والكونتيسة دى بريتانى وإزابيلا دى فرانس Isabella de France واميليا دى كورتناى Imelia de Cortanay [٧]وغيرها.

١- اسم هذا الملك جيمس صاحب أراجون James of Aragon

أنظر : Camb. Med Hist., vol. VI, p. 415.

٢- لم يستدل من المصادر والمراجع المتداولة ما يساعد على تعيين المقصود باسمى اسكوسنا وثوروك وللمزيد بهذا الشأن أنظر المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٦٤، حاشية ٥

٣- القوركب «بلاد الناقر» هى اسم مقاطعة تقع على أحد الأنهار بإيطاليا ويسمى نهر ناقر أو نيقار Nicar وللمزيد أنظر Camb. Med. Hist., vol. II, p. 989

و عن العينى، عقد الجمان، ج ٢، ق٣، ورقة ٥٨٨ المقريزى، السلوك ج١، ق٢، ص٣٦٥، ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٩٠-٢٩١، أبو المحاسن المنهل الصافى، ج٣، ورقة ٢٠٥ أ، ابن القنفذ، الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية، ص١٣١.

٤- هو أحد كبار رجال الاقطاع في فرنسا، وقد شهدت عهد الكونتية انحراط عدد كبير من كبار سادتها في حملة لويس على مصر، مما أعطى لويس الفرصة للتخلص من ثورات سلالها التي كانت أن تطيح بعرشه وتنوا، وللمزيد أنظر جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر، ص٤٣

٥- Nangis, p. 439

وأيضا موبرونه، الحروب المقدسة، ج٢، ص٢١٧

٦- هي جين دى نافار Jeane de Navane ملكة شامبانيا وزوجة فيليب الرابع الذى يعرف بفيليب الجميل. توفيت في ٢ أبريل ١٣٠٥م، وهى أم لويس العاشر ملك فرنسا بعد وفاة والده فيليب الجميل. أنظر Joinville, pp. 2-4, n2.

وأيضا : جوزيف نسيم، العدوان على مصر، ص٤٥

٧- Bordeaux, p. 440, Richard, Orient et Occident au moyenage a la contacts et relations, pp. 185-188; Billy, Op. cit., p. 22.

ويضيف المؤرخ هرقل مجموعة أخرى من افرنج الشرق الذين شاركوا في الحملة. فيذكر أنه عندما وصل لويس إلى تونس قدمت إليه من عكا أعداد كبيرة منهم ومعها امدادات ضخمة، وكذلك عدد كبير من السفن وقرابة اثنين وثلاثين فارساء. وقد قدموا جميعا ارضاءا للويس وما يبذله رغم شيخوخته في سبيل قضية الصليب المقدس [١]. وجدير بالذكر أن لويس حاول اصطحاب جوانفيل معه دون جدوى، إذ اعتذر جوانفل وتعلل بضرورة بقائه في فرنسا نظرا لما حل بالبلاد من متاعب في فترة تغيب لويس عنها[٢]. ويبدو أن اعتذار جوانفيل يرجع إلى تشاؤمه من أمر هذه الحملة كما سبق القول. أما المؤرخ وليم دى نانجى فقد انضم إلى صفوفها وتتميز روايته بصدقها ودقتها إلى حد بعيد حيث كان شاهد عيان لأحداث ذلك الزمان[٣].

ومهما يكن ، لقد كان أمر تجميع هذه القوات صعبا للغاية. وقد عانى لويس الأمرين بسبب تردد البعض في الانضمام إلى الحملة وتأخر إعداد المؤن. وعقد مجلسا عسكريا في باريس[٤] شرح فيه خطته ووجه نداء أن يكون تجمع القوات في ميناء ايجمورت [٥]. وقد أثبتت الأحداث عدم صدق النية لدى العديدين . هذا، في الوقت الذي كان فيه لويس يزداد حماسة ورغبة في القتال مما جعل البعض يتظاهر فقط بمشاركته في آماله من أجل القضية الصليبية ، ولكنهم في أعماقهم لم يكونوا يفكرون في الاشتراك في الحملة وهذا دليل بين على فتور الروح الصليبية بشكل واضح لدى أهل الغرب.

أما عن الموارد المالية لها فقد اختلفت نسبة الأموال والعتاد التي ساهمت بها دول الغرب، وكذلك نسبة الحصص التي اتفق على أن يسهم بها الأفراد القادرون . وكان قد اتفق على أن تسهم كنائس فرنسا في الحملة بمواردها المتعددة[٦]. كما دفع كبار رجالات فرنسا

١- Eracles, p. 458 .

٢- Archer and Kingsford, p. 40 .

٣- Eracles, Op. cit., p. 458 .

٤- Nangis, p. 445 .

٥- Liste de Chevaliers Croises avec St. Louis, p. 305

٦- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١ ، المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٠ .

من رجال الدين والدنيا الذين لم يشتركوا في الحملة بشخصهم المبالغ اللازمة من الضرائب والعشور. فكان الكرادلة يدفعون العشور، أما الأمراء والنبلاء وكبار التجار فكان عليهم توفير الأموال الخاصة بمصاريف الحملة لمدة طويلة . وهناك اشارات واضحة تفيد أن السيد دي فاليري De Vallery قد دفع مبلغا ضخما ، كما قدم عدداً كبيراً من الفرسان التابعين له. وعلى الرغم من ذلك فقد كان لويس يتوقع منه المزيد، بل اتهمه بالتباطؤ في تقديم هذه المساعدات . وقد دفع السيد راؤل دي سيتري Raol de Stray ، وكان رجلا ثريا ويحمل رتبة مارشال ١٦٪ من نسبة ما أسهمت به فرنسا من نفقات الحملة. ودفع المارشال لانكيلوت دي سان مارك Lancelot ١٤٪ من النفقات، أما السيد بيير دي دوليه Pierre de Dolant فقد دفع ١٢٪ من مصاريف الحملة ، وقد تم هذا بشكل رسمي هذا، بالإضافة إلى ٤٠٠ جنيه دفعها سرا على شكل تبرع للحملة [١] أما السيد دي كولار De Collar فقد دفع ١٢٪ من النفقات ، ودفع كل من السيد دي روا De Roi ومانفرات Manfrat ٤ آلاف جنيه، ودفع السيد دي ميولانك De Meolank والسيد أنوت دي فمانت Anout de Femant وغيرهم حصصهم كاملة من هذه المساعدات[٢]

وقد وردت اشارات عديدة تفيد أن بعض الملكات والأميرات والسيدات الشريفات بغرب أوروبا قد ساهمن – أيضا – في نفقات هذه الحملة. وكانت نسبة حصصهن كبيرة أعانت على تغطية نفقات الحملة ومتطلباتها ذهابا وعودة[٣]. أما الفرسان المسيحيون الذين قدموا من بلاد الشام للمساهمة فيها، فقد حملوا معهم ، هم أيضا، كميات ضخمة من الأموال والمؤن والأطعمة والأمتعة التي تلبي احتياجات الجند [٤]

١– المقصود بالجنيه هنا هو التورنوا الفرنسي، فمن المعروف أنه كان العملة المتداولة في فرنسا في ذلك العصر ويرجع اسم تورنوا إلى مدينة تورز Tours وقد استحدث لويس اثناء حكمه عملة ذهبية جديدة أسماها (التورنوا الكبير Gros Tournois تمييزا لها عن التورنوا العادي المعروف ، وقيمتها تساوى ١٢ وحدة منه ، أنظر

Grand Encyc; Art France, Numismatique , XVII, 1141 and Art Tournois, XXX I, p. 247

٢– أنظر الملحق رقم ١ بنشر الكتاب للجلس بهذه الاسهامات .

٣– Liste des Chevaliers , p. 305 .

٤– Eracles, p. 458 .

هكذا تم إعداد القوات والمصاريف اللازمة للحملة، ويذكر نانجي رواية غريبة مفادها أنه من بين الموارد المالية للحملة تلك التي بعث بها المستنصر صاحب تونس إلى لويس، إذ يقول «أن أرض تونس قدمت مساعدات كبيرة إلى ملك فرنسا من فرسان وجنود وأسلحة، مما كان له أكبر الأثر على عتاد الحملة، ولكن من الغريب أن جميع الأمراء والبارونات قد أصابهم التشاؤم من هذه المساعدات، وشعروا أن أمرا ليس فيه أي خير ولا مصلحة للفريق سوف يحدث لهم نظير هذه الأمدادات»[١]. وقد أكد المقريزي نفس الرواية قائلا «إن المستنصر أرسل لهم مبلغ ثمانين ألف دينار، وذلك عندما علم بنوايا لويس في غزو تونس، وأن لويس أخذ هذه الأموال قائلا لسفرة المستنصر أنها لن تثنيه عن عزمه في أخذ تونس»[٢].

وهاتان الروايتان فيهما الكثير من المبالغة، فرواية نانجي ترجع إلى تصوره بأن المراسلات المتبادلة بين المستنصر ولويس قبيل الحملة والخاصة بالديانة المسيحية إنما تحمل في طياتها تقديم الرشوة إلى لويس بهدف مهالأته، وقد أثبتنا من قبل أن مسألة دخول المستنصر في المسيحية كانت من وحي خيال المؤرخ وليس لها أي نصيب من الصحة، ولكن من غير المستبعد أن يستعمل المستنصر معهم كل الحيل والوسائل التي لاتثيرهم ضده، وكان كل هدفه اتقاء شر لويس وأخيه شارل، في الوقت الذي تعدد فيه خصوم المستنصر بالداخل وكانوا أشبه بالبركان الذي يمكن أن ينفجر فجأة في وجهه [٣].

وقد أكد موبرويند هذا الرأي قائلا «إن القديس لويس لما وصل تونس لم يخرج المستنصر لمقابلة المعسكر الفرنسي كوعده، بل أظهر اشارات واضحة تدل على عدم نيته في دخول المسيحية وأنه أوقعنا في شراكه». والأكثر من ذلك أن السلطان الحفصي هدد لويس بأنه سيذبح كل المسيحيين الموجودين على أرضه إن لم يبتعد فورا بقواته عن تونس.

فاذا كان هذا هو موقف المستنصر ورد فعله حيال تطور الأحداث، فكيف يمكن أن تتقبل هذه الرواية بارساله المعونات لأعدائه، وأما عن رواية المقريزي، فقد سبق القول أنه كان متحاملا على المستنصر، واتهمه في مرات عديدة بالخيانة لأن الصداقة بين حاكم مسيحي

١- Nangis, p. 478 .

٢- المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٤-٦٥٢٦٠

٣- موبرويند : الحروب المقدسة، ج٢، ص٢٥٢ .

وملك مسلم من وجهة نظره لايمكن أن يكون فيها خير المسلمين وذلك راجعا إلى التواء سياسة المستنصر وعدم وضوح خططه .

وخلاصة القول أن فكرة تقديم المستنصر المساعدة لعدوه بهدف الدخول في ديانته والتنازل عن عرشه أمر مستبعد تماما لايقبله العقل ولاتزيده الأحداث التى وقعت بعد ذلك، شأنه شأن ما أثير حول الاتصالات التي تمت قبل الحملة بين العاهلين المسلم والمسيحي بشأن دخول المستنصر في المسيحية ، وكل ما هنا لك أن المستنصر نجح فى التلاعب بهم ، وظهر أمام الجميع بمظهر المتحالف معه بينما كان يعمل لنفسه أولا وأخيرا

وفيما يتعلق بعدد القوات التى شاركت في الحملة من مشاة وفرسان ورماه فهناك ثمة تباين بين المصادر بهذا الخصوص ، فقد اتفقت غالبية المصادر على أن الفرسان بلغوا قرابة ستة آلاف فارس ، بينما يذكر البعض الآخر أن عددهم بلغ خمسة آلاف . أما ابن أبي زرع فقد ذهب بعيدا عن هذه النسبة ويذكر أنهم قرابة أربعين ألف فارس.

أما المشاة فكانوا قرابة ثلاثين ألفا، وبلغ عدد الرماة حوالي عشرة آلاف[١]. وأضاف ابن الفرات «أنه من بين عتاد الأسطول كان الفرسان التركيلية والجرخية»[٢] وأورد ابن خلدون اشارات دقيقة حول عدد السفن التي تكون منها الأسطول المسيحي قائلا أنها كانت قرابة ثلاثين سفينة كبيرة وسبع سفن أخرى خاصة بالفرنسيس [٣]. وأما السفينة الملكية التى كان لويس على ظهرها فكانت تسمى منتجوا[٤] Montjoie وبالرغم من أن فرنسا ليست دولة بحرية، فإن مملكة صقلية وجنوب ايطاليا قد لعبت دورا كبيرا في تزويد الحملة بالسفن اللازمة بكونها دولة بحرية من الطراز الأول، ولانضمام شارل كونت انجو حاكمها بأمر هذه الحملة تحقيقا لمطامعه الخاصة بالإضافة إلى الدور الخطير الذى لعبته مدينة جنوه في امداد هذه الحملة بالسفن والمؤن .

١- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص٢٧٨ ، المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٣٦

٢- ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج١٢ ، لوحة ٧٤ .

٣- ابن خلدون : العبر ، ج٦، ص٢٩٩ ، وراجع أيضا محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية، ص٦٢ ، حسن عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢ .

٤- Guizot, St. Louis , p. 135 .

يتضح مما سبق أن تلك الحملة قد أعد لها اعدادا كافيا في أوروبا نتيجة الدعاية القومية التي قام بها لويس، وكللت مساعيه بالنجاح في الوقت الذي كان يصعب فيه جمع كلمة المسيحيين من جديد للقيام بعمل عسكري موحد ضد المسلمين، وبعد أن اطمئن لويس إلى اكتمال الاستعدادات لحملته ، كانت الخطوة التالية هي إعلان الجميع بمكان وميعاد التجمع استعدادا للإبحار، وكان المكان هو ميناء ايجمورت، وموعد التجمع هناك خلال شهر مارس من عام ١٢٧٠م / شعبان ٦٦٨هـ أي مع بداية فصل الربيع. وقد واجه لويس الأمرين أثناء انتظاره لقادة الحملة فيما يتعلق بالموعد الذي حدده. فلم تكن النية في الحرب من أجل الصليب متوافرة تماما لدى الجميع [١] وكان احساس لويس بذلك سببا في ازدياد تدهور ظروفه الصحية والنفسية[٢] وأيضا أدى ذلك إلى تحمط الجميع في قراراتهم من حيث خط سير الحملة ووجهتها وموعد قيامها .

وعلى الرغم من اكتمال الاستعدادات داخل فرنسا ، لم يكن لويس قد قرر بعد هدف الحملة ووجهتها ، وعما إذا كان سيتجه صوب تونس ، أم صوب مصر، أم صوب بلاد الشام . حقيقة لقد كان الرأي الأرجح هو تونس لأن الطريق من ايجمورت إلى سردينيا كان قصيرا، وأما المسافة من سردينيا إلى تونس فكانت ثلاثة أيام. وكان يعتقد أنه باستيلائه على تونس سوف يتمكن من فرض حصار بري وبحري على مصر . وعلى الرغم من أن عددا غير قليل من المؤرخين العرب كان يتوقع أن وجهة الحملة ستكون مصر، إلا أن لويس ومن معه استبعدوا ذلك تماما لأن مصر كانت في عنفوان قوتها، وأن محاولة التوجه إليها مرة أخرى سيكون مصيرها الفشل واسترجاع الذكريات الأليمة التي تمنى لويس والمسيحيين جميعاً نسيانها. ولم يكن لويس يتصور أن يعود إليها في مثل هذه الظروف بالإضافة إلى سبب عسكري آخر وهو أن المسافة من سردينيا إلى مصر تقارب الثلاثين يوما. كما استبعد أيضا التوجه إلى بلاد الشام للحالة المتردية التي وصل إليها افرنج الشرق آنذاك.

وبعد أن اطمأن لويس إلى أحوال مملكته بأن يتولى أمرها في فترة غيابه فيسكونس كونت مدينة سان دنيس التي كانت تتمتع بعطف البابوية ورعايتها كما سبق القول، قرر مغادرة

١- حامد محمود غنيم. الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، ج٢، ص٧٢ .

٢- ريموند. الحروب المقدسة، ج٢، ص٣٥١

باريس برفقة قواته إلى اجمورت وكان مكان تجمع قادة ورجال الحملة. وقد اختلفت الآراء حول تاريخ ترك ماريس إلى اجمورت ، فمن قائل أن ذلك كان في نهاية شهر مارس عام ١٢٧٠م / ٤ شعبان ٦٦٨هـ ومنهم من قال انه في أوائل ابريل[١] ١٢٧٠م ٥ شعبان ٦٦٨هـ في حين ذكر البعض الآخر أن يوم الرحيل كان في ١٦ مارس من نفس العام [٢] / ٢٠ رجب ٦٦٨هـ، وعلى أي الأحوال اختار لويس بداية فصل الربيع حتى يكون ثمة متسع من الوقت أمامه في اجمورت ، يسمح بمقدم جميع القوات الصليبية. وكانت رغبته الأكيدة آنذاك أن يصل إلى تونس مع حلول فصل الصيف [٣]. حقيقة لم يفصح عن ذلك للجميع ، حيث أن قرار التوجه إلى تونس مالذات لم يصبح أمرا رسميا إلا بعد ترك اجمورت ، إلا أن هذا كان أشد ما يتمناه.

وبناء على ذلك بدأ لويس ورجاله رحلتهم من باريس إلى مدينة أعورموريتاس مرورا بمدينة بورجو Borgo إلى مدينة بيو كيربفيان Beau Kerdavan ، ثم عبروا نهر الرون إلى ميناء اجمورت، وانتظروا هناك لحين وصول بقية الامدادات .

وفي اجمورت وقعت بعض الاضطرابات بين الجنود وأهالي المدينة . يذكر نانجي « أنه حين وصلنا كانت أرض الميناء قد غطيت تماما، وأصبحت لاتجد شبرا واحدا خاليا من الجنود وأما البحر فقد كست السفن جانبا كبيرا منه، ومن الغريب أن بعض قادة السفن شكوا للويس أنهم ضلوا الطريق لأن المكان كان مجهولا بالنسبة لهم، وهم بالطبع ليسوا فرنسيين[٤]، وليست لديهم خبرة بأعمال الملاحة ويضيف قائلا «أنه في بداية الأمر وصل إلينا أهل المدينة، وأبدوا استعدادا طيبا لمساعدتنا» ، ويقول أنه من بين الأهالي كانت توجد شخصيات لها مكانتها تقابلت مع لويس وخولت له السلطة في طلب أي شئ من بلدة اجمورت .

١- Eracles, Op. cit., p. 458 . Nangis, p. 439 . Cf also . Richard, p. 185

وأيضا : موندروند : الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٢٥٠

٢- Guizot, St. Louis, p. 135 .

٣- Nangis, p. 477

٤- من المعروف أن عددا كبيرا من قادة هذه الحملة قد سبق لهم الاتجاه نحو اجمورت استعدادا للرحيل مع لويس صوب مصر في حملته المعروفة عام ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ لذا فمن المؤكد أن هذه الجماعة التي ضلت الطريق ليست من الفرنسيين ولاعلم لها بمسالك فرنسا . أنظر Joinville, p. 118

والأكثر من ذلك أن أهالي المدن المجاورة حين علموا بوصول الأسطول الصليبي توافدوا على لويس مبدين استعدادهم الكامل للمشاركة في الحملة. ويذكر أن هذا كله كان في بداية الأمر حيث وفد أيضا عدد كبير من الحجاج الذين كانوا في طريقهم لزيارة الأراضي المقدسة، وقد باركوا خطوات الحملة ودعوا لها بالنجاح ، ثم قدم إلى اجموررت عدد من التجار كانوا يتميزون بالدهاء والخبرة وقد مارسوا أنشطتهم التجارية من حيث عمليات البيع للجنود وكانوا يتألفون من عناصر متنافرة الأمر الذي أدى إلى وقوع صدامات عنيفة بينهم وبين الجنود استخدموا فيها الأسلحة والسيوف. وقد قتل في هذه المشاحنات ما يزيد عن مائة شخص من الصليبيين ومن أهالي المدينة، وبدأ الحزن يخيم على الجميع بسبب ذلك الحادث ، لدرجة أن الملك والبارونات عقدوا مجلسا استثنائيا في ١٧ أبريل ١٢٧٠م / ٢٣ شعبان ٦٦٨ هـ ناقشوا فيه ضرورة وضع حد لهذه التصرفات غير المسئولة حتى لو اضطرتهم الظروف إلى الرحيل بعيدا عن اجموررت [١]. وهذه اشارة واضحة إلى أن الأهالي كان لهم دور في هذه المشاحنات ، حيث يحاول البعض أن يلقي التهمة على جنود الحملة. ولو أن ذلك كان صحيحا لماذا أصر لويس على الرحيل بعيدا عن اجموررت والبحث عن مكان آخر أكثر أمنا وسلاما.

وإن دلت هذه الأحداث على شئ ، فإنما تدل على أن المصالح الخاصة كانت تطغى على الصالح العام وأن الروح الصليبية لم تعد قوية كما كانت في بداية الحركة. كما أنها سببت الكثير من المتاعب للحملة وهي لاتزال في بدايتها .

المهم، لقد بقي لويس داخل المكان الذي خصص له على الشاطئ محاطا بالحراس وهو في قلق بسبب تردي الأحوال بين جنوده وأهالي المدينة .

ويضيف نانجي أن هذه الأحداث زادت من تدهور صحة الملك لدرجة أنه لم يكن يفارق مكانه إلا نادرا ، وحتى في أحد الاحتفالات التي أقيم بمناسبة عيد القديس انسلم St. Anselm ٢١ أبريل ١٢٧٠م / ٢٧ شعبان ٦٦٨هـ ، كان لويس قابعا في مكانه حزيناً شاحبا. ولكنه في نهاية الأمر صمم على الخروج إلى مناطق الصراع الدائر بين جنوده وأهالي اجموررت ، وقد طلب من حراسه أن يصطحبوه إلى هناك حيث بذل جهودا كبيرة في سبيل تهدئة الأوضاع

---

١ Nangis, Op. cit., p. 441 , Cf. also Billy , Op. cit., p. 307 , Richard, Op. cit., p. 184 , Henry, Op. cit., p. 446 , Boulenger, Op. cit., p. 242

ونجح في ذلك بعد أن استمع الطرفان المتصارعان إلى نصيحته وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي [١].

ومما لاشك فيه أن تلك الأحداث قد أثرت بصورة أو بأخرى على الامكانيات المادية والمعنوية للحملة واعترى لويس القلق من جديد ، خاصة بعد التمرد الذى نشب بين بعض الفرق المشتركة في الحملة فكانت هذه هي الطامة الكبرى التي حلت بالحملة قبل أن تبدأ مسيرتها. ثم إن صحة لويس وظروفه وشيخوخته لم تكن تسمح له باحتواء الموقف وقد ظهرت بوادر التراجع والتردد بين كثير من المشتركين في الحملة ولم يوجد أحد من شارك فيها برغبة صادقة بهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة. وحتي أخوه شارل كونت انجو بدا عليه التردد واللامبالاة ولم يكن يفكر في أى شئ سوى في مصالحه الخاصة التي كانت أسمى من أى اعتبار آخر، والاستفادة قدر المستطاع من امكانيات الحملة لتحقيق أغراضه الشخصية

وقد استغرقت هذه الأحداث وفترة الاقامة في ميناء اجمورت ما يقرب من ثلاثة شهور من مارس حتي أوائل يوليو ١٢٧٠م / من شعبان إلى ذى القعدة ٦٦٨هـ ، الأمر الذى أدى إلى نفاد الكثير من امكانيات الحملة ومواردها المالية والتموينية. ويبدو أن لويس كان يدرك تماما الأضرار المترتبة على هذا التأخير ، مثلما حدث له من قبل في حملته على مصر حين اضطر للبقاء في ميناء قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨-١٢٤٩م) مما أدى إلى نفاد الأموال التي كان الصليبيون قد جمعوها ، واستهلاك المؤن والمهمات المكدسة[٢] على شاطئ الجزيرة . ولكنه في هذه المرة كان بين أمرين أحلاهما مر هل يبقى بميناء اجمورت على أمل وصول بقية القوات الصليبية ضمانا لتدعيم الحملة؟ أم يرحل بجيوشه والفتنة على أشدها بين جنوده ومظاهر الاحباط بادية ؟ لقد اختار الأمر الأول، ولذا طال انتظاره لرأب الصدع بين رجاله ، لأنه كان يدرك بحنكته السياسية خطورة الموقف إن رحل وقواته على هذه الحال من التمزق ، ولذلك طال انتظاره إلى أن قرر الرحيل من ميناء اجمورت يوم الأربعاء ٢ يوليو ١٢٧٠م / ١٠ ذى القعدة ٦٦٨هـ في ظروف صحية صعبة [٣] وهناك اشارات واضحة تفيد أن لويس لم يكن

١- Nangis, pp. 442-443 .

٢- جوزيف نسيم ، العدوان الصليبي على مصر، ص٦٨ ، ٧٦

٣- Joinville, Op. cit., pp. 76-79 .

يملك القرار الصحيح لأنه حتى ذلك اليوم لم يكن الأمر قد استقر تماما فيما يتعلق بوجهة الحملة، وعما إذا كانت تونس هي بيت القصيد [1]. والمهم أن الأوامر قد صدرت بالرحيل من اجمورت إلى جزيرة سردينيا . وفيما يتعلق بهذه المسألة اختلفت الآراء حول التوجه إلى سردينيا بالذات ، وعما إذا كانت تونس هي المحطة التالية أم غيرها. فثمة رأى يقول أن لويس قبل رحيله بعيدا عن اجمورت عقد مجلسا استشاريا قرر فيه أن تكون وجهة الحملة هي تونس، في حين ينكر البعض الآخر أن هذا القرار لم يتخذ في اجمورت بل في سردينيا. وهذه الأمور إن كانت تدل على شئ فإنما تدل على أن كهولة لويس جعلته يتخبط كثيرا في قراراته ومواقفه ويرتجل في اتخاذ خطواته ، مما جعل وجهة الحملة، وهو أمر في غاية الخطورة ، يخضع لمثل هذا التضارب في القرارات والمواقف [2].

وبناء على ما تقدم ، أبحر الجميع نحو سردينيا . ويصف متى أوف وستمنستر الرحلة إلى سردينيا وصفا دقيقا حيث ذكر أنه في بداية الأمر كان البحر هادئا والأمواج ساحرة والرياح جميلة، ولكن فجأة انقلبت الأوضاع رأسا على عقب وكان ذلك في ليلة الجمعة ٤ يوليو ١٢٧٠م / ١٣ ذى القعدة ٦٦٨هـ . إذ ساءت أحوال البحر ، وصارت الأمواج تتلاطم ذات اليمين وذات اليسار ، ولقسوة العاصفة وجدنا أن السفن بدأت تندفع بشدة في اتجاه عكس الرياح . واستمر الحال هكذا حتى صباح يوم السبت الموافق ٥ يوليو ١٢٧٠ (١٤ ذى القعدة ٦٦٨هـ) . إذ ازدادت الأحوال سوءا وأصاب الجميع حالة من الذعر واليأس ، بل فقدوا كل أمل في النجاة . ومع حلول ليل يوم الأحد التالي ٦ يوليو ١٢٧٠م (١٥ ذى القعدة ٦٦٨هـ) ازدادت العاصفة ، ولم يكن بوسعنا اضاءة المشاعل والمصابيح ، ولم يكن لدينا القدرة على رؤية المدى الذي نقصده ونحن في عرض البحر وفي ذلك الوقت بعث الملك برسالة عاجلة إلى قادة الحملة يطلب منهم جميعا التزام الهدوء والدعاء في الصلوات أملا في الخروج من هذه الأزمة. ولكن هذا لم يحد من زيادة الهرج والمرج داخل الأسطول. والأخطر من ذلك أن عددا غير قليل من كبار القادة والفرسان كانوا يتصارعون على استخدام قوارب النجاة هربا من الموت . ولكن مع صبيحة يوم الاثنين ٧ يوليو ١٢٧٠م (١٦ ذى القعدة ٦٦٨هـ) هدأت العاصفة قليلا، ومع حلول

١- Eracles, Op. cit., p. 458 .

٢- Archer and Kingsford , Op. cit., p. 401 .

الليل عادت الأوضاع إلى طبيعتها الأولى هادئة . وقد بلغ من شدة إعياء الجنود وخوفهم مما حدث أنهم لم يصدقوا أعينهم ، بعد طول العذاب وانتظار الموت فى كل لحظة، بأنهم أصبحوا على مقربة من سردينيا [١].

والجدير بالذكر أنه لم يكن بين القوات من يعلم مقدار المسافة التى قطعوها من إجمورت إلى سردينيا والزمن الذى استغرقته ، بل لم يكونوا يعرفون فى أى يوم هم فيه ولكن التعليمات صدرت إليهم صباح يوم الثلاثاء ٨ يوليو ١٢٧٠م / ١٧ ذى القعدة ٦٦٨ هـ بأنهم أصبحوا على مسافة قصيرة من قلعة كاستيان بسردينيا Castran Caster [٢] وطلب منهم لويس التاسع أن يشكروا الله الذى أنقذهم من الموت، وحرص على عدم ضياع سفنهم أو جنوحها بعيداً عن مسارها الطبيعى .

وحينما بلغ الأسطول جزيرة سردينيا بدأت تتوافد سفن أخرى قدمت للمشاركة فى الحملة ، وكان المفروض أن تلتقي بالأسطول في ميناء اجمورت [٣]. وحاول أولئك الذين التحقوا بالجيش الصليبى فى سردينيا تقديم الأعذار للويس بأن تأخرهم لايعنى ترددهم أو عدم اقتناعهم بالمشاركة في الحملة وأن ذلك كان نتيجة ظروف خارجة عن ارادتهم

وعلى أى حال ، استمرت اقامة الحملة في سردينيا حوالي أربعة أيام. وخلال تلك الفترة دخل على الملك لويس ابنه فيليب الثالث ومعه أحد فرسانه متقلدا سيفه ، وأشار على والده بضرورة العمل على عقد مجلس عسكرى طارئ لبحث الموقف واتخاذ القرارات النهائية الحاسمة[٤] ولكن الملك لم يفعل ذلك فورا ، ويبدو أن ابنه فيليب قد أحس أنه إذا طال الانتظار مثلما حدث فى اجمورت ، فسوف يؤدي ذلك إلى بداية ظهور اضطراب جديد لذا أشار على والده بهذه النصيحة تلافيا لمضاعفات قد تضر بالحملة.

١- Matt. of West., vol II, p. 45 .

٢- قلعة كاستيان قلعة بجنوب ايطاليا تقع ضمن أملاك شارل الانجوى وقد وردت احيانا باسم Castro أنظر Jsovaga

Camb. Med Hist., vol II, pp. 382-390 .

٣- Nangis, Op. cit., p. 441 .

٤- Nangis, pp. 442-443 .

لقد كانت تلك الظروف المحيطة بالحملة وما تعرضت له من متاعب منذ وصولها إلى جمورت مدعاة لحدوث أكثر من تمرد بين صفوف الجيش، ولكن يبدو أن لويس شعر بقدر من التفاؤل وهو بالقرب من أملاك أخيه شارل صاحب انجو، خصوصا بعد وصول باقي القوات فتفقد اسطوله واطمأن إلى أحوال الجند. ويبدو أنه أغمض عينيه عن الكثير من الحقائق الأليمة التي كشفت عنها تلك الصراعات التي احتدمت بين الجنود وبعضهم البعض. وترتب على ذلك أن انتشرت المجاعة وتفشى المرض بينهم، ولكن لويس لم يعمل حسابا لكل ذلك. ففي أثناء الانتظار في سردينيا يروي نانجي «أن الحملة واجهت الأمرين حيث قلت الأقوات لدرجة أنه أوشكت أن تحدث بيننا مجاعة كبرى، وأصبح الدمار يهددنا من كل جانب، ولكن رغم هذه المعاناة صدرت إلينا الأوامر بالرحيل بعيدا عن سردينيا في اتجاه تونس، وختير يوم الثلاثاء ١٥ يوليو ١٢٧٠م (ذي القعدة ٦٦٨هـ) موعدا للابحار»[١] ومن الغريب أنه في تلك اللحظة التي اتفق فيها الجميع على القرار الحاسم بالتوجه إلى تونس، فوجئ لويس بأن أخيه شارل يعتذر عن الرحيل معه بحجة أن مصالحه الخاصة بمملكته تتطلب وجوده فيها . وفي حقيقة الأمر أن هذا السبب لايتعارض مع مصالحه الخاصة على الاطلاق، بل فيه كل الفائدة لشارل إذ أنه فرصة طيبة لكي يستعيد قبضته على الصقليين المتمردين عليه وعلى حقوقه . لذا فهو سبب لايعتد به ولا أساس له من الصحة ، لأن السبب الحقيقي هو أنه أراد أن يكرس كل جهده للانتقام من بيزنطة وحلفائها . وكان يطمع في فرض سيطرته على كل أملاك الامبراطور البيزنطي باليولوجوس (١٢٥٩-١٢٨٢م) لذا أراد أن يحقق كسبا مزدوجا عن طريق زج أخيه لويس في مهمة احتلال تونس والتفرغ هو لتوسيع ممتلكاته ضد بيزنطة ، مستعملا في ذلك دهاءه السياسي عن طريق الاستفادة من هذا الحشد الهائل للقوات الصليبية لاحتلال تونس. وقد تزايدت خطورة شارل ضد بيزنطة لدرجة أن الامبراطور ميخائيل عرض على البابا الروماني خضوع الكنيسة البيزنطية له مقابل صرف شارل عن أملاكه والدليل على ذلك ما بعثه الامبراطور ميخائيل إلى الملك لويس التاسع وهو على حصار تونس يستغيث به ضد نشاط أخيه المتزايد وتهديداته لبيزنطة [٢].

١- Eracles, Op. cit., p. 458 , Matt, of West ., vol II, p. 450; Nangis, p. 441 , Cf also Archer and Kingsford. p. 401

٢- أنظر Guizot, St. Louis, p. 138 .

وعلى العموم فقد كانت عدم مصاحبة شارل لأخيه لويس في تلك الحملة لها أسوأ الأثر على الصليبيين حيث كان شارل يشكل ضلعا أساسيا فيها

ويرى العديد من المؤرخين اللاتين أن لويس تعجل كثيرا في قرار الابحار نحو تونس لقربها من سردينيا، وأنه كان الأولى به أن يعيد تنظيم صفوفه ويتفادى مشكلة قلة الأقوات التي نجمت عن طول الانتظار بميناء لجمورت وتأخر وصول باقي الامدادات ، بالإضافة إلى انتشار المرض بين رجاله نتيجة الشدائد التي واجهتهم أثناء ابحارهم من لجمورت إلى سردينيا . لقد عاد كل هذا بكثير من الضرر على الحملة ، وأدى إلى حدوث الفوضى بين رجال الجيش وهبوط الروح المعنوية لديهم وهي أهم سلاح للمحارب

وكان على لويس اعادة تنظيم صفوفه من جديد قبل اتخاذ قرار سريع بتحديد وجهة الحملة وتاريخ الابحار ولكنه لم يهتم كثيرا بكل هذه الازمات

ويتساءل نانجي قائلا « ولماذا العجلة والمسافة بين سردينيا وتونس لاتتعدى ثلاثة أيام[١]؟» وعلى أي الأحوال فإنه من الواضح أن هذه الظروف شكلت عنصرا هاما في اضمحلال الحملة وتعرضها للفشل الذريع الذي بدرت بوادره قبل أن تطأ أرض تونس.

وكيفما كان الأمر ، فقد استأنف الصليبيون رحلتهم في عرض البحر من سردينيا نحو تونس ، وعندما ابتعدوا عن سردينيا بمسافة ٠٠ ميل كان الاجهاد قد بدأ عليهم ، وفوجئوا بأن مرضاً قد بدأ يستشرى بينهم واستمر الحال هكذا حتى أصبحوا على مسافة عشرة أميال من تونس ، وقد تمالك الجميع أنفسهم خاصة كلما اقتربوا من الشاطئ التونسي ، وفجأة هبت رياح عاصفة بالقرب من تونس مما ضاعف من تهالكهم ، وكانوا لايزالوا داخل سفنهم ، وبدأت أعباء المرض تزداد وتتضح وقد أحيط لويس وهو في سفينته الملكية بكل هذا، وتأكدت الأنباء بأن ما يقرب من ٥٢٥ جنديا أصبحوا في حالة شديدة من الأعياء. وأدرك لويس خطورة الموقف التي تمثلت في ضرورة مقاومة هذا المرض وتدبير المؤن اللازمة للحملة.

وحين بلغوا قرطاجنة انتعشت بصيص من الأمل في نفس لويس ، وفكر في ارسال عدد من جنوده لاستطلاع الأمر وتدبير احتياجات الجند من المؤن وسبل العلاج ولم يفكر قط في بث

١- Nangis , Op. cit., p. 441 , Cf also Henry , Op. cit., p 449 , Boulenger, Op. cit., p. 245

عيونه وجواسيسه التعرف على الاستعدادات العسكرية للتونسيين مما يدل على خطورة الموقف داخل أسطول الصليبيين وقتها، وانهماك لويس فى رأب الصدع بين جنوده .

وقبل الاستطراد فى الحديث عن اللحظات الأولى من اقتراب الحملة من أرض تونس ، يحسن استعراض أحد الآراء الذى ثار حول الوقت الذى استغرقته الرحلة البحرية من سردينيا إلى تونس . فيذكر هرقل أنهم وصلوا قرب تونس يوم ٢٤ يوليو ١٢٧٠م / ٢ ذى الحجة ٦٦٨هـ [١] أى أنهم قطعوا ما يقرب من ٩ أيام من سردينيا إلى تونس ، وهذه الرواية بعيدة عن الحقيقة لأن المسافة بحرا بسفن ووسائل النقل فى ذلك الزمان لاتزيد عن ثلاثة أيام، حتى لو كانوا قد تعرضوا لأى ظروف مناخية سيئة خلال الرحلة والواقع أننا لم نعثر على اشارات صريحة تفيد تعرضهم لعواصف شديدة اللهم إلا تلك العاصفة التى حدثت على بعد أقل من عشرة أميال من تونس ، ولم تستمر سوى بضع ساعات[٢] وبناء على ما تقدم، فإن الزمن الذى قطعته الحملة من سردينيا إلى تونس لم يزد عن ثلاثة أيام، وهذا ما سنكتشف عنه السطور التالية.

وعلى أى حال، بعد أن اطمأن لويس إلى سير الأمور قرب قرطاجنة تواترت الأخبار بعدم وجود عائق يمنع دون نزول الجنود متخفين فى زى تجار تونس إلى البر لكى يبتاعوا ما يحتاجون إليه، وفعلا أرسل لويس عددا من جنده فى زوارق صغيرة متخفين فى زى أهالى تونس للقيام ببعض المهام التى كلفوا بها، والعمل على انقاذ المرضى المسيحيين ويذكر دنجى «لقد وصل بعضهم فعلا إلى قرطاجنة خلسة ، ووجدنا بعض المنازل الخاصة بالتجار التونسيين، وحين اقتربنا منهم يبدو أنهم اكتشفوا أمرنا، وكرهوا جدا وجودنا فوق أرضهم وبدأوا يخفون عنا كل شئ يمكن أن نبتاعه منهم»[٣]

أما كيف تم اكتشاف أمرهم ، فالأمر غاية فى البساطة ، حيث يجب ألا ننسى العلاقات التجارية المزدهرة التى كانت قائمة بالأمس القريب بين التونسيين والفرنسيين ، والصقليين

١- Emeles, Op. cit., pp. 458 .

٢- Nangis, Op. cit., p. 540 , Matt. of West., vol. II, p. 450

٣- Nangis, p. 540 . Cf. also Boulenger, Op. cit., p. 248

أيضا حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢ .

وغيرهم من العناصر التي تكون منها الجيش الصليبي. لذا ، فإنه ليس من الصعب على أهل تونس اكتشاف أمرهم وبسهولة، مما يدل على عقم الخطط التي كان يتبعها لويس ، وعدم تقديره لمثل هذه الأمور البديهية.

ونتيجة لكل هذه الظروف عقد لويس مجلسا عسكريا جديدا لتقليب الأمر على مختلف وجوهه قبل اتخاذ أي خطوة عسكرية حاسمة ضد مدينة قرطاجنة . واستقر الرأي على ارسال احدى عشرة سفينة صغيرة تقترب جدا من الشاطئ، على أن تبقى باقي السفن الكبيرة والسفينة الملكية بعيدا عن الشاطئ[١] ، وذلك لاستطلاع الأمر قبل الهجوم . ونتوقف هنيهة بينما لويس يستعد للنزول إلى الشاطئ، لنرى ماذا استجد من ظروف بالنسبة لتونس وبقية العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه وقتذاك. لقد أخطأ لويس في عدم تقديره للأمور وحسب قوة المسلمين. وكان رد فعل القوى الإسلامية في تونس وخارجها قويا جدا، حيث بدأت تونس بزيادة التحصينات العسكرية على حدود مدينة قرطاجنة وتعزيزها بالمقاومة الفعلية، كما حشدت أعدادا ضخمة من المقاتلين والسفن. ويذكر متى نوف وستمنستر «أننا قد ذهلنا جميعا وأصابنا اليأس عندما رأينا على بعد هذه الحشود الهائلة التي بانتظارنا ، وتملكنا من ملاكنا»[٢]. وهذه اشارة أخرى واضحة تنفي الاتهام الذي وجه إلى المستنصر بأنه كان متفقا مع المسيحيين ويسعى إلى كسب ودهم بالمراسلات والسفارات والهدايا[٣]. فالدولة الحفصية قد قامت على مبدأ الجهاد ورجالها هم ورثة الموحدين الذين قامت دولتهم على الجهاد السياسي والديني ضد المرابطين. هذا ، بالإضافة إلى أن طبيعة بلادهم وموقعها الاستراتيجي قد حتم عليهم أيضا الجهاد البحري والبري[٤]. لذا فليس من المستبعد على الإطلاق ورغم عدم وضوح سياسة المستنصر أن يجاهد التونسيين ضد الدخيل لحماية أراضيهم من عبثه. وقد ساعدهم على ذلك رد الفعل داخل مصر قلعة القوى الإسلامية، والتي كانت تخرج منها دائما صيحة الجهاد ضد الغزاة. فالجهاد كان عقيدة لها أثرها الفعال فيما أحرزه المصريون على أعدائهم

١- Nangis, p. 479 .

٢- Matt. of West ., vol . II, p. 450 .

٣- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٦٤-٣٦٥ .

٤- ابتسام مرعي، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، الاسكندرية، ١٩٨٤، ص ٢٧٤

من انتصارات فقي ابان الحملة على تونس لعبت مصر دورا هاما في الدعوة إلى الجهاد، وكانت الخطب والمواعظ الدينية التي تلقى من فوق المنابر لها أكبر الأثر في الحث على الجهاد ضد الغزاة ، مثلما حدث أثناء الحملة الصليبية على مصر ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ حين قام الجامع الأزهر بدور رئيسي في تنبيه الأذهان إلى الخطر الجاثم في أرض فلسطين ويمت خطب العلماء ورسائل الحكام بالآيات القرآنية «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم» ألا إن نصر الله قريب»[١]. كما كان لمصر دورها الحيوي في التحرك السريع لمجابهة أمر الحملة على تونس عسكريا فعلى الرغم من أن بيبرس كان مشغولا بأمر الصليبيين في بلاد الشام[٢]، إلا أنه بدأ على الفور في تحصين الثغور الاسلامية سواء في تونس عن طريق امداد المستنصر بالمؤن والعتاد وحث عربان برقة وأفريقيا على الوقوف بجوار المستنصر [٣]، أو في مصر عن طريق تحصين الثغور المصرية وعمارة الشواني والجسور الممتدة إلى دمياط خوفا من أن يقصدها الفرنج ثانية [٤].

وهناك رواية انفرد بها أحد المؤرخين المسلمين عن توجه الحملة إلى الاسكندرية ، وهذا أمر مستبعد ومفادها « أنه أثناء وجود بيبرس في بلاد الشام وصلته الأخبار بأن الفرنج حولوا وجهتهم من تونس نحو الاسكندرية بل أنهم تمكنوا فعلا من الاستيلاء على مركبين للمسلمين ، فعاد على الفور إلى الاسكندرية ودخلها في ١٨ شعبان ٦٦٨هـ (١٤ أبريل ١٢٧٠م)، وأمر بعمارة القناطر وتحصين البلاد»[٥] ولكن الخبر لم يكن أكيدا، لأنه طال

١- جوزيف نسيم، الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى ط١ ، الاسكندرية ، ١٩٨٦، ص٢٤

٢- ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩ ، ابن الفرات: تاريخ الدول ج١٢ ، لوحة ٢٧ ، راجع أيضا موترونو : الحروب المقدسة ، ج٢ ، ص٢٤٤

٣- العيني : عقد الجمان ، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٨٥ه

٤- واضح من روايات المؤرخين العرب المشارقة أن بيبرس كان يعتقد أن وجهة الحملة مصر وليس تونس، فلم ينس بعد حملة لويس على دمياط قبل ذلك التاريخ بحوالي ربع قرن. انظر المقريزي، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩٠

٥- تاريخ البرزالي ، ورقة ٦٢ أ

انتظره بها ولم يظهر أي أثر الفرنج . ومع ذلك بدأ في اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة . وفي الواقع أنه في هذه الأثناء كثرت الأقاويل والتكهنات بشأن خط سير الحملة فنظرا الهزيمة القاسية التي حلت بلويس في مصر من قبل ، جعلت الكثيرين يتوقعون ضرورة عودته للانتقام ومحو عار الهزيمة ، رغم أن بيبرس كان على يقين باستحالة حدوث هذا إلا أنه لم يتوان من تحصين الاسكندرية أو غيرها من السواحل المصرية التي كان يمكن أن يقصدها الفرنج فلم يدخر وسعا في تحصين كل من دمياط والاسكندرية، ومراسلة المستنصر وامداده بالمساعدات في نفس الوقت، ورغم كل هذه الاستعدادات ، فقد وصلته رسالة عاجلة من مندوب والي مدينة الاسكندرية يعلمه بأن الفرنج قصدوا المدينة وأنهم نزلوا البر، وأعلمه بعدم قدرته على التصدي لهم وعدم استطاعته في اخراج قطع الأسطول لمواجهة هذا الموقف وذلك لغياب المسئول عنه في مهمة رسمية فاستدعاه بيبرس على الفور وأصدر أوامره للأهالي بألا يفتح أحد حانوتا بعد المغرب وألا توقد نار في البلاد ليلا[1]. ثم توجه على فوره إلى دمياط ودخلها في يوم الأربعاء ٥ ذي القعدة ٦٦٨هـ / ٢٧ يونيو ١٢٧٠م[2] لانه كان يتوقع أن تكون دمياط هي مطمعهم الحقيقي أن أرادوا العودة أسوة بما حدث أثناء حملة لويس التاسع نفسه ومن قبلها حملة جان دي برين. ولكن الفرنج لم يقتربوا من دمياط ولا من الاسكندرية. وما حدث بخصوص الاسكندرية مجرد احتمالات وتخيلات بأن لويس- كما سبق القول- لابد أن يتوجه شطر مصر ليمحو عار الهزيمة التي منى بها من قبل. ولكن هذا الخبر ليس له أساس من الصحة ولم يفكر لويس في ذلك مطلقًا لأنه لم يغفل أن ميزان القوى في الصراع الدائر بين المسلمين و المسيحيين كان يتجه بشدة نحو مصر التي كانت تعيش أوج عصرها الذهبي لذا كانت فكرة التوجه إليها فكرة عقيمة لا جدوى من ورائها، رغم أن الآمال كانت تغمره للانتقام منها

وغير خاف أن الهدف الأساسي من توجهه إلي تونس هو الاستيلاء عليها، ثم الزحف عبر الصحراء العربية إلي القاهرة مباشرة لتحقيق حلمه القديم بالقضاء على معقل مصر العالم العربي الإسلامي ، ثم الاتجاه شمالا صوب الأراضي المقدسة لتحقيق باقي الأطماع الصليبية المعروفة.

١- المقريزي. السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٨٧-٥٨٨، أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٤٧-١٤٨ .

٢- ابن اياس : تاريخ مصر ، ص٨٧-٨٨ .

وبناء على ما تقدم، أدرك بيبرس أخيرا أن وجهة الحملة هي تونس وليست مصر، فلم يدخر وسعًا في توطيد موقف المستنصر ومساعدته(١)، ومن الغريب أنه في نفس الوقت لم يأل المستنصر جهدا في إصلاح أسوار المدينة وعمارة خزائنها بالحبوب كما بدأ في مضايقة التجار الفرنج في دولته وضيق عليهم سبل العيش، وشرع في عقد الاجتماعات العسكرية حين وصلته الأخبار الأكيدة برسو سفن العدو قبالة قرطاجنه، فبدأ في تنظيم خططه لاتخاذ أفضل الوسائل للتصدى لهم في الوقت الذي أخذ فيه الخطباء في المساجد في إلقاء الخطب الحماسية لشحذ همم الناس ضد العدو وبدأ عامة الشعب في ترديد الأبيات الشعرية التي كتبت في ذكرى أسر لويس بالمنصورة (٢).

وكان من بين الآراء العسكرية ما أشار إليه البعض بترك العدو في عرض البحر دون الاشتباك معه حتى تنفد ما لديه من ذخيرة وعتاد، فيضطر للعودة إلي بلاده، ولكن حذره البعض الآخر المستنصر بأنه أن تركه هكذا فربما ييأس من طول الانتظار فيضطر إلي الرحيل نحو ثغر آخر من الثغور التونسية أو الإسلامية عامة، وهذا ما لايرضاه المستنصر ولا التونسيين بوجه عام، لأنه أدرك ضرورة ابراز دوره كقائد مسلم حريص على مصلحة المسلمين في أي مكان ولهذا السبب رجح المستنصر الرأي الآخر الذي أشار بضرورة العمل على إعطاء لويس فرصة النزول إلي البر لكي يسهل الفتك به ويجدونه في مواجهة حاسمة.

وفي حقيقة الأمر ، فقد قام المستنصر بدور فعال في التصدى لهذه الخطوة من قبل الصليبيين، ولم يعتمد على قواته فحسب، بل وفدت عليه قوات من السودان الذي كان على علاقة طيبة بالمستنصر في العديد من المجالات سواء أكانت سياسية أم اقتصادية(٣) ، فكان

١- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢، راجع أيضا: حسن عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس، ص١١٢-١١٣

٢- محمد مزالي وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨١ .

٣- لقد أنشئت العديد من المراكز التجارية على طول الطريق من المغرب إلى السودان، وكانت مراكز نشطة اشتهرت بتجمع كميات كبيرة من الذهب وكانت تلك المراكز تقوم بتصدير الزيوت والقطن والعشب وبعض أنواع العطور والجلود وكان التجار يعودون من هناك محملين بالتبر والتابق والملح وللمزيد انظر

ابتسام مرعي: العلاقات بين العلاقة الموحدية والمشرق الإسلامي، ص٢٧٨

السودان من أول الدول الإسلامية التي بادرت بمساندته في مواجهة الغزو الصليبي. وفي هذا الصدد يروي متى أوف وستمنستر، أن الجنود السودانيين كانوا يحيطون بالشاطئ من كل جانب وكانوا يزأرون كالوحوش الضارية ليخطفونا. ومن شدة خبثهم فإنهم لم يشتركوا معنا في معركة حربية مباشرة، بل كانت المناوشات تجري من بعد، وكان علينا ألا نغفل عنهم ولو لدقيقة واحدة »[١]. ويضيف قائلا «أنه على الرغم من أن الفرنج لم يكونوا يعيرونهم اهتماما كبيرا، إلا أنهم لم يفكروا أن أخطارا جسيمة أخرى كانت تحيط بهم. ويقول المؤرخ الفرنسي مونروند مؤكدا رواية متى، «أننا حين وصلنا بالقرب من قرطاجنة، وأنه على الرغم من الآمال الكبيرة التي كانت بداخلنا تجاه المستنصر، إلا أنه أبدى غير ما كنا نتوقع منه، لأن كل هذه الأشواق والآمال التي منحنا إياها كانت حيلة منه وضعا أوقعنا فيه فهو لم يأت إلينا تنفيذا لوعده، بل أظهر كل ما هو عكس ذلك وهددنا بالذبح إن لم نبتعد حالا عن شواطئ بلاده»[٢]

وهذا دليل آخر على عدم صدق الرواية الخاصة بتودد المستنصر إلى لويس وعرضه الدخول في الديانة المسيحية وتسليم بلاده. ويتضح من هذا كله سوء التخطيط من قبل لويس، وتخبطه في قراراته حين علم بنوايا المستنصر الحقيقية. كما يتضح أن الهدف الديني لم يكن سوى ستارا أخفى وراءه رجال الحملة أطماعهم الحقيقية، لأنهم لو كانوا صادقين في نواياهم، ما اختاروا تونس هدفا لحملتهم، وما تخبطوا في قراراتهم أو ارتجلوا في تحركاتهم. وقد كان هذا واضحا تماما أمام أعين القوى الإسلامية العربية الأخرى مما أوجد ترابطا شديدا مع تونس في كفاحها ضد الصليبيين في الوقت الذي كان فيه ميزان القوى يتجه لصالح المسلمين، مما حتم على تونس أن تقوم بدور كبير في التصدي لهذه الحملة بصفة خاصة والجهاد ضد الصليبيين ببلاد المغرب بصفة عامة، على الرغم من المؤامرات والاضطرابات السياسية التي كانت تمر بها بلاد المغرب العربي وقتها مما يدل على ترابط فكرة الجهاد المشترك بين العرب ضد الصليبيين، سواء في مصر أو في بلاد الشام أو في المغرب العربي كله [٣]

١- Matt. of West., vol. II, p. 450.

٢- مونروند. الحروب المقدسة، ج٣، ص٢٥٢.

٣- جوزيف نسيم يوسف. الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، ص٢٢٨.

الفصل الثالث

وصول لويس التاسع إلى تونس

(١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذو القعدة ٦٦٨هـ)

وصول لويس التاسع قبالة قرطاجنة في ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذي القعدة ٦٦٨ هـ - مناقشة مختلف الآراء حول تاريخ وصول الحملة إلى تونس- سقوط قلعة قرطاجنة في قبضة الصليبيين ، والآثار المترتبة على ذلك- موقف المستنصر من الحملة والآثار السلبية التي ترتبت على سوء خططه- استعدادات الظاهر بيبرس لمواجهة جيوش الحملة واستئصال شأفتها داخل مصر وخارجها- بناء السريع للمعسكرات والأسوار الحامية داخل قرطاجنة - المناوشات العسكرية المتقطعة بين قوات لويس والمسلمين بتونس، ونتائجها

هكذا تمكن لويس من جمع شتات حملته والتقاط أنفاسه بعد وصوله قبالة مدينة قرطاجنة عقب الرحلة الصعبة التي واجهته هو وقواته من سردينيا إلى تونس ، وبات محتما عليه أن يعيد تقييم الموقف من جديد لمواجهة المأزق الذي وضعه فيه المستنصر. فقد ذكرنا من قبل أن لويس ومن معه من قادة الحملة قد أصابهم الذهول من التحدي السافر الذي أظهره المستنصر حيالهم، والذي كان مغايرا تماما للوعود التي قطعها على نفسه بتسليم بلاده لهم، وتحوله إلى الدين المسيحي كما ادعى بعض المؤرخين الغربيين. فقد كان ذلك الموقف سببا في حدوث اضطراب شديد بين صفوف الحملة ، لأن لويس كان قد عقد آمالا كبيرة على هذه الوعود.

ويبدو أن إعداده للحملة قد اعتمد إلى حد بعيد على المساعدات المزعومة من قبل صاحب تونس. لذا أصبحت الأمور أكثر تعقيدا ، خاصة وأن الملك الفرنسي قد واجه الأمرين من قلة الأقوات وانتشار الأمراض بين جنوده قبل أن يقترب من تونس ، وذلك بسبب طول الانتظار بميناء اجمورت ، وتأخر وصول الإمدادات التي كان قد اتفق عليها مع قادة أوروبا هذا ، فضلا

عن أن العواصف الشديدة التي واجهتهم في الطريق ، وسوء الأحوال الجوية، كان لها أكبر الأثر في وضوح الملل والاضطراب في صفوف الحملة ، وساعدت على انتشار الأمراض بين جنودها ، لذلك كان عليه أن يعمل على اعادة تقييم كل خططه في ضوء هذه المستجدات .

وقبل أن ستحول حديثنا عن الأحداث التي صاحبت نزول لويس وجنوده إلى قرطاجنة ، لابد أن نستعرض مختلف الآراء التي ثارت حول الميعاد الذي وصل فيه إلى تونس، فقد وردت اشارات عديدة متضاربة بهذا الخصوص إذا أوضحنا من قبل أن لويس عندما وصل مدينة قرطاجنة لم يحتلها على الفور بل أمضى بعض الوقت في عرض البحر قبل أن يقتحم المدينة. ولذا تعددت الآراء حول الوقت الذي نزلت فيه قواته إلى المدينة. ولم يقتصر الاختلاف في الآراء حول يوم الوصول ذاته، بل امتد ليشمل الشهر والسنة التي قامت فيها الحملة.

فيذكر المؤرخ الغربي وليم دي نانجي أن وصول القوات الصليبية إلى تونس كان يوم ١٨ يونيو ١٢٧٠ م / ٢٦ ذي القعدة ٦٦٨هـ [١]، في حين يؤكد ابن خلدون أن وصولهم كان آخر شهر ذي القعدة ٦٦٨هـ / ٢٢ يوليو ١٢٧٠م [٢] بينما يذكر هرقل أن وصولهم كان يوم ١٥ يوليو ١٢٧٠م / ٢٣ ذي القعدة ٦٦٨هـ ، وأن احتلالهم لقرطاجنة تم بعد ذلك بتسعة أيام أي يوم ٢٤ يوليو ١٢٧٠م ٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ[٣]، أما ابن أبي دينار فلم يحدد يوما معينا في شهر ذي القعدة ، بل ذكر أنه خلال هذا الشهر من عام ٦٦٨هـ / يونيو – يوليو ١٢٧٠م كان وصول القوات الصليبية قبالة تونس [٤].

في حين ذهبت طائفة أخرى من المؤرخين المسلمين والمسيحيين إلى أن وصول الحملة قبالة تونس كان في شهر ذي الحجة ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٧٠م. فيذكر ابن أبي زرع أنه في ٢٥

١- Nangis, Op. cit., p. 449 Cf also Richard, Op. cit., p. 184 , Baily , Op. cit., p. 309 , Boulenger , p. 247

٢- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١

٣- Eracles, Op. cit., p. 458 .

٤- ابن أبي دينار : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس، ص١٢٨ ، انظر أيضا : محمد الحبيب : في التاريخ، ص٢١٦

ذى الحجة ٦٦٨هـ / ١٧ أغسطس ١٢٧٠م كان وصول القوات الصليبية إلى تونس[١]. وقد اقترب معه من هذا التاريخ ابن القنفذ الذى يذكر أن نزول النصارى تونس كان يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة ٦٦٨هـ / ١٨ أغسطس ١٢٧٠م[٢]. وقد اتفق معهما المؤرخ الغربي رينو بأن وصولهم تونس كان خلال شهر أغسطس ١٢٧٠م / محرم - ذى الحجة ٦٦٨هـ دون تحديد اليوم [٣].

هذا ، في الوقت الذي اختلفت فيه طائفة أخرى من هؤلاء المؤرخين حول العام الذى وصلت فيه الحملة إلى تونس. فيذكر جوفروا دى بليبه Geoffroi de Beaulieu أن وصولهم تونس كان عام ١٢٦٤م / ٦٦٣هـ ، إذ يقول : «أنه الوقت الذى أتى بثمار الجهود التى بذلها البابا كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨م) من أجل انفاذ الحملة الجديدة التى كانت وجهتها تونس هو عام ١٢٦٤ (٦٦٣هـ)». فى حين يؤكد أبو الفدا أن وصولهم كان عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م دون تحديد لليوم أو الشهر[٥] وقد اتفق معه جان جوانفيل الذى أورد أن تاريخ الحملة كان عام ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ دون ذكر تاريخ وصولهم تونس بالتحديد ، على الرغم من ثراء كتاباته حول سيرة لويس وحملتيه على مصر والشام. إلا أن عدم مصاحبته الحملة ضد تونس لم يتح له الفرصة للحديث عنها بأسباب [٦].

ومن الغريب أن هذا التضارب لم يكن بين المؤرخين وحدهم ، بل وجد التضارب في روايات المؤرخ الواحد بهذا الشأن. فيذكر المقريزى مثلاً أنه في عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م - ١٢٦٢م جمع الفرنسيس عساكره يريد أخذ دمياط فأشار عليه أصحابه بقصد تونس أولا ليسهل له أخذ

١- ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، ص٢٧٨

٢- ابن القنفذ (أبو العباس أحمد بن حسين بن على بن الخطيب ابن القنفذ القسنطيني) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية تونس ١٩٦٨ ، ص١٣١ .

٣- Reinaud , Op. cit , p. 519

٤- Beaulieu , Vita Ludovici noni , R. H.G.F. , t. xx, p. 20

٥- أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٢ ، ص١٦٦ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٣١٩

٦- Joinville, Op. cit., p. 299

دمياط بعد ذلك ، فسار إلى تونس وأشرف على أخذها»[١]. وقد أيده في روايته الكتبي [٢]، عندما قال إن تاريخ تلك الحملة هو عام ٦٦٠هـ ويتفق بهذا التاريخ عدد غير قليل من المؤرخين المسلمين. فيذكر أبو المحاسن «أنه في عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١-١٢٦٢م، نفيت نفس لويس تحدثه بالعودة إلى البلاد الإسلامية لأخذ ثأره مما جرى عليه بدمياط ، واهتم لذلك اهتماما كبيرا ، وفي سنة ستين وستمائة قصد السواحل المصرية فقيل له إن قصدت مصر ربما يجرى لك مثل المرة الأولى والأحسن أن تقصد تونس وكان ملكها يومئذ محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر »[٣]. ويذكر المقريزي في رواية أخرى عن حملة تونس أنه «في عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢-١٢٦٣م ورد الخبر بمسير الفرنسيس وملوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العسكر»[٤]. وأيده في روايته هذه ابن الفرات الذي قال أنه في شهر محرم من عام ٦٦١هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٢٦٢م نزل الفرنج بقيادة الفرنسيس على تونس»[٥]. وبذلك زاد عن الآخرين بتحديد الشهر ثم عاد المقريزي وأورد أخبار الحملة مرة ثالثة ضمن أحداث عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٠م، حيث قصد الفرنسيس ومعه جماعة أخرى من ملوك النصارى تونس، فاستعد له السلطان أبوعبدالله المستنصر ملك تونس ....»[٦].

وعلى أي الأحوال يعتبر التحديد الزمني الذي أورده المؤرخ الغربي وليم دي نانجي ومن اتفق معه من المؤرخين المسيحيين والمسلمين من أن تاريخ الحملة كان ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذي القعدة عام ٦٦٨هـ هو أدق ميقات لها وذلك لأنه كان معاصرا للحملة وشاهد عيان لها ، وتسمت روايته بالصدق والواقعية ، لأن يوم ١٨ يوليو وهو يوم الوصول قبالة تونس يطابق إلى حد كبير المدة التي يمكن أن يقطعها الأسطول من سردينيا إلى تونس والتي تقترب من ثلاثة

١- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٢ .

٢- الكتبي: فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٢-٨٤

٣- أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٢ ، ورقة ٥٢٠

٤- المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٠٩ .

٥- ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج١١، لوحة ٣٧ ، ج١٢ ، لوحة ٧٤

٦- المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩٢ ، أنظر أيضا

Reinaud , Op. cit. p. 516 , Archer and kingsford, p. 401 Sejor Saint Louis , pp. 155-107

أيام حيث كان مغادرتهم سردينيا يوم ١٥ يوليو مع احتساب الفترة التي قامت فيها العاصفة والتي لم تزد عن بضع ساعات وهذا يجعل وصولهم يوم ١٨ يوليو تاريخا مقبولا[١]، والدليل على ذلك أنه بعد هذا التاريخ بأسبوع بدأت المناوشات بين الطرفين، ويطابق هذا رغبة لويس في اختيار فصل الصيف موعدا لهذه الحملة[٢].

وإلى جانب هذه الطائفة من المؤرخين وجد عدد آخر منهم مروا مرور الكرام حول توقيت الحملة [٣] الأمر الذي أوجد تضاربا بين روايات الجميع حول المدة التي قطعتها الحملة في تونس أيضا .

وإذا كانت المصادر العربية والأجنبية، قد اختلفت حول تاريخ الحملة فقد اختلفت أيضا حول اسم حاكم مصر آنذاك . فيذكر ابن إياس أنه وردت أنباء عن حملة جديدة للويس بعد كسرته في دمياط وذلك زمن الخليفة المنصور . يقول «إن ملك فرنسا لما اعتقل بدار ابن لقمان كاتب السر وتولى عقابه الطواشي صبيح الفاطمي .. إلى أن افتدى نفسه وأقاربه وحلفوا إيمانا عظيما بألا يتعدى على بلاد المسلمين إلا أنه بعد ذلك حدثته نفسه بالعودة إلى أخذ مصر رغم أنه كان يدفع الأموال للملك المعز أيبك ، فجمع العساكر وصنع المراكب الكثيرة وقصد العودة لأخذ دمياط فلما بلغ المنصور ذلك جمع الأمراء وضربوا المشورة فالتقى أهل الرأي على أن يرسلوا إليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد والحط عليه»[٤] وهذه الرواية

١- Nangis, Op. cit. p. 449 .

٢- روى نانجي أن لويس التاسع قد ذكر صراحة للسفارة التي أرسلها المستنصر إليه قبل قدوم الحملة إلى تونس «أنني قد قررت أن أحضر إلى بلدكم لأنظم أموره وسيكون ميعاد حضوري في فصل الصيف في شهر أغسطس حتى أتمكن من جمع محاصيل هذه البلاد في هذا الشهر». للمزيد أنظر Nangis. Op. cit., p. 449

٣- Wiegler, Infidel Emperor, p. 317 , Chartres, R. H. G. F, t XX, p. 36 , St. Pathus, R. H. G. F, p. 67 , Anonymous, Gesta Sancti Ludovici Nom , R. H. G. F, t. , XX, p. 657 .

٤ – بعد مقتل المعز عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك بتدبير من زوجه شجر الدر تولى بعده ابنه الملك المنصور نور الدين علي وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاما وابتدأ ولايته يوم ٢٦ ربيع أول ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، إلى أن ثارت المشاكل بينه وبين الأمير سيف الدين قطز، وانتهى الأمر بالتخلص من المنصور وتولية قطز الحكم في ٦٥٨هـ / ١٢٥٦م أي أن تولية المنصور وعزله كانا قبل أحداث هذه الحملة بما يزيد عن اثنتي =

ليس لها أي أساس من الصحة لأن المرة الوحيدة التي فكر فيها لويس العودة لمهاجمة المسلمين في دمياط ثم حول وجهته إلى تونس كانت زمن الطبقة الظاهر بيبرس وليس على عهد المنصور بن المعز أيبك. وأما إذا كان ابن اياس يقصد المنصور خليل ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب من زوجه شجر الدر فإنه قد جانب الحقيقة أيضا لأنه مات وهو طفلا في حياة أبيه الصالح نجم الدين [1]. وغير معقول أن يكون المقصود هو المنصور سيف الدين قلاوون والد الأشرف خليل لأنه جاء في تاريخ لاحق لايتمشى مع تسلسل الأحداث .

وكيفما كان الأمر، فبعد وصول لويس قبالة قرطاجنة أصبح شغله الشاغل في بداية الأمر، أن يعمل على علاج مرضاه الذين بدأ المرض يستشرى بينهم وينهك قواهم. فقد ذكرنا أنه أرسل عددا من رجاله الذين تخفوا في زى تجار تونس العمل على شراء احتياجاتهم . وبعد عودة هؤلاء إلى لويس يفيدونه باكتشاف أمرهم ، صمم لويس على توسيع نطاق هذه البعثات ونزل هؤلاء بصورة علنية ، محاولين ارغام الأهالي أن يبيعوا لهم ما يحتاجونه . وقد تصدى لهم التجار التونسة ورفضوا امدادهم بالمؤن أو الاسعافات اللازمة لعلاج مرضاهم ويشير نانجي أن هؤلاء الجنود رجعوا إلى قائدهم وهم في شدة الحنق والغيظ من أهالي قرطاجنة

= عشر عاما والمزيد أنظر المقريزي السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج٧، ص٤٢ ، ابن اياس تاريخ مصر ، ج١ ، ص٨٧-٨٨ ويلاحظ أن رواية ابن اياس تضمنت بعض الاخطاء التاريخي إذ ورد فيها أن ابن لقمان كان كاتب السر والحقيقة أنه كان يشغل منصب قاضي القضاة بالديار المصرية كما جاء أن الذي تولى حراسة لويس في أسره هو صبيح القاطمي، والحقيقة أنه كان يعرف باسم صبيح المعظمي نسبة إلى للمعظم توران شاه آخر ملوك الدولة الأيوبية في مصر

١- من المعروف أنه بعد موت المعظم تورانشاه آخر ملوك الدولة الأيوبية عهدت شجر الدر بزمام الأمور إلى الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي، ولم تترك له السلطة المطلقة في كل شئ ، بل كانت شريكا له في الحكم ولاتقضي أمرا إلا بالرجوع إليها بالإضافة إلى أن كل التوقيعات كان تتم باسمها وبصورتها عليها وكتب بجوارها والدة خليل، وهو المنصور خليل ابنها من الصالح نجم الدين ، مما يدل على دهائها وسعة حيلتها بإضفاء صفة الشرعية على حكمها والمزيد أيضا الفيومي نثر الجمان، ج٢، ورقة ٢٢ أ ، ب، أبو المحاسن النجوم ، ج٦ ، ص٣٦٤ ، ابن واصل . مفرج الكروب، ج٢ ، ص٢٧٣ ، النويري، نهاية الأرب ، ج٢٧ ، لوحة ٩٥-٩٦ ، السخاوي، تحفة الأحباب ، ورقة ٧٢-٧٣ ، راجع أيضا . جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام ص١٤١ ، حامد غنيم الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ص١٢-١٣

ويبدو أن الأمور حتى ذلك الحين قد اتسمت بالطابع السلمي، ولم يتعرض هؤلاء لأي محاولة اعتداء من قبل أهل تونس، ويرجع هذا إلى طبيعة العلاقات بين التونسيين والفرنج من قبل حقيقة أن نواياهم في هذه المرة كانت عدائية ولكن المصادر لم تشر حتى ذلك الحين بوقوع اشتباكات بينهما، وقد اضطر الجنود إلى بذل المحاولات الممكنة للحصول على ما يحتاجونه ولكن دون جدوى حيث قام التجار التونسيين بنقل بضائعهم خارج مدينة قرطاجنة على الابيعوهم اياها[١]. وأمام تدهور الموقف ، وفشل خطة لويس في اجبار الأهالي على امدادهم بما يحتاجونه عقد مجلسا جديدا لمناقشة الموضوع من مختلف جوانبه والتوصل إلى أفضل سبل للخلاص من هذا المأزق . وكان الملك والبارونات متألمين من هذا الوضع ،وقد أبدى أحد كبار الفرسان ويدعى بيير شامبليون Pexene de Champilion استياءه وغضبه الشديدين وأقسم أمام الملك أنه كان باستطاعتهم أن يفتكوا بهؤلاء وأن يجبروهم على بيع الأشياء الخاصة بهم ولكننا توقفنا عن هذا للعلاقات الطيبة والمودة التي بين الملك وهؤلاء القوم »[٢] وقد أيده في هذا عدد من المارشالات والفرسان الآخرين عندما قالوا له « أن أفضل الوسائل التي يمكن اللجوء إليها فيما بعد هي استخدام القوة المسلحة دون رحمة»، ويبدو أن الملك لويس كانت لاتزال لديه بعض الآمال في تغير موقف المستنصر ، وأن يوافق على تسليم بلاده سلما وبدون اراقة للدماء ، وبناء على ذلك رفض الاقتراح الخاص بحمل السلاح مبكرا والتريث حتى تنجلي الأمور[٢]. ومن شدة حرص لويس على كسب أهل تونس إلى جانبه أنه بعث إليهم برسالة ودية حاول فيها اقناعهم بأنه لاشأن له ببني تحصينات عسكرية داخل قرطاجنة ، وإنما يرغب في

١- Nangis, p. 447 Matt. of West., p. 450 , Cf also Dury. Hist de France, t. 1, p. 366.

٢- Nangis, Op. cit., p. 445 , Chronique Anonyme finissant en 1286 , R. H. G. F. , t. XXI , pp. 84-86 , Eracles, p. 459 , Renaud. Op. cit., pp. 521-523 , Beaulieu, Vita Ludovici noni , R. H G.F., t. XX p. 21 , Cf also; Guizot, St. Louis, pp. 135-136

٣- من المعروف أن الرأي العام المسيحي كان قد عقد آمالا كبيرة على مصالف المستنصر مع الغرب المسيحي، وكان هذا تصورا خاطئا من وجهة نظرهم لأن المستنصر لم تكن علاقته الودية مع لويس تزيد عن نطاق المجاملة وانتقاء شره دون تقديم أية تنازلات من قبله وللمزيد أنظر

Michaud , Crois V I p. 20 , Hassall , France, p. 38 ; Miller , Hist de France , vol II, pp. 43-44

معالجة مرضاه وتقديم العناية الكافية لهم، وأن يوافق الأهالي على بيع كل الأشياء التي تحتاجها الحملة.

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على تدهور الموقف بين صفوف الحملة وازدياد المرض بين الجنود(١).

ولكن يبدو أن كل هذه المحاولات لم تأت بنتيجة إيجابية مع أهالي قرطاجنة ، الأمر الذي أثار الجند ضدهم. وكان الفرسان يرددون أمام الملك بأن أهالي تونس على استعداد لفعل أي شئ إلا التعامل معهم وأمام هذا الموقف اضطر الملك ، مرة أخرى، إلى إرسال مبعوثين من قبله لابتياع بعض الحاجيات وشراء المؤن اللازمة للجيش. فعلى الرغم من الاستعدادات الهائلة للحملة قبل رحيلها من إجمورت ، إلا أن طول الانتظار داخل إجمورت قد عاد بالكثير من الأضرار عليها إذ أضاع على الفرنج فرصة كبيرة لتوفير المؤن من جديد بعد نفاذ المخزون لديهم كما اضطروا إلى إنفاق الكثير من الأموال لتغطية متطلبات الجند أثناء وجودهم بإجمورت ثم سردينيا ، مما عاد بالضرر عليهم ، وكان كل هذا مدعاة للتوسيين للاستعداد لهم لمواجهتهم عسكريا واقتصاديا. وقد أدرك رجال الحملة ذلك، لدرجة أن الملك لويس فكر في عرض أشياء ثمينة للبيع ربما لم يكن يفكر مطلقا في بيعها من قبل، ليتسنى له الحصول على احتياجاته الملحة.

ويتضح من هذه الإشارة الحالة المتردية التي وصلت إليها الحملة قبل أن تبدأ بتنفيذ أي خطوة إيجابية ضد تونس ، كما أنها تكشف عن قسوة المجاعة التي ألمت بالجيش مما جعل لويس يضحي بكل ثمين وغال لإنقاذ جيشه من هذه المحنة. كل هذا يدل دلالة واضحة على أن لويس قد عقد آمالا كبيرة على المستنصر ، وأيضا على استتباب الأمور بين قواته، ولم يضع في حسبانه أنه بانتظاره كل هذا البلاء ، ولم يتصور أن يجعل منه المستنصر الهوية وأنه لم يكن صادق النية في أي وعد قطعه على نفسه. والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن لرجل محنك مثل لويس أن يتصور ببساطة وبلاهة كل ذلك ؟ والشئ المحقق أن الحمى الدينية داخل لويس لنشر الدين المسيحي في شمال أفريقيا جعلته مستغرق في أحلام اليقظة ويغمض عينيه عن الكثير من الحقائق الهامة التي تنفي وبشدة قبول المستنصر التواطؤ معه وتسليم ملكه.

١- ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج١٦، لوحة ٢٧ ، وأيضا: Nangis, p. 445

إليه وهذا، فضلا عن أنه لم يضع فى حسبانه عامل الخبث والدهاء الذى كان يتعامل به المستنصر مع خصومه ، فكانت النتيجة أنه أوقعه فى شراكه .

والمهم أن كل هذه المحاولات السلمية التي بذلها الصليبيون في استمالة أهل تونس إلى جانبهم قد باءت بالفشل وتيقنوا أن الأمور لن تحسم إلا بالقتال، وقد التمس الجميع من لويس السماح لهم بعدم الانتظار أكثر من ذلك والمبادرة باقتحام مدينة قرطاجنة ، كما أعلنوا لقائدهم أنهم سوف يتعاملون مع أهالي المدينة بأسلوبهم الخاص، وأقسموا على التنكيل بهم عقابا لهم على تعنتهم هذا[١]. فعلى الرغم من قصر المدة التي أمضتها الحملة قبالة تونس والتي لم تتعد أياما معدودات قبل الاشتباك العسكري، إلا أن التداعي والانهيار داخل صفوف الجيش الصليبي أدى إلى ازدياد خطورة الموقف .

وبناء على ما تقدم ، لم يجد لويس بدا من الانصياع لرغبة القادة بمهاجمة القلعة والعمل على احتلال مدينة قرطاجنة ، خاصة بعد أن تأكد من نوايا المستنصر وعدم تغير موقف الأهالي منهم. وتقول الرواية أنه دخل على معسكر لويس عدد من كبار الأمراء والبارونات والفرسان معلنين عن رغبتهم في تقدم بعض قطع الأسطول نحو القلعة ومحاصرتها من جهة البحر[٢]. وقد وافق لويس على ذلك ، وتم اعداد خطة محكمة للحصار. وفي يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٢٧٠م / ٣ ذو الحجة ٦٦٨هـ ، تقدمت القوات الصليبية نحو قلعة قرطاجنة وصدرت التعليمات بموعد الهجوم . ومن الغريب أنه على الرغم من أن صاحب تونس كان على علم بكل تلك الخطوات، إلا أن رد الفعل لديه كان سلبيا وتنقصه السرعة والحنكة لانقاذ الموقف وحماية تونس وفى اعتقادنا أن المستنصر لم يكن جاهلا بشئون الحكم والحرب والسياسة لكى يتهاون في حماية بلاده ويترك للفرنج الفرصة للاستيلاء على المدينة وهو على يقين بأنه سيتمكن بعد فترة من القضاء عليهم لعلمه بالحالة التي وصلت إليها جيوشهم نتيجة الأمراض وقلة المؤن. فكان يعد نفسه ليظهر أمام خصومه من بني مرين وبني عبد الواد بأنه المنقذ لتونس من الضياع ، وأنه أحق من الجميع بوراثة الموحدين وإلا فلماذا سكت المستنصر تاركا العدو يتقدم نحو البر، حيث كانت خطته التي اتفق عليها مع زعماء الأندلس والموحدين هي اعطاء

١- Nangis, pp. 448 , Beaulieu , Op. cit., p. 22 .

٢- Nangis, p. 448

الفرنج الفرصة للتقدم نحو البر حتى يسهل عليه تصيدهم لا لبتركهم يستولون على المدينة. أما الآراء التي أشارت بتركهم في البحر حتى تنفذ مؤنهم ويرحلوا ، فلم تلق أي تجاوب خشية أن يتجهوا إلى ثغر اسلامي آخر[١].

وبناء على ذلك ، صدرت الأوامر بحصار قلعة قرطاجنة الداخلة في البحر وقد ركز الفرنج حصارهم لها بحرا في الوقت الذي أغفل فيه المسلمون هذه الجهة، ووضعوا قوات قليلة لحصارها برا. وقد أشار نانجي ويؤيده في ذلك عدد من المؤرخين المسلمين أن «المستنصر كانت تنقصه الكفاءة العسكرية اللازمة لوضع خطة محكمة لحصار القلعة برا وبحرا. ويتساءل وكيف يهمل ذلك وهو يعلم بموقع المدينة بأكملها على الساحل». بل ذهب المؤرخون إلى ما هو أبعد من ذلك حيث قالوا أن هذا الاهمال من جانبه كاد يأتي على تونس بأكملها[٢]. وعلى هذا فقد تقدمت القوات الصليبية البحرية نحو القلعة واقتحمتها بسهولة دون وجود أي رد فعل اسلامي من داخلها . وتمكن البحارة الصليبيون من صعود القلعة واعتصموا بداخلها لساعات طويلة حتى يمنعوا أي محاولة أو رد فعل من قبل المسلمين لاستعادتها. ولم يكن عدد القتلى بين الطرفين كبيرا لاختلاف خطة كل منهما . وأسرع الأمراء والبارونات بعد ذلك بنقل أعداد كبيرة من المرضى والمصابين الفرنج للعمل على توفير الرعاية الصحية اللازمة إليهم. كذلك قتل عدد من التونسيين ممن كانوا داخل القلعة أو المحيطين بها، كما سقط عدد آخر من المسلمين أسرى في قبضة الفرنج مما يدل على سوء التخطيط العسكري من جانب المستنصر لمواجهة ذلك الموقف. وقد ترتب على سقوط القلعة بهذه السرعة دون تقديم تضحيات كثيرة من قبل الفرنج أثر على ارتفاع معنويات الصليبيين بصفة عامة ولويس على وجه الخصوص. وقد أصدر أوامره باليقظة التامة لأي مفاجأة من قبل المسلمين وأعلن لرجاله أنه ليس في نيته خلال الأيام القليلة التي أعقبت سقوط القلعة القيام بأي عمل عسكري آخر، وكان عليه تكريس جهوده للاستفادة من الأوضاع السائدة وقتها ، وعلاج المرضى الذين كان عددهم في تزايد مستمر. ويذكر نانجي أن هذه الخطوة العسكرية الناجحة التي اتبعها الصليبيون ترتب عليها

١- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢

٢- Nangis , p. 448 .

وأيضاً ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩١ ، أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٢ ، ورقة ٢٠٩ (ب)

استحواذهم على الأسلاب التي خلفها المسلمون وراءهم[1]. ويجب تناول هذه الرواية بحذر، فمن المعروف أن تلك المدينة كانت عبارة عن أطلال وغير آهلة بالسكان، فهي بقايا مدينة قرطاجنة القديمة، حتى الميناء التابع لها يبدو أنه أتى عليه وقت فقد فيها أهميته التي كان يتمتع بها في العصر القديم. لذا فمن المستبعد أن تكون بها مخلفات ذات قيمة، وأقصى ما يمكن الحصول عليه من الأسلاب آنذاك هو مخلفات الجند وبعض الأسلحة الخاصة بالحصار البري للقلعة.

ومهما يكن، فمن الأمور التي لايمكن انكارها أن الصليبيين بنجاحهم في الاستيلاء على قلعة قرطاجنة وطئوا أقدامهم فيها، وتمكنوا من تكوين فكرة دقيقة عن أحوال المعسكر الإسلامي ونقاط الضعف فيه. ولكن هذا لايعني التقليل من الجهد الذي بذله التونسيون في الدفاع عن بلدهم. حقيقة كان هناك قصور في خطتهم العسكرية، ولكنهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الأخطار التي حلت بهم. فيذكر متى أوف وستمنستر قائلا «أنه ما إن وصلنا تونس لم نتوقع أبدا أن يكون المسلمون قد أعدوا من السفن الحربية ما أرعبنا، وتيقنا من فشل خطتنا للاستيلاء على بلادهم» ثم يؤكد «أنه بلغ من كثرة الأساطيل الإسلامية أننا كنا نعجز عن رؤية جزيرة سردينيا التي كان من السهل علينا مشاهدتها ونحن على ساحل تونس»[2]. إذن هذه اشارة أكيدة عن الاستقرار والازدهار اللذين كانت تنعم بهما تونس، الأمر الذي كان يمكن أن يعينها على الصمود والدفاع عن القلعة. ويرجع سبب ضياعها إلى سوء التخطيط العسكري والتناقض الواضح في شخصية المستنصر وتصرفاته أولا وأخيرا. وأما عن رواية متى عندما قال إن من يقف على ساحل تونس يمكنه أن يرى جزيرة سردينيا، فهذا معنى مجازي مبالغ فيه لأنه لايعقل أن تكون المسافة بين سردينيا وتونس ثلاثة أيام ومع ذلك يمكن رؤيتها بالعين المجردة. ولعل المقصود بذلك أن تونس هي أقرب المناطق الإسلامية لجزيرة سردينيا.

والمهم أنه في صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٢٧٠م / ٥ ذي الحجة ٦٦٨هـ أي بعد سقوط القلعة بيومين أعاد المسلمون تنظيم جيوشهم، وأحاطوا بالقلعة من كل جانب وقد ارتفعت

١- Nangis, Op. cit., p. 448.

٢- Matt. of West., vol. II, p. 450.

معنوياتهم ورغبتهم في الاستشهاد من أجل انقاذها وقد انتاب الفرنج الهلع حيث أحاط بنا المسلمون وهم يصرخون عاليا بعبارات التهديد بأنهم سيفتكون بنا إن لم نرحل حالا عن أرضهم»[١]. ويتضح من عبارات التهديد هذه أنه لم يحدث صدام مسلح حقيقي بين الطرفين بعد سقوط القلعة ، بل اقتصر الأمر على المناورات وجس النبض والاستطلاع التي قصد منها التونسيون استفزاز الجيش الصليبي واجباره على الرحيل. أما بالنسبة للمستنصر فكان رد فعله أن أرسل عشرة من كبار الفرسان بهدف ابلاغ الفرنج المتحصنين داخل القلعة بضرورة الرحيل عنها حتى لايفتك بهم[٢]. ويبدو أن لويس لم يعبأ بهذه التهديدات حيث كانت خطته التالية هي الاستيلاء على ميناء قرطاجنة ، وهو أهم موقع بالمدينة لأن وصولهم إليه سيسهل عملية نزولهم إلى البر واحتلال المدينة بأكملها . والأخطر من ذلك أنه سيسهل أمر الاتصال بشارل كونت انجو شقيق لويس في صقلية، من أجل ارسال المساعدات والمؤن ويبدو أن عملية الاستيلاء على القلعة قد شجعتهم لاحراز المزيد من النجاح واتخاذ كافة التدابير اللازمة للاستفادة من ذلك الوضع وقد غابت عن ذهن المستنصر كل هذه الأمور أو لعله تجاهلها مما أثار ضده عددا كبيرا من ملوك المسلمين الذين اتهموه بالتخاذل والتفريط في بلاده. وأمام تطور الأمور بهذه الصورة أدرك المستنصر صعوبة الموقف ، وأن المشكلة لم تعد تقتصر على ضياع القلعة ، بل امتدت إلى مسألة الدفاع عن الميناء ثم المدينة بأكملها . ولم يضيع الصليبيون وقتا في سبيل الاستيلاء على الميناء فبمجرد صدور الأوامر من لويس بهذا الخصوص ، تقدمت القوات الصليبية وحاصرت الميناء من كل جانب ، وبينما كانت جيوش المستنصر في سبات عميق ، ولم يحسبوا لعنصر الوقت والمباغتة أي حساب ، ولم يتعظ المستنصر من سقوط القلعة في قبضة الفرنج بهذه السرعة ، مما أثار ضده فريق كبير من المؤرخين المسلمين الذين اتهموه بالتخاذل والضعف [٣]. والدليل على ذلك ، أن عملية الاستيلاء على الميناء لم تستغرق الوقت المتوقع لها، بل تمت أسرع من كل التوقعات لدرجة أن لويس

١- Nangis, Op. cit., p. 449

وأيضا موثروند : الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٢-٣٥٤ .

٢- Nangis, p. 449 .

٣- Reinaud, Op. cit., p. 517 ; Nangis, Op. cit., p. 448 . Cf also Michaud, Crois VI , p. 20 , Sejor , Op. cit., pp. 155-156 .

نفسه لم يصدق الأنباء التي وصلته بهذا الشأن ويقول نانجي «أنه ذهل في البداية ، ثم ظهرت على وجهه بعد ذلك أسارير الفرح» وأعلن على لسانه أنه لم يكن يتصور أن يتمكنوا بهذه السرعة من احتلاله وأنه قصد من هذه المحاولة الجادة تهيئة الظروف وجس النبض لدى المسلمين، وأن أقصى ما كان يتمناه أن يوفق جنوده في انزال بعض القوات إلى المدينة لاحضار حاجياتهم »[1]. أما عن التفاصيل العسكرية لاحتلال ميناء قرطاجنة ، فلم تسعفنا المصادر من عربية وأجنبية بالكثير منها سوى تلك الاشارات المقتضبة التي وردت على لسان نانجي بتقدم عدد كبير من الفرنج نحو الميناء وأنهم لم يجدوا أي رد فعل يحول دون احتلالهم له[2].

بعد ذلك عقد لويس مجلسا طارئا حضره الأمراء والبارونات ، وقد غمرت الجميع الفرحة والتفاؤل لهذه الأنباء. ويقول نانجي «أنه حضر هذا الاجتماع وشاهد لويس يتهامس مع بعض المقربين ولايدري حول أي شئ دار الحديث. ولكنه يرجح أنها مشاورات خاصة حول أفضل السبل الواجب اتخاذها للحفاظ على مكاسبهم العسكرية التي أحرزوها على حساب المسلمين». وقد دارت مناقشات علنية داخل المجلس ويقول نانجي «أنه لم يكن هناك أي خلاف بين المجتمعين فيما يتعلق بالخطوة التالية وهي الاستيلاء على المدينة نفسها، طالما أن الظروف في صالحهم ، خاصة وأن الاستيلاء على كل من القلعة والميناء قد تم بصورة سريعة ودون تقديم أي تضحيات من قبل الفرنج . حقيقة أنهم كانوا يدركون أن المسلمين متربصين بهم، لكنهم استهانوا بهم ويخططهم المرتقبة للدفاع عن المدينة مما أطمعهم في توجيه المزيد من الضربات إليهم.

١- Nangis, Op. cit., p. 448 .

٢- لم تتعرض المصادر الإسلامية لتفاصيل هذه الأحداث، وكل ما جاء فيها مجرد اشارات عابرة تفيد أن لويس هاجم تونس وضيق عليها الحصار، وكادت تقع في قبضته نتيجة عدم احكام المستنصر لخططه العسكرية انظر المقريزي السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٣٦٤ ، الكتبي فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٤-٨٥ ، ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج١٢ ، لوحة ٧٤ ، ابن أبي دينار المؤنس، ص١٢٨ ، المسعودي العلامة النقية، ص٦٢ ، ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٦٩٦ ، راجع أيضا

Eraclea, Op. cit., p. 458

وعلى الرغم من ذلك ، فقد نادى بعض الأعضاء الذين حضروا المجلس بضرورة الاهتمام بأسر الميناء والقلعة ، وإرجاء أمر الاستيلاء على المدينة نفسها بعض الوقت حتى لاينشغل الفرنج بأكثر من جهة في وقت واحد، فيضيع الميناء من أيديهم لما له من أهمية قصوى بالنسبة للطرفين خاصة وأن الصليبيين تصوروا أنه باستيلائهم على الميناء سينفتح الطريق أمامهم إلى مصر ثم افريقيا بأجمعها بعد ذلك[١]. ويبدو أن نشوة النصر جعلت أحلامهم تتزايد ولم تعد تقتصر على جبهة اسلامية معينة، مما يؤكد من جديد أن الهدف الديني لتلك الحملة كان شبه معدوم. وعلى الرغم مما أكده بعض المؤرخين الغربيين من أن تلك الحملة كانت تتميز بطابع ديني، فلماذا لم يذكروا أن نجاح الصليبيين في تونس سيوصلهم إلى بلاد الشام لتخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وهو الهدف الأساسي للحركة الصليبية ؟ والاجابة بسيطة وهي أن استحواذ الفرنج على مصر وأفريقيا سوف يشفي غليلهم في الحصول على مزايا اقتصادية وسياسية فضلا عن هيمنته الكاملة على ديار الإسلام. أما الدافع الديني فهو الستار الذي يخفون وراءه نواياهم الحقيقية.

هذا فضلا عن أن هؤلاء الغزاة قد بالغوا في قيمة انتصاراتهم بقرطاجنة . فمن المعروف تاريخيا أن هذه المدينة حسبما أسلفنا قد فقدت بريقها وأهميتها منذ زمن بعيد ، وأنهم جاءوا إلى أطلال وخراب وليس إلى مدينة منتعشة اقتصاديا حسبما كانوا يتصورون . بالإضافة إلى أن الميناء الذي علقوا عليه الآمال لم يكن يشكل قيمة اقتصادية كبيرة بالنسبة لتونس ، حيث أهمل أمره منذ فترة غير قصيرة . ولكن واجب الدفاع عنه من قبل المسلمين لا علاقة له بقيمته وقتذاك . بل تكمن الخطورة في أن تحكم الفرنج في الميناء سيسهل عملية نفاذ المسيحيين داخل تونس نفسها، ذلك أن المسافة بين تونس وقرطاجنة لم تكن تتعدى بضعة أميال [٢].

وبناء على ما تقدم ، أصبح الشغل الشاغل للصليبيين هو جس نبض التونسيين الموجودين على أرض قرطاجنة دون الدخول في صراع دام معهم ودون تكريس أي جهد لعمل عسكري

١- Nangis, pp. 448 , Michaud , Crois , VI , pp. 20-22 , Reinaud, Op. cit., p. 517 , also Milfer , Op. cit., t. II, pp. 43-44

٢- لاتزيد المسافة بين قرطاجنة وتونس عن ميلين، ولايوجد بها مكان آهل بالسكان إلا الأرض المرتفعة المعروفة بالملقة. وللمزيد أنظر الادريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص١١١-١١٤

مباشر . وقد عين لويس لهذه المهمة شخصين هما فيليب دليس Philippe de Laise والسير أوبالستون Sir Opalston على أن تكون مهمتهما تحول المدينة ليلا والعودة في الصباح إلى مقر قيادة الملك ويتم هذا يوميا لنقل الأخبار إليه أولا بأول[1] . ويتضح من هذه الرواية أن التونسيين أهملوا تماما الرقابة، لأنه كيف تمكن بهذه السهولة لمبعوثي الملك النزول إلى البر والتجسس على أحوال تونس ثم العودة إلى أسطولهم في عرض البحر حيث مقر الملك دون أي مقاومة بحرية أو برية من قبل أهل تونس الذين يشتهرون بأنهم بحارة مهرة ومشهود لهم في هذه المضمار. فكيف لايدركون أمر الجواسيس إن كان ثمة رقابة حقيقية لكل تحركات الفرنج. والحقيقة أن هذا الموقف المتخاذل من قبل التونسيين يناقض ما حاول بعض المؤرخين المسلمين اظهاره من أن التونسيين كانوا في حالة استعداد تام وأن الطوارئ كانت على أشدها في أنحاء البلدة[2] . ويؤيد الرأي السابق بوجود اضطرابات في خطط صاحب تونس.

والتفسير الوحيد لهذا التضارب هو أن التونسيين لم يفضلوا الالتحام مع العدو بدليل الاتهام الذي وجه إلى صاحب تونس بأنه يجب أن يتحلى بالشجاعة وأن يتحرك للدفاع عن بلاده وأن يكف عن مداهنة العدو[3]، لأن سلبيته هذه وعدم دخوله في معركة حاسمة لقمع العدو زادت من كراهية المسلمين له ، وخاصة الظاهر بيبرس سلطان مصر الذي تحرك من بلاده للدفاع عن تونس سواء بارسال المساعدات المادية والعسكرية أو العمل على توطيد كلمة المسلمين، وحث العربان والمغاربة والموحدين على ضرورة الجهاد للدفاع عن البلد وايقاظ المستنصر من غفوته التي مشتكى على الأخضر واليابس. ولكن ليس باستطاعتنا أن نجزم وبشكل نهائي بتواطؤ المستنصر كما اتهمه البعض . وكل ما في الأمر أنه– من وجهة نظرنا– كانت تنقصه الحنكة السياسية والخبرة العسكرية للدفاع عن بلاده برا وبحرا ، رغم أنه لم يكن ينقصه أبدا الذكاء والحيلة في التخلص من خصومه في الداخل . ويتضح هذا في مواقفه من

١– Nangis, Op. cit., p. 448 , Reinaud, Op. cit., p. 517

٢– الكتبي : فوات الوفيات ، ج٢ ، ص٨٢–٨٤ ، ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٩ ، ابن الوردي : تتمة المختصر، ج٢ ، ص٣١٩ ، المقريزي: السلوك ج١، ق٢ ، ص ٥٩٠ ، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٣ ، ص١٩٦، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص٢٧٨ ، محمد الحبيب : لب التاريخ ص٢١٦

٣– ابن الفرات: تاريخ الدول، ج١٢، لوحة ٨٩ ، ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٢٨ . أنظر أيضا

Reinaud, Op. cit., pp. 517-518

العريان والطوط وعميه اللمياتي والمجبور ، فقد استعمل معهم كل الحيل والوسائل للقضاء عليهم جميعا ، فضلا عن أن جماعة الموحدين والمغاربة الذين شاركوه في الرأي بترك الفرنج ينزلون إلى البر ثم يتصيدونهم بعد ذلك، ثبت أنه رأى خاطئ بسوء خططهم العسكرية المخالفة تماما لكل تحركات لويس فكان لابد أن يثبت حسن نواياه ويسرع بالتحرك لانقاذ الموقف ولكن سكونه أكد بعض الاتهامات بخيانته وعدم وضوح مسلكه وخطته في مواجهة العدو من البداية .

المهم أن الأخبار كانت تصل إلى لويس على نمط واحد، وهو استمرار الوضع على ما هو عليه من وجود حالة استعداد عسكري في تونس دون أي محاولات فعلية لاسترجاع القلعة أو الميناء أو محاولة الالتحام مع أسطول الصليبيين في البحر . وكانت هذه الأخبار دافعا للفرنج لاعداد الخطة المحكمة لمهاجمة مدينة قرطاجنة ومحاولة الاستيلاء عليها . وبالفعل تمكنوا من احتلال مناطق عديدة محيطة بالميناء كانت خالية تماما من السكان بدليل أنهم لم يحصلوا على أسلاب تذكر من جراء هذه المحاولة، ويبدو أن الأهالي حين رأوا رجحان كفة الصليبيين، وضياع الميناء دون القيام بعمل عسكري ، آثروا الرحيل بعيدا عن منطقة القتال حاملين معهم كل ما أمكنهم حمله من متاع ونفائس . ولم يكن عدد هؤلاء السكان كبيرا لأن المدينة ذاتها، كما سبق القول ، لم تكن عامرة بالأهالي [١].

ويقول نانجي «أنه يوم احتفالنا بعيد القديس يواكيم ... يوم ٢٩ يوليو ١٢٧٠م ٧ ذي الحجة ٦٦٨هـ كنا قد قمنا بجولة في الأرض الجديدة التي تم الاستيلاء عليها قرب الميناء، وكنا نتجول بحرية تامة دون وجود أي عائق من قبل التونسيين، ولكن ظهر أمامنا فجأة عدد غير قليل من المسلمين بالقرب من برج مدينة قرطاجنة ولم نقف مكتوفي الأيدي بل تعقبهم الفرسان الفرنجة حتى اضطروا إلى الصعود للاحتماء داخل البرج الذي لم نكن قد استولينا عليه بعد، وظل المسلمون محاصرون داخله حتى صباح يوم ٣٠ يوليو ١٢٧٠م (٨ ذي الحجة ٦٦٨هـ) وحين علم ملكنا بهذه الأخبار لم يرسل لنا المزيد من الأسلحة لاحكام الحصار حول البرج ، بل اكتفى بالتوجيهات في الاستمرار في الحصار» [٢]. ويبدو أن هذه الفئة من المسلمين

١- هم الفئة القليلة التي كانت تسكن بعض الأحياء للمهجورة ومن أشهرها أرض المعلقة

٢- Nangis, Op. cit., p. 449 .

كانت تحمل الأسلحة معها بدليل الاشارات التي أوردها نانجي من حدوث قتال حول البرج وسقوط عدد كبير من القتلى بين الطرفين، إلا أن القتال انتهى باستيلاء الصليبيين على البرج أيضا بالإضافة إلى القلعة والميناء، ولاتخلو هذه الرواية من المبالغة أيضا بهدف اظهار الفرنج بمظهر المنتصرين ، والتقليل من شأن المسلمين. والسؤال كيف دارت رحى هذه المعركة بينما كان هؤلاء الصليبيون يتجولون في الأرض المحيطة بالميناء دون وجود أي تكتيك عسكري لخطوة جديدة ضد المسلمين. والأرجح أن هذه المعركة كانت مفاجأة أوكمينا أعده المسلمون للفرنج في الطريق وأسفر عن سقوط عدد من القتلى المسيحيين. لذا يجب تناول رواية نانجي بشئ من الحذر. كما يجب ألا ننسى أن أهالي المدينة ربما اشتعلت غيرتهم على بلدهم التي كانت على وشك الضياع ، فمارسوا صنوفا من الفداء والبطولة يأبى هذا المؤرخ أن يشير إليها حتى لايقلل من شأن بني جلدته ، حيث تتضح من روايته أنه لم يكن هناك تخطيط عسكري لاحتلال البرج ، بدليل أن لويس فوجئ بهذه الأخبار وأصدر أوامر سريعة بحصار البرج دون أي إعداد أو تخطيط مسبق. فكيف تحدث كل هذه الصور البطولية من قبل جماعة الفرنج وهم يتجولون فقط في المدينة أثناء أحد احتفالاتهم الدينية ؟ فالأمر لايتعدى المناوشات المتفرقة التي نجمت عن نزول الفرنج أرض المدينة .

ومع ذلك ، لايمكن أن ننكر أن الصليبيين قد أحكموا خططهم بصورة أفضل من التونسيين، بدليل سقوط قرطاجنة في أيديهم دون وجود عائق يحول دون ذلك وجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين مروا على أحداث سقوط المدينة مرور الكرام ، ولم تتعد اشاراتهم عنها سوى « أن أفريقيا كانت أن تضيع جميعها بعد أخذ قرطاجنة »[1] فقد كاد المسلمون أن يغلبوا وتضيع كل أراضيهم جهة المغرب[2] ، وأن المنقذ الوحيد للمسلمين لم يكن نابعا من رد الفعل العسكري ضد الصليبيين بل نتيجة انتشار الأمراض بين صفوفهم والتي فتكت بهم [3] في حين أورد نانجي اشارات مقتضبة تفيد أن المسيحيين أعملوا في المسلمين القتل. فكان هذا هو نهاية المطاف لكل من وجد منهم داخل قرطاجنة بنجمعها إذ تمكن الفرنج بعد فترة قصيرة من

١- ابن الوردي، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩، العيني، عقد الجمان، ج٣ ، ق٢ ، لوحة ٥٥٨

٢- أبو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص١٣٦ ، المقريزي، السلوك ، ج١ ق٢، ص٦٠٢

٣- ابن وصول ، نزهة العيون، ج٣ ، ورقة ١٩٨-١٩٩، ابن الفرات ، تاريخ الدول ج١٦، لوحة ٢٧ ، ابن الوردي، تتمة المختصر، ص٢١٩ .

احتواء مدينة قرطاجنة بكاملها وحشدوا قوات هائلة داخل القلعة والميناء والبرج [١]، وأصبح المسلمون في قلق شديد لمصير تونس بعد سقوط قرطاجنة بهذه السرعة وكانت العناية الإلهية وراء وقف تقدمهم نحو تونس عندما انتشر المرض داخل جيوشهم[٢]

لقد كان المستنصر في وضع لايحسد عليه. وقد اهتزت صورته أمام باقي المسلمين، حيث اتهمه الجميع بسوء تقدير الموقف واستهانته بأمر الحملة فالمدينة بتحصيناتها لم تسقط دفعة واحدة بل على مراحل رغم هذا لم تكن هناك انتفاضه قوية من قبله لمنع هذا البلاء ، بل ترك البلاد نهبا للويس وجيوشه وأصبح بوسع الملك الفرنسي التجول داخل قرطاجنة بحرية مطلقة دون وجود رد فعل قوى يوقف هذا الزحف الصليبي على باقي المدينة . وقد أهمل صاحب تونس أمر تحصين المدينة من جهة البر والبحر معا، على الرغم من أنها مدينة ساحلية في المقام الأول مما أفقد التونسيين مدينتهم ، وأصبح الصليبيون قاب قوسين أو أدنى من احتلال تونس نفسها. وقد اتهم المسلمون المستنصر بأنه قد وضع البلاد في موقف حرج حيث تعذر وصول الإمدادات والمؤن إليها بسبب الحصار الذي فرضه الصليبيون حول تونس .

حقيقة أن هذا الحصار لم يترتب عليه حدوث المجاعة في تونس بعكس ما جاء في روايات بعض من المؤرخين الغربيين، لأن تونس كما نعلم سبق وأعدت عدتها لتخزين الحبوب والمؤن بالإضافة إلى أن ميناء قرطاجنة لم يكن يشكل قيمة كبيرة بالنسبة لها فلم يكن هو المنفذ الوحيد لتونس على البحر ولكن هذا لايشفع لصاحبها تقصيره في أمر الدفاع عنها وتجنب شدة الحصار وطأته. لقد توالت السفارات والمكاتبات من جميع الحكام المسلمين تهاجم المستنصر وتوبخه. ومما زاد الطين بلة «أن المستنصر ردا منه على شدة الحصار الذي فرض عليه قام بإرسال سفارة من قبله إلى لويس ومعها مبلغ ضخم من المال وصل إلى ٨٠ ألف دينار من الذهب بهدف رفع الحصار عن المدينة. وأخذ لويس هذه الأموال ووزعها كمكافأة على الجنود و الفرسان والبارونات الذين أخذوا ينفقون منها ببذخ يحمل نغمة السخرية من موقف

١- Nangis, Op. cit., p. 449 , Erades, Op. cit., p. 458

٢- الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص٨٤-٨٥، السلوك : ج١، ق٢ ، ص٣٦٤ ، ٥٠٢ ، ابن الفرات : تاريخ الدول، ج١٢ ، لوحة ٧٤ ، محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية، ص٦٢

ملك تونس»[١]. وقد تعجب المؤرخ رينو من موقف المستنصر قائلا «أنه بدلا من أن يتنفس ويثور على ضياع أرضه يمالئ عدوه بكل هذه الأموال[٢] ثم أين ذخائره وأسلحته؟»[٣].

وعلى أي حال، كان هذا الموقف المتخاذل من قبل المستنصر مدعاة لازدياد أطماع لويس فيه، وازدياد احكام قبضته حول بلاده التي أصبحت عرضه لخطر جسيم. وقد أحدث هذا قلقا كبيرا في أنحاء العالم الإسلامي- فحين وصلت هذه الأخبار مصر وجه السلطان الظاهر بيبرس رسالته القاسية للمستنصر يقول فيها «إن مثلك لايحق أن يلي أمور المسلمين، وأنه يجب عليك أن تتحلى بالشجاعة والآباء وبذل كل الجهد للدفاع عن بلادك»[٤]، كما طلب منه الاستفادة من العربان والمغاربة لمواجهة الموقف وتكوين جبهة قوية للدفاع عن البلد [٥]

ومن الطريف أن المستنصر رد على هذه العبارات القاسية بارسال هدية عبارة عن خمسة وعشرين جوادا، وقد أخذ بيبرس هذه الخيول ووزعها على الأفراد ولم يأخذ لنفسه منها شيئا، ولم يغير هذا من موقفه في مهاجمة المستنصر وتوبيخه، بل أرسل له ردا أشد قسوة من المرة الأولى، وأنكر عليه التظاهر بالمنكر واستخدام الفرنج عونا على المسلمين كما استنكر عليها ما

١- سبق أن أشار المقريزي إلى موضوع هذه الأموال التي دفعها المستنصر إلى لويس قبل وصوله تونس، وأن لويس أخذها وأصر على غزو البلاد والأرجح أن هذه الأموال دفعت بعد الحصار وليس قبله وذلك لسوء تقدير المستنصر لخطورة الموقف. أنظر المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٦٤-٦٥ ، وأيضا: Reinaud, Op. cit., pp. 517-518

٢- Reinaud, p. 518

٣- لقد اعتاد المستنصر وقت الحروب لخراج الآلات الحربية من خزائنه وتفريقها على الرجال، وعندما تنتهي الحرب يعيدها إلى خزائنه ويصلح ما فسد منها. كما كان معروفا عنه أنه ينفق الأموال على عمارة الشواني والمعاشر. أنظر اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ورقة ٨٨ب. العيني: عقد الجمان، ج٢، ورقة ١٤٩ أ

٤- لم يتسن لنا العثور على نص تلك الرسالة وكل ما ورد عنها أنها أرسلت ردا على المكاتبة التي بعث بها المستنصر مع أبي عبدالله محمد بن الرلمي أثناء حصار الحملة لتونس. أنظر ابن القنفذ: الفارسية في تاريخ الدول الحفصية، ص١٣٢.

٥- سبق أن أبي البريد النداء الذي وجهه إليهم بيبرس بالتكاتف مع المستنصر في مواجهة قوات الحملة ولكن سوء الخطط التي وضعها المستنصر لحماية بلاده هي التي أوصلته إلى هذا المصير. أنظر المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩، أيضا: Reinaud, Op. cit., p. 517.

دفعه من أموال طائلة للويس في وقت كانت فيه بلاده في أمس الحاجة إليه. ومن بين العبارات التي وجهها إليه قوله «لقد كان من واجبك ضرورة الخروج للدفاع عن بلدك حتى ولو متخفيا .. وكيف تخاف وأنت في عساكرك؟»[1] ويحاول المؤرخون الغربيون تفسير موقف المستنصر هذا بأن عدم مواجهته لهم يرجع إلى نواياه الخفية التي تتجه للتحالف معهم ، وأنه يحاول أن يخفي رغبته خوفا من أتباعه وخصومه في الداخل ، وخشية من حكام المسلمين في الخارج. وقد اعتبروا أن المحاولات والعبارات التي هددهم المستنصر بها لاتخرج عن كونها ستارا لاخفاء مشاعره الصادقة حيالهم. يشير نانجي في هذا الصدد قائلا «إن وصولنا تونس قد أضاع على المستنصر أي فرصة لكي يرفض استقبالنا ، وأنه رد على مبعوث ملكنا ردا سريا لم يعلمه أحد من قادة المسلمين، يفيد موافقته على نزول لويس على أرضه والاقامة في بلاده بصفة دائمة وبدون أي مشاكل»[2].

ويتضح من رواية نانجي الكثير من التضارب ، فاذا كان المستنصر قد راسلهم سرا وأبدى استعداده لتسليم بلاده إليهم ، فلماذا تردد واستعد لهم عسكريا ؟ ولماذا يستقبل مبعوثهم ثم يشعر بالحرج ويراسلهم سرا؟ وهو يعلم أن الأمر ليس بيده وحده ولكن أعوانه وحكام المسلمين وأهالي تونس أنفسهم هم أصحاب الحق في تقرير مصير بلادهم[3]. هذا كله مرجعه إلى التواء سياسة المستنصر وخبثه مما جعله عرضه لهذا الهجوم من قبل المؤرخين. ويذكرنا خبثه ودهاؤه بما قاله أحد الجغرافيين العرب حين زار تونس «بأن أهلها مشهورين باللؤم والخبث»[4]. ويشبه موقف المستنصر هذا من أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد. فقط ظهر أمام شعبه بأنه ناقم على لويس وجيوشه، وأنه على أهبة الاستعداد لسحقه، وفي الواقع

١- ابن الفرات : تاريخ الدول ، ج٢، لوحة ٨٩ ب.

٢- Nangis, p. 447 , Reinaud, p. 517 , Michaud Op. cit., p. 20 , Cf. also Hassel , Op. cit., p. 36 ; Archer and Kingsford, p. 40 , Miller, pp. 43-44

٣- ذكرنا في الفصل الأول أن أمر دخول المستنصر في الدين المسيحي كان من محض خيال المؤرخين الغربيين فقط، لأن كل الظروف داخل تونس كانت في صالح المسلمين ولايمكن في ظلها تقديم مثل هذه التنازلات .

٤- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ، ١٩٦٠، ص١٧٣ .

فإنه، لم يصدر أمراً واحداً للتحرك الفعلي والدفاع عن المدينة مما أظهره أمام الأعداء والأصدقاء بمظهر المتواطئ مع لويس والفرنج.

وقد نجم عن كل هذا كما سبق القول ازدياد خصوم المستنصر ببلاد المغرب بعد انهيار ملك الموحدين ، الأمر الذي جعله يفكر في اتخاذ ما يراه لمصلحته فحسب وكان موقفه هذا مدعاة لتضارب آراء المؤرخين الغربيين فيه. فيؤكد متى أوف وستمستر «بأن المستنصر قد أعد حشوداً هائلة استعداداً لقتالهم»[١]. ويؤكد هذا أحد المؤرخين الغربيين المحدثين «بأنه عديم الأمانة وأنه أوقع المسيحيين في شراكه ولم يظهر أي علامة قاطعة على تحوله في المسيحية»[٢]، في حين يذكر مؤرخ ثالث «بأن ثمة مراسلات سرية كانت قائمة بين المستنصر ولويس لم يكن يعلم بها أحد من ملوك المسلمين»[٣]، بينما يرسل في العلانية مبالغ طائلة إلى لويس يثير بها أحقاد الملوك والمؤرخين المسلمين ضده [٤]، مما اضطر بيبرس إلى توجيه عبارات قاسية إليه مطالباً اياه بضرورة التحلي بالشجاعة والانضمام للحرب في كل مكان لمجابهة العدو[٥].

ويبدو أن المستنصر قد ابتعد عن عربان افريقيا خوفاً منهم، فلا يجب أن ننسى ما كان بينه وبينهم من صراع في بداية حكمه، وكيف أنه خدعهم جميعاً وتخلص منهم بقتل زعمائهم. كان هذا العداء المزمن بين الفريقين كفيلاً بألا يفكر في طلب مساعدتهم معتمداً على جنده، ولكن هذا لايعفي المستنصر من المسئولية، فإن السياسة التي سار عليها تدل على قصر نظره، لأن العربان بعد أن استأصل شأفتهم أصبحوا في وضع لايفكرون فيه في الانتقام منه، فضلاً عن كراهيتهم للعدو الصليبي. فالصراع بين المسلمين والافرنج بالأندلس أثر موقعة العقاب ٦٠٩هـ / ١٢١٢م كانت ذكرياته لاتزال ماثلة في الأذهان[٥]. ولذلك فإنه من غير المستبعد ألا يلبي هؤلاء دعوة المستنصر لمجابهة العدو المشترك ونسيان العلاقات القديمة بينهما

١- Matt. of West , vol II, p. 54 , Remond , pp. 517-518

٢- موبروند. الحروب المقدسة، ج٢، ص٢٥٢ .

٣- Nangis, p. 447 .

٤- العيني : عقد الجمان، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٨٨ ب.

٥- العيني: عقد الجمان، ج٢ ، ورقة ٧ .

ومهما يكن ، فإن موقف صاحب مصر الذي تمثل في تلك العبارات الشديدة اللهجة التي وجهها إلى المستنصر كان له أثره. إذ سعى صاحب تونس جاهدا للعمل على محو هذه الاتهامات عن نفسه وبذل المزيد من الجهد في سبيل الدفاع عن بلاده واستقبل أعدادا ضخمة من الجيوش التي قدمت إليه من مصر والسودان والمغرب وغيرها من البلاد. وكانت خطته هي العمل على احكام الحصار حول جيوش الحملة، ومنع وصول الامدادات إليها والحيلولة دون وصول الأدوات اللازمة لعلاج المرضى داخل السفن أو داخل القلعة وكذلك العمل على تصيد الفرنج فرادى دون الدخول في معركة سريعة وحاسمة معهم. ويذكر العيني أنه عقب احتلال الصليبيين لأرض الحلقة، «اجتمع المستنصر بالقادة والزعماء التونسيين وغيرهم من ملوك المسلمين للمشاورة في أحسن السبل لرد هذا الهجوم ورفع الحصار»[1]. وترتب على هذا أن تقدم المستنصر وتحت امرته عدد ضخم من جيوش المسلمين وحاصروا القلعة[2]. ويبدو أن عدد الفرسان والرجالة والفيول كان من الكثرة بحيث أرهب جيوش الصليبيين. إذ يقول نانجي «إن المسلمين قدموا بأعداد ضخمة وبدأوا في التحرش بنا، وكانوا تحت امرة المستنصر صاحب تونس نفسه الذي بدأ واضحا أنه ليس على استعداد للاحتكاك المباشر بنا. ولكن فجأة تغير موقفه وتوقف عن هذه المناوشات الباردة وظهرت رغبته في القتال وحين رأى قومنا ذلك بدأوا في حمل السلاح، وأصدر الملك أوامره بعد عقد مجلس عسكري طارئ بأن يستعد الجميع لمواجهة هذا الموقف . كما قام على الفور بترحيل الأميرات ومنهن أميرة أرتوا Artois إلى السفن الموجودة في البحر ....» ويستطرد قائلا «أنهن رحلن قبل أن يتمكن المسلمون من رؤيتهن أثناء خروجهن بعيدا عن القلعة. وقام كل من الوزير بيير شامبرلين Pierre Le Chambrlait والوزير عموري دى لانوش Amury de Lanuch بحراسة الملكات ، وتأكدا من عدم تعقب المسلمين لهن»[3]. وبادر لويس بزيادة التحصينات العسكرية حول المياه والبرج وبدأ في تحصين الطرق والشوارع المؤدية إلى القلعة. ويبدو أن المسلمين أحكموا حصارهم أيضا حول المياه، لأن تحصينات الفرنج العسكرية له لم ترهبهم ، واتخذوا كافة السبل لمنع وصول الامدادات إلى لويس ورجاله .

١- العيني، عقد الجمان، ج٢، ق٣ ، ورقة ٥٥٨ .

٢- ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، ج٦، لوحة ٧٤ ، ابن خلدون، العبر، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢، أنظر أيضا : Matt. of West., vol., II. p. 540 .

٣- Nangis, pp. 453-455 .

يضاف إلى ذلك أن خطة صاحب تونس كانت تستهدف ضرورة تخليص الميناء من قبضة الفرنج ، لأن استمرار وجودهم فيه على المدى البعيد ربما يعرض تونس لمحنة اقتصادية[١]. فميناء قرطاجنة كان يعد الميناء الأول في حوض البحر المتوسط . حقيقة لقد فقد بريقه في تلك الآونة ولكن هذا لايمنع من خطورته وأهميته الاقتصادية بالنسبة لتونس[٢]. وهو بالنسبة للويس بمثابة المنفذ الآمن الذي يمكنه من الحصول على الامدادات والعتاد من أخيه شارل كونت أنجو أو من بقية ملوك أوروبا. هذا فضلا عن أن المستنصر قد أدرك بعد فوات الأوان التأثير الذى فعلته أمواله الطائلة التي دفعها للويس إذ أدت إلى وجود حالة من الانتعاش فى معسكره ، كما سهلت حصوله على المؤن من الميناء عن طريق الشراء، بينما ساد الاضطراب المعسكر الإسلامى واختل اقتصاديا .

والمهم أن هذه الخطوة الجريئة من قبل المستنصر كانت ذا أثر عظيم وفقا لرواية العديد من المؤرخين العرب ، ومفادها أن الصحوة المتأخرة للمستنصر قد أتت ثمارها وأحدثت قلقا شديدا في المعسكر المسيحي. كما بذل صاحب تونس قصارى جهده لتغطية نفقات هذا الهجوم، وأخرج من خزائنه الأموال الطائلة وقطع السلاح ووزعها على الجند، لدرجة أن ابن أبي دينار انتقد المستنصر في هذا قائلا «لقد كانت تلك الحملة سببا في اتلاف الأموال الطائلة التى تركها أبو زكريا لابنه المستنصر»[٣]. كذلك شهدت شوارع تونس صحوة وطنية أخرى تزعمها الشعراء والأئمة في المساجد وألقيت الخطب بهذا الشأن.

وفي هذا الصدد يحاول ناجي أن يوهم بأن بعض أهالي تونس كانوا عيونا للويس، وهم من علية القوم، وكانوا ينقلون إليه كل الأخبار الهامة عن أحوال تونس . ففي هذا الشأن يقول «أن من بين عيون لويس قوم من المسلمين من كبار الفرسان في الجيش الإسلامي»[٤]

١- وردت اشارات متفرقة للمؤرخين المسلمين أوضحت الشدة التي مرت بها تونس من جراء ذلك. أنظر Reinaud, pp. 517-518

وأيضا العيني، عقد الجمان، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٥٥٨، الكتبي، فوات الوفيات ، ج١ ، ق٢ ، ص٨٤-٨٥، المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٣٦٤، محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية، ص٦٢

٢- يسرى الجوهري، أفريقيا، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٢٠٣ ، جمال الدين الدناصوري، افريقيا ، ص١٤٣

٣- ابن أبي دينار، المؤنس ، ص١٢٨

٤- الكتبي ، فوات الوفيات، ص٨٤-٨٥ ؛ ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص١٢٨ ، ابن اياس ، تاريخ مصر، ج١ ، ص٨٧-٨٨ .

بل الأكثر من ذلك أنه يورد اشارات واضحة تدل على تواطؤ عسكرى بين هؤلاء ولويس فيما يتعلق بحصار المستنصر القلعة والميناء. يقول:إنه اثناء تشديد الحصار حول مدينة قرطاجنة وصل فجأة إلى مقر الوزير يوحنا صاحب عكا[١]، بعض المسلمين وطلبوا رؤية المندوب البابوى فى الحملة، وأنهم فعلا صعدوا احدى السفن بصحبة الفرسان المسيحيين واتجهوا فى عرض البحر .. وهناك أعلن هؤلاء الفرسان الثلاثة رغبتهم الحقيقية فى دخول الدين المسيحى ورفعوا أيديهم فوق رؤوسهم، وقد وصل هذا الخبر إلى لويس الذى أمر بتشديد الحراسة عليهم وعدم اتاحة الفرصة لهم للاطلاع على أحوالهم ، مع تأجيل عملية تنصيرهم لبعض الوقت . هذا ، فى الوقت الذى قدم فيه مائة أخرون من المسلمين وقد ألقوا بسلاحهم وأبدوا من مظاهر الولاء مثلما فعل الأخرون ، وكرروا نفس الرجاء فى طلب دخول المسيحية. أما هؤلاء المسلمين فقد سبق لهم أن قتلوا ٦٠جنديا مسيحيا فى شوارع تونس قبل وصولهم إلى المعسكر الصليبى.

وعلى أى حال، صدرت الأوامر بدخولهم فى المسيحية، وقد أحس لويس بتسرعه فيما يتعلق بهذه المسألة ، وأنه كان يتعين عليه أن يتوخى الحيطة والحذر ولعله أقدم على ذلك نتيجة اهتمامه الشديد بأمرهم حيث كان بينهم أفراد من علية القوم فى تونس [٢]

وليس هناك ما يدعم هذه الرواية فى المصادر المعاصرة والمتأخرة نسبيا عن موضوع البحث من عربية وغير عربية. وواضح أن هذه هى السياسة التى انتهجتها السلطات الدينية والدنيوية فى الغرب زمن الحروب الصليبية ، والتى تنحصر فى محاولة صبغ العالم العربى الإسلامى بصبغة مسيحية كاثوليكية عن طريق البعثات التبشيرية أو الحملات العسكرية إذا اقتضى الأمر. ولذلك تعتبر عملية نشر الكثلكة فى العالم العربى الإسلامى جزءا لايتجزأ من الحركة الصليبية نفسها، وهدفا أساسيا من أهدافها

---

١ يقصد نانجى يوحنا صاحب عكا وهو أحد أمراء الشرق الذين قدموا من عكا للعمل تحت إمرة لويس فى هذه الحملة. وأما لفظ وزير فهو غير صحيح أما قوله بأن هؤلاء كانوا مسلمين ففيه الكثير من الغموض والمبالغة لإظهار المسلمين بمظهر التخاذل والتراجع عن دينهم الإسلامى .. وهى رواية تكررت كثيراً فى هذه الآونة لأغراض دينية مسيحية بحتة وللمزيد أنظر Eracles, p. 458

٢- Nangis, p. 453 . Beaulieu Op. cit., pp. 24-26

ويستمر نانجي في روايته قائلا «أن لويس استدعى أحد المترجمين لترجمة العبارات التي كانوا يرددونها ترجمة حرفية. ونقل المترجم إلى لويس ما يقصده هؤلاء المسلمون وأبلغهم أن الملك لايشك في نواياهم في الدخول في الديانة المسيحية سواء كانت هذه رغبتهم الشخصية، أو رغبة ملكهم نيابة عنهم ، وأن الملك من ناحيته سوف يتحرى بطريقته الخاصة لمعرفة صدق نواياهم ورد الفرسان عليه قائلين «سيدى أننا نعلم جيدا خطورة الأمر، وضرورة التأكد من ناحيتكم ولكن يوجد بيننا اثنان من علية القوم وذوى المكانة لدى ملك تونس .. ولدينا من الفرسان عددا يأتمرون بأمرنا وصحيح أنكم تملكوننا الآن . وإن ما وقع من صراع وأحزان فهذا بسبب ما بين ملككم وملكنا ... وكنا ننفذ ما نؤمر به ، ولم يكن قصدنا ازعاجكم أو التسبب في إلحاق الأذى بأى منكم وإن كنتم مصممين على التحرى عنا فاتركوا واحدا منا يذهب إلى قومنا وإن لم يعد وتحت امرته الفين من المسلمين على أتم الاستعداد للتحول هم أيضا في المسيحية وأن يكونوا تحت امرتكم وفي عونكم ، فعليكم أن تفعلوا بنا ما تشاءون».

ويبدو أن كل ما قاله هؤلاء لم يحظ باهتمام الملك الفرنسي الذى لم يقتنع بحديثهم، ولذلك أمر بالسماح لاثنين من الفرسان بالذهاب وأبقى على الفارس الثالث الذى ذكر هذا الكلام. ويسترسل نانجي في روايته قائلا «بأنهم ذهبوا فعلا على وعد بالعودة في اليوم التالى ومعهم عدد كبير من إخوانهم المسلمين للتحول في الدين المسيحى حيث أعلن هؤلاء التونسيين أن من سيحضر معهم ممن يفضلون الديانة المسيحية على الانخراط في صفوف ملك تونس». يتضح لنا من روايته اصراره الدائم على قلب الحقائق لصالح معسكره- فعلى الرغم من اعترافه بتكتل الجيوش الإسلامية ومحاصرتها للمعسكر الصليبى[٢] ، الأمر الذى أوجد حالة من القلق والارتباك في صفوف الصليبيين، إلا أنه يحاول أن يتخذ من كل خدعة أو موقف مفتعل من قبل المسلمين قصة ينسج خيوطها من وحي خياله تحقيقا لأغراض خاصة تخدم القضية الصليبية.

وكيفما كان الأمر، فمن المرجح أن هؤلاء الفرسان كانوا قد وقعوا في الأسر أثناء إحدى العمليات العسكرية الثلاث التي استهدفت احتلال القلعة والميناء ثم المدينة. ومن الطبيعي أن

١- Nangis, p. 453 .

٢- Nangis, p. 453 .

راجع أيضا العيني: عقد الجمان، ج١، ق٢، ص٨٥ ، ابن الفرات تاريخ الدول، ٣، لوحة ٧٤

يحاول هؤلاء الخروج من أزمتهم حتى لو كان هذا بإبهام الفرنج برغبتهم في التحول في المسيحية. ومما يؤكد أنهم أسرى تلك العبارة التى ذكرها نانجي «بأن هؤلاء سبق وقتلوا ٦٠ من جنودنا» مما يدل على أن العلاقة التي ربطت بينهم وبين الفرسان المسلمين هى ميدان المعركة. ثم كيف يمكن أن تقبل روايته هذه في الوقت الذى بدأ فيه مركز الثقل يتحول لصالح المسلمين عندما هبت تونس- عن بكرة أبيها - حكومة وشعبا، للتخلص من براثن الأعداء الأمر الذى لايمكن أن ينجم عنه انحياز أهل تونس للفرنج بعد أن رأوا الموقف في صالحهم. يضاف إلي ذلك أن ترمية هؤلاء الفرسان لايمكن أن تهدر من كرامتها وكبريائها . ولكن نانجى أبي الاعتراف بهذا، كما أنه يحتمل أن يكونوا عيونا على لويس وجيشه لصالح بلدهم تونس وستبعد تماماً رغبتهم في دخول المسيحية كما تخيل نانجي.

وعلى أي حال ، فقد كثف لويس نشاطه في هذه الفترة من حصار المسلمين له ولجيشه ، وأدرك أن الأمر لن ينتهي باستسلام المستنصر والاستيلاء علي بلاده كما كان يأمل ، فبدأ على الفور في مراسلة ملوك الفرنج في الغرب، وأخذت النجدات تصل إليه من صقلية. ويبدو أنه كان ينتظر المزيد من أخيه شارل، وكان يتمنى أن يحضر هو شخصيا بجيوشه لانقاذ الموقف ، خاصة وأن المستنصر رد علي تحركه هذا بإرسال مطالب عاجلة إلى كل ملوك المسلمين لمساعدته في مواجهة الموقف . ووصلت إليه امدادات كثيرة ومن جهات عديدة . يروى ابن خلدون «أنه وصلت قوات أبي هلال صاحب بجاية ، وجاءت جموع العرب من كل ناحية ووصلت امدادات من سدويكش وولهاصته وهوارة وأمده ملوك المغرب من زناته [١]» وأوفد إليه محمد عبد القوى عسكر بني توجين ، وأخرج السلطان أبنيته وعقد اللواء لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمتطوعة وهم اسماعيل بن أبي كلداش وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر، واجتمع عدد لايحصى من المسلمين وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة أمر الجهاد ضد قوات لويس بأنفسهم والترم والسلطان المستنصر القعود في ايوانه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود ابن أبي الحسين وقاضيه أبو القاسم البراء[٢] ويتضح من رواية ابن خلدون الاعداد المنظم والجهد المكثف التى استمر صاحب

---

١ سدويكش وولهاصته وهواره وزناته وصنهاجة ومرطة وترجه ، ومطماطة ، ووريغة وغيرها هي اسماء لأشهر قبائل البربر ببلاد المغرب العربي. انظر ابن حوقل: صورة الأرض ، ج١ ، ص١٠٥-١٠٧.

٢ ابن خلدون: العبر ، ج٦ ، ص٢٩١-٢٩٢ ، وراجع أيضا: أبو المحاسن: المنهل ج٢، ورقة ٢٥٩ ، محمد الحبيب : لب التاريخ ، ص٢١٦ .

تونس في تقديمه من أجل انقاذ بلاده نتيجة صليبيته وقد قسم وقته ما بين تنظيم الجيوش بنفسه ، ومباشرة مهام الحكم، وتلقي المساعدات وارسال طلبات إلي المسلمين يستنجد بهم ضد العدو والدخيل، وهذا أيضا يعزز ما سبق أن بيناه من أنه لم يكن مصافيا للملك لويس التاسع أو متفاهما معه للحد الذي صورته بعض المصادر من عربية وافرنجية ومهما يكن من أمر ، فقد كانت هذه الانتفاضة للدفاع عن تونس ذات أثر كبير في ارجاء سقوطها في قبضة لويس، كما عملت علي شل حركة المعسكر الصليبي واضطربت أحوال لويس وأدرك أن المسلمين قد عادوا شأنهم الأول من حيث القوة وتعددت الاجتماعات بين الملك ومستشاريه ، وبفضل خبرته السياسية في ميدان الحرب ضد المسلمين ، فقد شعر بأن الحملة تقترب من نهايتها المحتومة وأصبح لويس في حيرة من أمره[1] هل يهتم بالمرضي ومن هم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ؟ أم يهتم بالأصحاء الموجودين داخل القلعة أو فوق ظهر السفن في عرض البحر يعانون من شدة الجوع ؟ أم يهتم بالحفاظ علي ما استولي عليه من أملاك المسلمين ويتصدي لهم بكل قواته ؟ أم يترك نفسه للألم والحسرة علي موقف أخيه شارل السلبي منه؟ فقد أخل شارل بكل وعوده لأخيه في وقت أصبح فيه المعسكر الصليبي كله في أمس الحاجة إليه بل الأخطر من ذلك كله تلك الأخبار التي كانت تصله بين الحين والحين عن موقف مصر الإيجابي من الحملة، واستعدادها لملاقاته سواء داخل مصر أو خارجها ، و لإمدادات الضخمة التي كانت تمد بها صاحب تونس ، فكان هذا مدعاة لانهيار معنوياته إلي أبعد الحدود، وضيع أي أمل لديه لمحو عار الذل والهزيمة التي لحقت به علي ضفاف النيل، خاصة وأن مصر بقيادة بيبرس أصبحت الشبح الذي يهدد الفرنج كافة فكان الشغل الشاغل له هو القضاء علي جذور هذه الحملة ووأدها وهي لاتزال في المهد . ولذا ركز جهوده في أمرين رئيسين أولهما ارسال المساعدات المالية والعسكرية لصاحب تونس، وامداده النصح والارشاد له في كل خطواته لمواجهة الحملة مما يؤكد أن المستنصر كان يفتقد الحنكة العسكرية وثانيهما العمل الدؤوب علي تصفية الوجود الصليبي ببلاد الشام بما في ذلك القضاء علي حملة الأمير ادوارد التي تواترت الأخبار عن قرب وصولها إلي بلاد الشام، والتي كانت تمثل ضلعا رئيسيا لحملة لويس علي تونس، بل هي الجناح الأيمن لها ببلاد الشام ، وقبل كل هذا تهيئة الجبهة المصرية وتعزيزها استعدادا لملاقاة العدو إن فكر في تحويل وجهته شطر مصر .

١– Nangis. Op. cit., p. 455 .

ولقد شهد عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م نشاطا مكثفا من قبل بيبرس ضد الصليبيين ببلاد الشام، فقد شنت القوات الإسلامية عدة غارات على طرابلس استطاع بيبرس من خلالها انتزاع العديد من الحصون والمعاقل هناك [١] ولكنه ركز هجماته على معاقل الداوية والاسبتارية بهدف تصفية وجودهم وابطال دورهم الخطير ضد المسلمين في الشرق الأدنى، فقد هاجم حصن الأكراد[٢]، وانضم إليه كل من صاحب حماة وصاحب صهيون وغيرهما من لأمراء المسلمين التابعين له وتمكن من القضاء على وجودهم داخل الحصن بعد أيام قليلة من الحصار[٣]، ، الأمر الذي أضعف شوكتهم وترتب على ذلك أن أسرع عدد كبير من القادة المسيحيين في طلب الهدنة وعقد الصلح مع بيبرس مثل صاحب انطرسوس .

ولكن هذا لم يوقف من نشاطه ضدهم ، فقد استرجع العديد من المعاقل التي كانت بحوزتهم وهي مناصفة مع المسلمين ، كما فرض حصارا شديدا على قلعة المرقب[٤] التابعة للاسبتارية [٥]. وبذا أحكم قبضته على كل الطرق المؤدية إلى طرابلس، الأمر الذي أزعج صاحبها بوهمند السادس Bohemond VI ودفعه إلى بذل كل الجهد في سبيل عقد معاهدة صلح مع بيبرس حتى يتمكن من الاحتفاظ بما تبقى له من مناطق نفوذ [٦]. وحقيقة الأمر لم يكن بيبرس يسعى لعقد أي تحالفات معهم ، بل كان هدفه هو اجتثاث جذورهم أينما وجدوا[٧].

١- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩٠

٢- حصن الأكراد هو الحصن الرئيسي للاسبتارية وكان تابعا لحاكم طرابلس، ويحمي الممر الرئيسي الذي يصل ساحل لبنان الشمالي بسوريا وكان هذا الحصن في طليعة الحصون التي بنيت لتسيطر على الممرات التي امتدت بين الأقاليم الإسلامية والمناطق المسيحية الداخلية أنظر فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان، ج٢ ، ص٢٤٥

٣- المقريزي ، المصدر السابق ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٩١-٥٩٢ .

٤- المرقب : ثغر منيع على جبل شاهق مطل على البحر ، والحصن كبير منك بناه الرشيد ثم ملكه النصارى ثم استعاده المسلمون، أنظر الدمشقي نخبة الدهر، ص٢٠٨ ، وأيضا فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان ، ص٢٤٥ .

٥- ابن أيبك كنز الدرر، ج٢، ص١٦٥ ، ابن واصل مفرج الكروب، ج٢ ، ص٤٣٧ (أ-ب)

٦- العيني : عقد الجمان ، ج٢ ، المجلد الثالث ، ورقة ٥٥٦ .

٧- المقريزي : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٥٩٠ .

ولكنه اضطر إلى عقد الصلح معه عندما بلغته الأنباء بقرب وصول حملة الأمير ادوارد[١]. فلم يشأ بيبرس أن يضيع هذه الفرصة حتى يتفرغ تماما لمواجهة تلك الحملة، ومع ذلك لم يقدم أي تنازلات في هذه المعاهدة[٢]، بل أعيد فقط توزيع مناطق النفوذ لكل منهما، فأصبحت عرقة وجبيل[٣]، وأعمالهما لصاحب طرابلس وأن تؤول نصف غلات انطرسوس والمرقب وبانياس للسلطان الظاهر بيبرس والنصف الآخر للداوية والاسبتارية، وتعود بعرين[٤]، وحمص القديمة لسلطان مصر.

وفي حقيقة الأمر، فإن بوهمند لم تتوافر لديه النية الصادقة تجاه بيبرس بل أراد فقط من وراء هذه الهدنة أن يلتقط انفاسه ليكيل له الضربات من جديد، مستغلا في ذلك أنباء وصول حملة الأمير ادوارد، فضلا عن أنه أسرع إلى أبغا خان المغول في فارس وحاول أن يقنعه بضرورة القيام بعمل مشترك ضد بيبرس ولكن ابغا رد عليه قائلا «انك ما جئت إلا لتخوفني منه، وتغريني عنه، وتملأ قلوب عساكري رعبا وخوفا». فكان موقف المغول من بيبرس على

١- سوف أتناول أخبار هذه الحملة بالتفصيل في الفصل الخامس

٢- انفرد السلامي في مختصر التواريخ بتحديد مدة هذه الهدنة بخمس سنوات فقط، بينما أجمع الآخرون على أن مدتها عشر سنوات انظر السلامي، المصدر السابق، ورقة ٦٧، بيبرس الداوداري زبدة الفكرة، ج٩، لوحة ٩٨، راجع أيضا محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس، ص٨٤، السيد عبد العزيز سالم، ص٢٧٠

٣- بخصوص موضوع دخول جبيل في طاعة بوهمند بمقتضى هذه المعاهدة فمن المعروف أنها كانت في صراع شديد مع كونتية طرابلس، ولم ينس سادة المدينة من أسرة امبرياتشي ما فعله بوهمند ضد برتراند ابن عم هنري امبرياكو صاحب جبيل، الذي أعلن صراحة استقلال جبيل تماما عن طرابلس وأن يكون لديها السيادة المطلقة دون وصاية من أحد، الأمر الذي جعل من جبيل مدينة ذات ثقل سياسي كبير لايسمح لأحد بالتفاوض نيابة عنها لذا فمن غير المستبعد أن يكون المقصود هنا جبلة وليس جبيل، لأن جبلة كانت تابعة لأنطاكية التي كان يحكمها آنذاك بوهمند السادس هي وطرابلس، انظر، سلمية عامر (دكتورة) الصليبيون في قلعتي جبيل لبنان، ص١٣٠-١٣١

٤- بعرين قلعة منيعة لها قناة كبيرة تحمل الماء من سلمية إلى حماة تسقي بساتينها وأراضيها انظر الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٠٧

هذا الوجه لطمة قوية وجهت إلى بوهمند ، وتملكه اليأس من فكرة مناوئة بيبرس إلى أن توفي عام ١٢٧٥م / ٦٧٣هـ [١].

وعلى الرغم من إحساس الفرنج ببلاد الشام بقرب وصول حملة عسكرية متكاملة لانقاذهم من الوضع المتردي الذي وصلوا إليه، إلا أنهم لم يتفاعلوا معها واستطاب الصليبيون الحياة الهادئة بالشرق، ولم يعودوا يفكرون في العودة إلى ديارهم ، وكرهوا الحرب والصراع وإراقة الدماء، ولقد أصبحت لهم زوجات وأبناء ومصالح ، فاستكانوا تماما لكل ما فرضه عليهم المسلمون من قيود أو شروط، ولم يجد بيبرس صعوبة تذكر في احتوائهم جميعا ، هذا ، في الوقت الذي كانت فيه النجدات العسكرية تصل إليهم تباعا سواء ببلاد الشام أو بتونس، ولكنها كانت في أعداد قليلة ينقصها الحماس وليس بوسعها القيام بأي عمل حاسم ولم تعد هذه الآمال تروقهم بعكس الحال في الماضي، بينما كانت القوى الإسلامية في ازدياد مستمر تصاحبها تحركات عسكرية دقيقة وسريعة لاستئصال شأفة الدخلاء.

ولم ينشغل بيبرس عن تونس رغم هذه الأعباء الجسيمة التي حملها بالتصدي للصليبيين ببلاد الشام فلم يبخل عليها بأي امدادات أو مشورة عسكرية أو أسلحة ، في الوقت الذي ركز جزءا كبيرا من اهتمامه لتحصين مصر قلعة الدفاع عن تونس والعالم العربي الإسلامي وقتها ، وجعلها في حالة تأهب مستمر، ولم يترك جبهة واحدة بدون تعزيزها بالتحصينات والاستحكامات ، فحصن مدينتي الاسكندرية ودمياط وباقي الثغور المصرية التي يمكن أن تنفذ منها جيوش الحملة ، كما اهتم بزيادة أعداد السفن وعمارة الشواني[٢].

ويقول رينو «إن بيبرس كان صبورا إلى أبعد الحدود، وقد وضع بلاده في قمة الاستعداد العسكري الذي يمكن أن يصمد للحصار الطويل»[٣]. كما أنه لم يتوقف عن التأثير على الحكام

١- للمزيد من التفاصيل عن العلاقة الودية التي قامت بين التتار وبيبرس إلى أن انتهت بدخولهم الإسلام أنظر ، Reinaud , Op. cit., p. 516

وأيضا الداودار : زبدة الفكر، ص١٦٠

٢- ابن الفرات : تاريخ الدول، ج٢ ، لوحة ٧٤ ، المقريزي ، السلوك، ج١، ق٦ ، ص٥٨٧

٣- Reinaud , Op. cit., p. 517

المسلمين التابعين له لإثارة حماستهم لعمل عسكري موحد يحفظ مصر وتونس على حد سواء[١]. هذا، بالإضافة إلى أنه طرق كل الوسائل السلمية التي يمكن أن تقي تونس خطورة وجود الحملة فوق أراضيها. فقد أرسل بعثة إسلامية إلى غرب أوروبا لإيجاد رأي عام مضاد لحملة لويس[٢] مستغلا في ذلك صداقته القوية مع بعض ملوكها. حقيقة أن معظم هذه العلاقات اتسمت بطابع المصالح التجارية والاقتصادية المتبادلة[٣] إلا أن بيبرس كان ينظر إليها على أنها وسيلة للعمل ضد الصليبيين داخل مواقعهم. كما أن هذه المصالح المشتركة جعلته دائما على أهبة الاستعداد لمواجهتهم لتقديم أية تنازلات. كما أتت هذه العلاقات ثمارها حين كانت المنفذ الذي علم منه بيبرس أن وجهة الحملة ستكون تونس وليس مصر رغم تضارب الروايات بعد ذلك. وعلى أي الأحوال، كانت الأطراف الصليبية كلها في حالة تخبط دائم في مواقفها من الفكرة الصليبية ومعاداة المسلمين، حيث لم ترد اشارات واضحة عن وجود تعاون دبلوماسي مثمر بين بيبرس وأي من ملوك الفرنج.

١- كان ملوك الإسلام التابعين لبيبرس هم صاحب الروم غياث الدين بن ركن الدين، وصاحب ماردين قرا ارسلان وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين بن رسول، وصاحب مكة شرفها الله أبو نمي نجم الدين، وصاحب المدينة على ساكنها السلام عز الدين شيحة بن حماد، وخليفة المغرب أبو العلاء ادريس بن أبي عبدالله محمد بن يوسف النائب بمصر الأمير بدر الدين الخازندار. انظر ابن ايبك، كنز الدرر جـ٨، ص١٦٢

٢- Matt of West., p 445, Renaud, Op. cit., p. 516

٣- من المعروف أن بيبرس كان على علاقة صداقة قوية بكل من الامبراطور الالماني مانفرد ابن الامبراطور فردريك الثاني وشارل كونت أنجو. وربما حاول من وراء هذه الخطوة استغلال العداء القديم بين فردريك وشارل حين قام الأخير بالاستيلاء على ممتلكات مانفرد ابن الإمبراطور الألماني فردريك في جزيرة صقلية، الأمر الذي أعطى لبيبرس الأمل في أن فردريك لابد أن يفكر في أن ينتقم منه ومن أخيه لويس لاسترجاع ممتلكات ابنه. حقيقة أن المصادر الأجنبية والعربية لم تسعفنا بما يفيد بوجود خطوات ايجابية في هذا الصدد بين فردريك وبيبرس، ولكن الظروف المحيطة بهذا الموقف جعلت بيبرس يوسع دائرة تحركاته للتخلص من الحملة الصليبية ضد تونس بكل الوسائل والطرق. هذا بالإضافة إلى صداقته القوية بحكام برشلونة وجنوه وأشبيلية. أنظر: السلوك، جـ١، ق٢، ص٥٩٠، ابن الفرات، تاريخ الدول جـ٧، لوحة ٤٤

راجع كذلك:

Matt. of West., p. 445

وأيضاً سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص١٢٢٨

يضاف إلى ما تقدم أن انشغال بيبرس بأمر الحملة لم يجعله يغمض عينيه عن الأخطار الأخرى التى هددت المسلمين ، وفى مقدمتها الخطر المغولى. حقيقة لقد استؤصلت شأفتهم تماما بعد موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) ، ولكن هذا لم يقض تماما على العداء المشترك الذى يجمع بينهم وبين الصليبيين ضد المسلمين، مما جعل بيبرس يوجه لهم المزيد من الضربات المتقطعة على أطراف بلاد الشام. لقد كان يقظا لكل تحركاتهم. وقد أدت كل هذه الظروف مجتمعة إلى زيادة الكيان الصليبى فى بلاد الشام ضعفا وتدهورا فى الوقت الذى علا فيه شأن بيبرس سواء فى مصر أو بلاد الشام أو فى ديار الإسلام جميعا . وقد أدى هذا فى نهاية الأمر إلى احتواء الحملة الصليبية على تونس وانقاذ الشمال الافريقى من الضياع الأكيد[١].

وإذا كنا قد تحدثنا عن جهود بيبرس فى سبيل القضاء على بقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، وابعاد الخطر المغولى عن الشرق الأدنى، وتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة العدوان الصليبى ضد تونس ، فذلك لتداخل كل هذه القضايا فى بعضها بحيث لايمكن فصلها عن موضوع البحث لانعكاس هذه الأحداث على الحملة الصليبية ضد تونس وتأثر الحملة بها.

ومهما يكن من أمر، إذا عدنا ثانية إلى تونس سوف نجد أن لويس التاسع بعد أن تأكد من تقاعس أخيه شارل كونت أنجو عن القدوم إلى ساحة القتال، اضطر إلى استقدام عدد آخر من السفن الموجودة فى عرض البحر إلى الشاطئ لزيادة تحصين الميناء ، كما أنزل عددا كبيرا من قواته إلى البر لتحصين المدينة ومواجهة الحصار الإسلامى لها هذا، بينما لم يترك لهم التونسيون الفرصة لتنسيق قواتهم. بل كانت خطتهم هى توجيه الضربات المتلاحقة لهم حتى يرتبك المعسكر الصليبى ، مستغلين فى ذلك ازدياد انتشار المرض فى داخله. فمنعوا عنهم الامدادات بالعمل على بث الاضطراب والقلق داخل معسكرهم فى الميناء ، وأصبح شغلهم الشاغل هو مواجهة الضربات التى كالها المسلمون لهم والحصار الذى فرضه المسلمون عليهم أكثر من اهتمامهم بالحصول على المؤن. هذا فى الوقت الذى ازداد فيه التفتت داخل

١- أبو المحاسن : المنهل، ج٢ ، ورقة ٢٥٩-٢٦٠ ، الكتبى : فوات الوفيات، ج١ ، ص٨٣-٨٤، ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩ ، ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩١ ، المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٦٥٢ ، أبو الفدا : المختصر ج٣ ، ص١٩٦، انظر أيضا : محمد العبيد: لب التاريخ ، ص٢١٦

المعسكر الصليبي، وضاعت الكلمة الموحدة، وازداد حنق لويس على أخيه شارل [١]، الذى لم تكن تهمه سوى مصالحه الخاصة. وكانت كل محاولات لويس في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الحملة، هي ترميم بعض الأسوار المهدمة حول مدينة قرطاجنة القديمة، رغم أنها كانت خرابا ودمارا، لذا كانت مهمته عسيرة في اقامة حواجز تفصل بينه وبين المسلمين ، واختلط الفريقان ببعضهما، وازدادت الاشتباكات وتفاقمت الأمور، ولم يكن لديه الفرصة الكافية لمواجهة هذا الموقف المتأزم، فالوقت كان يمر بسرعة ولم يكن هذا في صالحه. ورغم هذا فقد عمل على انشاء جسر من الخشب على مسافة قريبة من القلعة، وأمده بالمياه كمحاولة منه لتلافي الحصار البرى حول القلعة والمياه وأيضا لوقف الاشتباكات بينه وبين المسلمين على أرض قرطاجنة ، على أمل وصول امدادات أخرى من أخيه تعزز موقفه العسكري في تونس. كما حفر خندقا عميقا ، وعمر بعض شرفات المدينة[٢]، ولكنها كانت كلها محاولات عقيمة في وقت رجحت فيه كفة المسلمين في الصراع ضد الفرنج ، ولم يصبح لدية فرصة لاستكمال تحصيناته بعد أن أحاط به المسلمون من كل جانب [٣]. ويقول متى اوف وستمنستر في هذا الصدد «أننا فجأة وجدنا أن العرب قد أصبحوا على استعداد لتقديم كل التضحيات من أجل الخلاص منا»[٤]

وهكذا استمرت الاشتباكات بين الطرفين، وازداد رجحان الكفة الإسلامية بوصول امدادات عسكرية جديدة من السودان وبرقة، وقدوم العربان والمغاربة وغيرهم ، في الوقت الذي ازدادت فيه الأمور تعقيدا بالنسبة للويس. يقول مونروند «أنه بعد أيام قليلة من هذا الحصار الشديد الذي فرضه المسلمون حول الفرنج ، تناقصت المياه وقلت الأقوات[٥] ولم يصبح لديهم ما يأكلونه سوى اللحوم المملحة التي احضروها معهم. ونظراً لشدة حرارة الشمس فقد فسدت هذه الأطعمة وتعفنت ، ومع ذلك اضطروا لأكلها دون أن يدركوا أنها كانت السبب في ازدياد

١- مونروند ، الحروب المقدسة، ج٦ ، ص٣٥٣ .

٢- ابن خلدون: العبر ، ج٦ ، ص٢٩١ . وأيضا Nangis, p. 448

٣- المقريزي: السلوك، ج١، ق٢ ، ص٢٠ ، ص٥٠٣

٤- Matt., of West , p. 451 , Eracles, Op. cit., p. 458 .

٥- Nangis, p. 445 ; Michaud, p. 516 .

المرض وانتشار الوباء في معسكرهم ، في الوقت الذي كان فيه أهل تونس أدرى بطبيعة بلادهم. وكانوا يحاربونهم من الأماكن الحصينة البعيدة عن حرارة الشمس كما كانوا يكيلون لهم الضربات القاسية عن طريق استخدامهم آلات صناعية كان يوضع فيها كميات كبيرة من الرمل فتنزل فوق المعسكر المسيحي كأنها محماة في أتون من نار، مما أوصله إلى حالة شديدة من الضعف والانهاك[١].

وجدير بالذكر هنا أنه رغم انتشار الأمراض بين الصليبيين ، فإن الحقيقة الهامة التي يجب أن ندركها هي أن تونس كانت نظيفة تماما من هذا المرض، ولم تكن مصدرا له. بل هناك أسباب عديدة سنعرض لها تفصيلا فيما بعد، ومن بينها المأكولات التي أصابهم العفن والتي خطر الفرنج التي أكلها لاشباع بطونهم الخاوية بسبب نفاذ المؤن .

وخلاصة القول أن الحملة قد كتب عليها الفشل المبكر، لتجمع أسباب عديدة أدت إلى هذه النهاية، من حيث قلة الأقوات ، وانتشار المرض، واستهتار شارل كونت انجو وتقاعسه عن تقديم المساعدة المطلوبة، واضمحلال الفكرة الصليبية عامة، بالإضافة إلى الصحوة الإسلامية المفاجئة من قبل صاحب تونس نفسه تلك الصحوة التي تفجرت دائماً من مصر وعمت العالم العربي الإسلامي من مشرقه إلى مغربه . ولايمكن أن ننكر أيضا رغم كل السلبيات التي واجهت لويس وحملته ، أنه استفاد من تخبط المستنصر في قراراته وخططه المرتجلة التي أعطت له الفرصة في تثبيت أقدامه في قرطاجنة وزيادة الاستحكامات حول المدينة ولكن الافاقة الإسلامية التي جاءت في الوقت المناسب قلبت موازين الأمور رأسا على عقب . وبعد أن كان زمام المبادأة والهجوم في قبضة الصليبيين ، أصبح في قبضة المسلمين ، بينما اكتفى الصليبيون منذ ذلك الحين فصاعدا بالدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام وهذا ما سيكشف عنه الفصل التالي.

١- ميرونه : الحروب المقدسة ، ج٢، ص٢٠٣ .

الفصل الرابع

المواجهة العسكرية بين المسلمين والصليبيين داخل قرطاجنة

أغسطس ١٢٧٠م / ذو الحجة ٦٦٨- المحرم ٦٦٩هـ

الصراع بين قوات لويس والمسلمين بقيادة يحيى بن صالح- تأرجح ميزان القوى بين الطرفين ، واختفاء المستنصر من تونس ومناقشة مختلف الآراء التي ثارت بهذا الخصوص- انتشار المرض داخل المعسكر الصليبي أسبابه ونتائجه- مرض لويس التاسع بداء الدوسنتاريا واختلاف الآراء حول مرضه ووفاته والآثار المترتبة على ذلك- تولى فيليب الثالث الجيش الصليبي- تحليل أوضاع للعسكرين الصليبي والإسلامي.

وبعد أن استعرضنا الآثار الايجابية التي ترتبت على صحوة المسلمين بتونس وتداركهم للخطر المحيط بهم قبل استفحاله، بفضل الدور الذي لعبه بيبرس لايقاظ المستنصر من غفلته وما ترتب عليه من اجتماع الشمل الإسلامي كله حول مصير تونس وقدوم الجيوش الإسلامية من كل حدب وصوب للوقوف بجانب المستنصر، بعد كل هذا يجدر بنا أن نتابع تسلسل الأحداث وما آلت إليه . ففي هذا الوقت ازداد المعسكر الصليبي سوءاً وتفاقمت حدة المرض بين الجنود وضاعت الكلمة الموحدة بينهم. حقيقة أن المؤرخين الغربيين قد دأبوا على اضفاء صفة البطولة على جيوشهم حتى في أوقات الهزيمة والخذلان إلا أنهم في نهاية الأمر لم يتمكنوا من انكار دور المسلمين الناجح في تطويقهم واحكام الحصار توطئة لتوجيه الضربة القاضية.

ونبدأ باستعراض دور المستنصر الحفصي في التصدي للقوات الغازية ، حيث وجد نفسه في مأزق حرج نتيجة تباطؤه في الدفاع عن قرطاجنة وشعر بتصدي خصومه وأصدقائه له على السواء وأن اتهامهم له باللامبالاة والخيانة والمالأة لن يقف عند حد، فسعى للعمل الجاد على تخليص بلاده، ليس فقط هروبا من هذه الاتهامات ، بل لأنه بفضل حنكته السياسية والعسكرية أدرك أن الزمام على وشك أن يفلت من يده، وأن تونس نفسها على وشك الضياع

إن التقط الصليبيون انفاسهم أو وصلتهم امدادات من الغرب كما أدرك أن دهاءه وخبثه لن يحمي سلطانه من الضياع .

وبناء على ما تقدم كانت خطة المستنصر الجديدة هي احكام الحصار البحري والبري معا حول معسكرات الصليبيين، الأمر الذي أوقع الفرنج في مزيد من الاضطراب وجعلهم يرتجلون القرارات والخطط، خاصة وأن التونسيين اختاروا لأنفسهم الأماكن الحصينة في هذا الحصار، الأمر الذي مكنهم من حماية جيوشهم من قسوة الحر والعطش وهم أعلم بطبيعة بلادهم من الصليبيين. هذا في الوقت الذي تركز فيه الصليبيون في أماكن شديدة الحر والجفاف وراد قلة الأقوات مما أثر تأثيرا خطيرا عليهم.

وكانت الفترة من ٢٦ يوليو إلى ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٥-١٣ ذي الحجة ٦٦٨هـ ، هي فترة التقاط الأنفاس من قبل المسلمين وسقوط قرطاجنة ، فنعادوا تنظيم صفوفهم في وقت ازدادت فيه حدة المرض بين الصليبيين رغم انتصارهم عسكريا على خصومهم المسلمين وانشغل الطرفان في معالجة الصدع داخل صفوفهما ولم ترد أية اشارات في مصادر ذلك العصر عن حدوث معارك حاسمة بين الطرفين حتى يوم ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٣ ذي الحجة ٦٦٨هـ، الأمر الذي عاد بالفائدة على المسلمين ، وسمح لهم باعادة ترتيب جيوشهم وخططهم بثقة أكبر من الصليبيين ، وقد عاون الجيش التونسي في ذلك العديد من الجيوش الإسلامية الأخرى[1] التي قدمت إلى ساحة المعركة ، في الوقت الذي ضن فيه الغرب الأوروبي على لويس بالمساعدات وترك بدون اسعاف مرضاه بينما تباطأ أخوه شارل عن القدوم رغم العديد من السفارات التي أرسلها إليه، وأصبح شغل لويس الشاغل آنذاك هو اللقاء المستمر بالقادة والمستشارين العسكريين لاتخاذ أفضل الوسائل للخروج من هذه الأزمة ، وأرسل لويس أحد النبلاء ويدعى أموريس دي لاروش Amauris de La roch لاستطلاع الأمر وكانت الأخبار غير مطمئنة ومفادها أن المسلمين بدأت أعدادهم في الازدياد ، وأن الملك التونسي نفسه في طريقه

١- كان جيش الحفصيين ابان هذه الفترة يتكون من عناصر عديدة ومنها الترك حيث اشترى الأمير أبو زكريا الحفصي ما يقرب من ألفي فارس من المماليك والأتراك بمصر هذا بالاضافة إلى انضمام عدد كبير من القواد الأتراك الذين هربوا من بغداد إلى تونس واشتراهم المستنصر الحفصي بالإضافة إلى العبيد السود الذين كانوا يرتدون الملابس البيضاء المحلاة بالدروع . انظر ابن خلدون ، العبر، ج٦ ، ص٦٩٧-٦٩٨

لساحة القتال بناء على أوامر بيبرس(١)، وأنه قد أصبح لدى المسلمين النية الحقيقية في التصدي للمسيحيين سواء في البر أو البحر وهذه اشارة واضحة على أن المستنصر قد تنبه لخطأه الأول بتركيز الحصار على البر فقط وأصبح هدفه التصدي للفرنج من كل الجهات وتخليص قرطاجنة من أيديهم. وفى هذه الأثناء وصلت الأنباء إلى لويس عن طريق القائد أوليفيه دى كريتس olive de Chritz وهو أحد النبلاء الذين قدموا على متن سفينة خاصة به تفيده بأن اخاه الملك شارل في عرض البحر وأنه في طريقه إلى تونس، وقد فرح لويس كثيرا عند سماعه هذه الأخبار، فهذا كان أقصى ما يتمناه لدرجة أنه أقام احتفالاً كبيراً على متن السفينة المسماه منتجوا تكريما لأوليفيه على الأنباء التي جاء بها ، فالملك لويس كان يخشى سوء عاقبة تأخر أخيه خاصة بعد أن عاد المسلمون شأنهم الأول من حيث القوة والتصدى للمسيحيين(٢).

ويتضح من الرواية السابقة أن المسلمين بتونس في كفاحهم ضد الحملة قد مروا بمراحل ثلاث أولاها استعدادهم ويقظتهم للقاء لويس وجيوشه حتى وصل قرطاجنة (٣)، وثانيتهما وأخطرها هي التقاعس الذى أصابهم فجأة وجعلهم يتهاونون في الدفاع عن أراضيهم وذلك كان راجعا إلى الخطط الوخيمة التي أعدها سلطان تونس وتراخيه في حماية بلاده وممالأته الظاهرة للعدو أحياناً وغموض موقفه أحياناً أخرى (٤). أما المرحلة الثالثة والأخيرة وهي التي نحن بصددها ، فهي صحوة شعب تونس من جديد واصراره على استرجاع أرضه بعدما شاهد ضياع قرطاجنة ، وخوفه على تونس نفسها من الضياع، تلك الصحوة التي كان لسلطان مصر فيها فضل عظيم جمع بها قلوب المسلمين نحو تونس وضيق الخناق على المستنصر المتلاعب بمصير بلاده مرة أخرى(٥)

١- Nangis, p., 435 , Eracles, Op. cit., p. 459 , Beaulieu , Vita Ludovici noni , p. 21 , Anonymous, Gesta Sancti, p. 56 , St. Pathus, vie de Saint Louis, p. 103 , Joinville, Op. cit., p. 299 , Reinaud, Op. cit., p. 522

٢- Nangis, vie de Saint Louis, p. 455

٣- Matt of West , p. 450

٤- ابن خلدون: العبر ، ج٦ ، ص٢٩١ ، أبو المحاسن: المنهل الصافي ، ج٢، ورقة ٢٩

٥- Nangis, Op. cit., p. 455 .

وبناء على ما تقدم عمل المستنصر على فرض حصار محكم حول الميناء والقلعة، وحشد لذلك عددا كبيرا من السفن الإسلامية التابعة لتونس وغيرها، كما فرض حصارا بريا حول برج المدينة ووزع جنده في أجزاء متباعدة من المدينة. كذلك عقد المستنصر في نفس الوقت اجتماعا حضره عدد غير قليل من أمراء المسلمين وحشد من القادة العسكريين ويبدو أنه كان اجتماعا شعبيا بهدف اذكاء روح الشجاعة والاقدام وبث روح الجهاد في نفس الشعب التونسي للتخلص من براثن الحملة. ففي هذا الصدد يشير نانجي قائلا «إن حشودا هائلة من المسلمين قد حضرت إلى مقر الاجتماع، وأعلن المستنصر خطته العسكرية بعد التشاور مع القادة المقربين منه معلنا أن هدفه الأول سيكون احكام الحصار حول موقع الفرنج المتمركزة في القلعة والميناء و البرج وتوزيع باقي القوات على كل المناطق المرتفعة المحيطة بتونس»[1].

وبعد انتهاء الاجتماع خرج المستنصر بنفسه وتفقد كل مواقعه ومعسكراته وفي صبيحة يوم الأحد ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٣ ذي الحجة ٦٦٨هـ قام المسلمون بحمل السلاح استعدادا للقتال. وحول هذا اليوم الذي دارت فيه رحى أول معركة مباشرة بين المسلمين والصليبيين، ثار الخلاف بين المؤرخين من الجانبين. يقول نانجي أن هذا اليوم هو ٢ أغسطس ١٢٧٠م / ١٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ [2]، في حين يذكر ابن أبي دينار أنه يوم ١٠ محرم ٦٦٩هـ/ ٣٠ أغسطس ١٢٧٠م[3] ونحن نميل إلى الأخذ برواية نانجي لأن هذا التحديد الزمني الذي أورده يتناسب مع سير الأحداث وظروف لويس الصحية، فهو لم يكن قد أصيبت بالمرض الذي أصاب جنوده بعد وكانت لاتزال لديه امكانية خوض المزيد من المناوشات المضيفة ضد المسلمين ، أما ما ذكره ابن أبي دينار فهو تاريخ غير دقيق لأنه في يوم ٣٠ أغسطس ١٢٧٠م / ١٠ محرم ٦٦٩هـ كان لويس قد مضى على وفاته خمسة أيام كاملة مكف اشترك في هذه المعارك وربما يقصد ابن أبي دينار هنا احدى المعارك التي دارت بين المستنصر وشارل أخو لويس بعد وصوله تونس [4].

١- Nangis, Vie de Philippe, R. H. G. F., t XX, p. 472

٢- Nangis, Op. cit., p. 472, Cf. also Guizot, St. Louis, p. 137

٣- ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٢٨ ، محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص٦٢ .

٤- ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٢٦

ومهما يكن من أمر فقد أورد نانجي وصفا دقيقا لجيوش المسلمين إذ يقول «أن الجنود كانوا يحملون أسلحة مختلفة خاصة بالحصار البرى والبحرى وإن استعدادهم هذه المرة كان يتميز بدقة كبيرة فضلا عن وجود قوات من الفرسان والمشاة كما أحكموا حصارهم البحرى بصورة لم تشهد لها مثيل واستخدموا أسلحة متفوقة لرد هجماتنا، وظهروا كأنهم صف واحد ينتظر وبشراسة لحظة مهاجمة قواتنا»[1]. وحين رأى الملك لويس ذلك، أمر جنوده على الفور بالاستعداد للقتال. وبدأت المعركة الأولى بهجمة إسلامية قوية على عدد من المواقع العسكرية التي أقيمت على أرض قرطاجنة لحماية الميناء، والبرج في الوقت الذي أغارت فيه السفن الإسلامية على عدد من السفن المسيحية المرابطة بالميناء ، وقد اضطرب الجنود الصليبيون وساد الهرج بينهم. وهرع عدد كبير منهم إلى الزوارق طلبا للنجاة بأنفسهم واللجوء إلى السفن الكبيرة الموجودة في عرض البحر [2]. ولم يكف المسلمون عن القتال بل تابعوا هجماتهم في الوقت الذي وجدت فيه فرق أخرى تدق الطبول وتصدر أصواتا مرتفعة تثير حماسة الجند ضد الجيوش الصليبية ويقول نانجي «أنهم كانوا يحملون المعدات والآلات الكثيرة ويتجولون عبر المزارع وفي الشوارع لاستعراض قواتهم أمامنا حتى يشعرونا بأننا غير قادرين على الاستمرار في المقاومة وقد استمر هذا الاستعراض فترة من الوقت دون حدوث معركة حاسمة أخرى بيننا وبينهم» ويستمر نانجي في وصفه للمعركة قائلا «ولكن لم نقف مكتوفي الأيدي أمام هذا الاستفزاز من قبل المسلمين بل كنا نردد نحن أيضا العبارات الحماسية لإلهاب الجنود وكانوا يقولون هيا هيا لحمل السلاح من أجل قمع القوى التونسية المقبلة نحونا وفعلا هرع المسيحيون من داخل معسكراتهم، وأظهروا استعدادا كبيرا لملاقاة المسلمين خاصة عندما شاهدوا لويس بنفسه حاملا سلاحه ليكون قدوة لهم كما قدمت بعض السفن الحربية الموجودة في عرض البحر المشاركة في القتال واعتلى الفرسان ظهور جيادهم وهم يحملون أسلحتهم التي كانت تلمع من شدة بريقها وقد انضم إلى الملك لويس في هذا ملك نافار وملك صقلية والكونتات والبارونات الآخرين . وتقدم الجميع والتفوا حول معسكر لويس بقرطاجنة وهو المكان الذي دارت فيه المعركة»[3].

١- Nangis, Vie de Philippe , pp. 472-473 .

٢- Nangis, vie de Philippe, pp. 473-474

ويجب أن نتناول رواية نانجي بشأن اشتراك ملك صقلية في القتال بحذر شديد فمن المعروف أن ملك صقلية لم يحارب مع لويس في تونس بل حارب مع ابنه الملك فيليب [١]. كما أن تحديد نانجي لمكان المعركة بأنها بالقرب من اقامة الملك لويس تحديد خاطئ حيث يذكر ابن خلدون أن هذه المعركة كانت بالقرب من الخندق الذي حفره لويس أثناء تحصيناته لمدينة قرطاجنة [٢]. وقد عاد نانجي وتقص روايته بهذا الشأن قائلاً «إن الملك والبرونات تقدموا إلى مكان مهدم من اطلال قرطاجنة وأقاموا فيه تحصيناتهم ومعسكرهم ولم يكن للمسلمين فيه أي خيام أو جند الأمر الذي بعث الاطمئنان في نفس لويس، وعين الكونت أليسون Alison قائدا ومعه مقدم الاسبتارية [٣]، وعدد كبير من الأمراء، والمندوب الخاص عن مدينة سان دينس والذي كان يشغل منصبا كبيرا في قيادة الحملة وكان يسمى لوري فلام Louri Flame ويضيف نانجي قائلا «إن هذا الرجل كان بمثابة العلامة الرئيسية للمعركة»، ويتضح من رواية نانجي أن الصليبيين هم الذين اختاروا ميدان المعركة هذه المرة ويرجع ذلك لأن المسلمين قد سيطروا على كل المواقع الحصينة التي وجدت بها معسكرات للصليبيين ، وأنهم ضيقوا عليهم الخناق لدرجة أنهم كانوا يبحثون عن أي موقع لايوجد به تحصينات اسلامية في الوقت الذي كانت أحوالهم تزداد سوءا بسبب تزايد عدد المرضى داخل السفن أو داخل القلعة وسقوط عدد كبير منهم موتى بسبب عدم وجود أي اسعافات ، بالإضافة إلى انعدام الأقوات والمساعدات الخارجية ، وتزايد ضغط المسلمين عليهم، وخاصة الجنود السودانيين الذين كانوا يزأرون كالوحوش الضارية [٤]. وبدأوا يتصيدونهم في الشوارع، وفي خضم هذه الأحداث كان المستنصر حاملا السلاح مع جنده كي يشد من أزرهم ويصف لنا ابن خلدون أحداث هذا الصدام «بأن المسلمين تقدموا وسلكوا طريقا في البحيرة، وكانت مجاورة لموقع الصليبيين وهاجموا فجأة مقدمة الجيش المسيحي، وقد تمكنوا من أن يغتنموا هذه الفرصة على أحسن وجه وسلبوا منهم الكثير من الغنائم» [٥]. ولما شعر الفرنج بتطويق المسلمين لهم أرسلوا فرقة

١- سوف أتناول هذه الأحداث بالتفصيل في الفصل الخامس من الكتاب

٢- ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢ .

٣- مقدم الاسبتارية هو أحد القادة الاثنى والثلاثين الذين قدموا من عكا لمشاركة لويس في الحملة أنظر
Eracles, Op. cit., p. 458

٤- موبروند : الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٣٥٣ -٣٥٤ .

٥- ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٢٩٢

لفرض حصار حول البحيرة وبعثوا فيها بالرماة للتصدي للمسلمين وقطع الطرق عليهم، حتى يكفوا عن مهاجمتهم . خاصة وأن الصليبيين لم يتصوروا مباغتة المسلمين لهم من هذه الناحية وحصارهم بهذا الشكل . فكان عنصر المفاجأة هنا من أهم الأسباب التي أحدثت الاضطراب في صفوف الجيش الصليبي في هذه الجولة من الالتحام المباشر بين الطرفين

وفي مساء يوم الثلاثاء ٦ أغسطس ١٢٧٠م / ١٥ ذي الحجة ٦٦٨هـ زحف المسلمون بقيادة يحيى بن صالح [١]، وهجموا على معسكر الصليبيين بقرطاجنة وتمكنوا من قتل ما يقرب من خمسمائة جندي كما حطموا عددا من الأبنية التي كان لويس قد شيدها بعد احتلاله الميناء كذلك هدموا الخندق الكبير الذي حفره لويس قرب معسكره[٢] ويشير « نانجى » أن هذه كانت الساعات الأولى للمعركة إلا أن الصليبيين بعد ذلك سرعان ما تصدوا للتونسيين، وتمكنوا من جمع شتات جيشهم ، وكثفوا من استعدادهم البحري ففي نفس الليلة وبعد ساعات قليلة من هجوم المسلمين عليهم أغار الصليبيون على المعسكر الإسلامي وحدثت معركة أخرى ضارية بين الطرفين قتل فيها عدد كبير من المسلمين والمسيحيين [٣]

وحول سير الأحداث في هذه الجولة الثانية من القتال وردت اشارات متفرقة تفيد أن المستنصر الحفصي عندما شاهد انقلاب الموازين في هذه الليلة وأن الصليبيين قد التقطوا أنفاسهم قليلا استعد للهروب إلى القيروان وفقا لرواية ابن خلدون [٤]، في حين يذكر أحد المؤرخين المحدثين أنه فعلا رحل إلى القيروان ولكن ليس هروبا من ساحة القتال أو تنصلا من المسئولية الجسيمة الملقاة عليه، ولكنه فقط أراد أن ينقل حلبة القتال فنحم إلى القيروان لظروف عسكرية أفضل [٥]، هذا بينما يذكر ابن القنفذ «أنه فكر في أثناء هذه الأحداث على

١- يحيى بن صالح هو نفس الشخصية التي لعبت دورا هاما أثناء صراع المستنصر مع العربان في بداية توليه الحكم . انظر اليعقوبي، نثر الجمان ، ج١، ورقة ١٩٢ .

٢- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩٢ ، ابن رسول : نزهة العيون، ج٤ ، ورقم ١٩٨-١٩٩

٣- Nangis, vie de Philippe, 472-473 .

٤- ابن خلدون : المصدر السابق، ص٢٩٢ .

٥- محمد مزالي وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ص١٨٦ .

سكنى قسنطينه وأراد نقل ذخائره وأهله إليها وأنه احتزن بها أربعين ألف قفيزا[١] من القمح وأمثالها من الشعير وشرع في إصلاح أسوارها»[٢]، وتؤكد الاشارات السابقة أن المستنصر لم يكن صبورا أو صادقا في الدفاع عن تونس، ولم يكن يفكر إلا في مصلحته الذاتية، إذ كيف يفكر في الرحيل إلى القيروان دون أي اشارات مسبقة من قبل المؤرخين المعاصرين من انماسين عن وجود استعداد عسكري هناك لملاقاة جيوش الحملة؟ وكيف يتخلى عن قرطاجنة ويتركها نهبا للعدو؟ وكيف يترك جيشه ممزقا على أرضها بعد غلبة الصليبيين عليه في هذه الجولة من الصراع باعتراف المؤرخين المسلمين أنفسهم، أن نقله ميدان المعركة إلى القيروان أمر يحيطه الكثير من الشكوك حول حقيقة نية المستنصر في الدفاع عن تونس

أما ما ذكره ابن القنفذ عن قسنطينة، فعلى الرغم من أنها ضمن مناطق نفوذ المستنصر ببلاد المغرب إلا أن هذا المؤرخ لم يذكر أن صاحب تونس قد اهتم بأمر شعبه مثلما اهتم بأهل بيته، أي اهتم بمصالحه الشخصية قبل أي شئ ، وكل تصرفاته في هذه الظروف الحرجة من مصير تونس تدعو إلى الشك وعدم الثقة في نيته . وأرجح أنه كان يعمل لنفسه أولا وأخيرا، وأن مسألة فراره أو رحيله إلى القيروان أو قسنطينه كان أمرا معدا له من قبل، فالمدينتان من أوائل مدن بلاد المغرب اللتان دانتا للحفصيين بالولاء والطاعة بعد انهيار ملك الموحدين [٣]، لذلك أعد المستنصر لنفسه مقرا وبديلا آخر يكون أكثر أمنا وسلاما من تونس . إذا دارت عليه الدائرة هناك. وهذا ما أكده أحد المؤرخين الغربيين القدامى وهو نانجي من أنه ما أن دارت الدائرة على صاحب تونس حتى هم بالفرار أملا في النجاة [٤]

١- القفيز : هو مكيال الحبوب وقفيز الأرض هو مساحة ١٤٤ ذراع ، انظر جبران مسعود، الرائد، ج٢ ، ص١١٩١

٢- ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص١٣٢ .

٣- بن أبي دينار : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس ، ص٢٧٦ ، الزركشي : تاريخ الدولتين، ص٢٧ وأيضا ابتسام مرعي : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ص١٨٨-١٨٩، عبد العزيز سالم المغرب الكبير، ص٨٧٦

٤- Nangis, Vie de Philippe , pp. 472-473 , Nangis, Vie de Saint Louis, p. 455

وعلى أي الأحوال فقد استمرت المناوشات بين المسلمين والصليبيين على أرض قرطاجنة وكانت الحرب سجالا بينهما، سقط فيها عدد كبير من قادة المسلمين وسادة الفرنج، يذكر نانجيه أنه سقط ما يقرب من ثلاثة عشرة من كبار القوم في ميدان المعركة ، ومنهم يوحنا دى روسليه John de Rosliat وكاستيليان دي بيوكيريه Castelian de Biokeray وقد حملا إلى الكنيسة المقدسة لاجراء الطقوس الدينية عليها قبل دفنهما»[1] ويستطرد قائلا أنه من كثرة عدد القتلى عجز الأحياء عن دفنهم، خاصة وأن المرض كان يشتد وبصورة خطيرة بين الباقين وتساقط الشباب من حملة السلاح أما صرعى الحرب أو من المرض أو بسبب حرارة أغسطس الشديدة وأصبح الأحياء عاجزين عن انقاذ المرضى لدرجة أن حفائر المتاريس التى صنعت لحفر الخندق حول معسكر الصليبيين استغلت قبورا لموارة الجند المسيحيين الذين ملأتها جثثهم[2] .

وإن دل هذا الوصف على شئ فإنما يدل على انهيار الروح المعنوية لدى الصليبيين وتفكك جبهتهم من الداخل نتيجة تفشي الأمراض ثم إن سوء أحوالهم الصحية طغى على فرحة احراز أي نصر كان يمكن أن يحققوه على المسلمين. كذلك أشار عدد كبير من المؤرخين المسلمين «أنه في هذه المعركة قتل عدد كبير من المسلمين ودارت عليهم الدائرة ، وكانوا يغلبون ويفقدون المزيد من أراضيهم لولا أن أتاهم بالله بالفرج وهو تفشي المرض بين صفوف العدو بصورة شلت حركتهم»[4].

ويتضح من العبارة السابقة تقاعس القوى التونسية عن الاستمرار في القتال وأنه لولا المرض الذى أصاب العدو لربما كانت النتائج أكثر سوءا بالنسبة لتونس فقد كان انتشار المرض بين الجنود بمثابة المنقذ لها من الضياع .

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 472–473 , Nangis , Vie de Saint Louis, p. 455

٢- Nangis, Vie de Saint Louis , p. 455 , Joinville, Vie de Saint Louis, p. 474

٣- موروند، الحروب المقدسة، ج٢ ، ص٢٥٦ .

٤- العيني، عقد الجمان، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٥٥٨ ، ابن رسول، نزهة العيون، ج٢ ، ورقة ١٩٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢، ص٦٥٣ ، الكتبي، فوات الوفيات ، ج١، ص٨٤-٨٥، ابن القنفذ، الفارسية ، ص١٣٢ .

وقد تعرضنا من قبل لقضية انتشار الوباء في تونس وقت وصول الحملة حيث اختلفت المصادر الإسلامية والمسيحية في تحديد نوع هذا الوباء ومدى خطورته ، فمنهم من ذكر أنه وباء ومنهم من يقول أنه حمى وفريق ثالث أشار إلى أنه دوسنتاريا كما وجدت فئة أخرى أشارت إلى انتشار مرض بتونس دون تحديد نوعه [١]

وقد أثبتنا أن التقدم الحضاري الذي شهدته تونس في عصر المستنصر الحفصي على الرغم من موقعه المتحادلة حيال الحملة ينفي وشدة انتشار أمراض معدية أو أوبئة في البلاد كما أننا لم نعثر في بطون المصادر الإسلامية والمسيحية المعاصرة للفترة موضوع الدراسة أو المتأخرة عنها نسبيا ، عن أي اصابات للتونسيين بمثل هذه الأمراض إلا ما ذكره ابن القنفذ «من أنه في عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) شمل الناس بتونس وغيرها مرض، واعتل السلطان المستنصر أياما ثم أفاق وكان يقال أن سببه ما «أو ماء» تأدى إلى أفريقيا من زخامة[٢]، قتلى بغداد حين فعل التتار ما فعلوا»[٣].

ويتضح مما سبق أن هذا المرض كان قبل قدوم الحملة إلى تونس بحوالي اثني عشر عاما فلو كان تأثيره لايزال موجودا ، لما سكتت المصادر ولا شارت إليه من قريب أو بعيد مع حصر أسماء من راحوا ضحيته من التونسيين، فلم تذكر المصادر إلا أسماء الصليبيين من قادة وجنود الحملة الذين فتك بهم المرض، لأنه لو كان هناك وباء أو مرض معد فهل من المعقول أن يصاب الصليبيون وهم على بعد أميال كثيرة من تونس ولم يكونوا قد وصلوا إليها بعد في حين لم يصب به أحد من التونسيين .

١- أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج٢ ، ورقة ٣٥٩ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص١٢٨ ، العيني : عقد الجمان، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٥٥٨ ، ابن وصول: مرفة العيون ، ج٣ ، ورقة ١٩٨-١٩٩ ، الكتبي : فوات الوفيات ، ج١ ، ص٨٤-٨٥ ، ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢ ، ص٣١٩ ، المقريزي، السلوك ، ج١، ق٢، ص٢٠٥ أنظر أيضا

Eracles, Op. cit., p. 459 . Matt. of West ., p. 453 .

٢- المقصود بالزخامة رائحة الجثث المتعفنة لنوع نتن أو رائحة أي لحوم تلقى دون طريقة معينة لحفظها من العفن : أنظر جبران مسعود : الرائد، ص٧٧٧، ابن القنفذ : الفارسية، ص١٢٦ ، ابن منظور : لسان العرب المحيط، ج٢ ، ص١٨

٣- ابن القنفذ : الفارسية ، ص١٢٦

والحقيقة أن الطاعون الأسود انتشر بالفعل في أفريقيا وأجزاء كثيرة من المعمورة وأصيبت به تونس بصفة خاصة[١]، أما حقيقة هذا المرض الذي انتشر بين الصليبيين ابان الحملة فمرجعه ما ذكره وليم دي نانجي وكان شاهد عيان الحملة إذ يقول «أنه في الطريق من سردينيا إلى تونس هبت عاصفة قوية على أسطول المسلمين استمرت أكثر من يومين هلك فيها عدد من الجنود وانتشر بينهم المرض، وبعد أن هدأت العاصفة قام القادة بتفقد الجند وهم على بعد اثني عشر ميلا من قرطاجنة ولم يكونوا قد نزلوا بها بعد، اكتشفوا أن ما يقرب من ٥٢٥ جندي داخل السفن قد أصيبوا بمرض الدوسنتاريا الحاد، الأمر الذي جعل لويس يرجئ كل خططه بعض الوقت ليعالج مرضاه، وأرسل خفية قطعا صغيرة من أسطوله لاحضار بعض الاسعافات والأطعمة »[٢]. وعلى الرغم من أن نانجي لم يعلن صراحة عن سبب تفشي هذا المرض إلا أنه إذا كان مرض الدوسنتاريا فمن المعروف أنه إذا انتشر فجأة بين جمع كبير فهذا يكون نتيجة تناولهم أطعمة فاسدة أو ملوثة وتصبح الدوسنتاريا عدوى إذا أصيب الطعام بميكروب شخص مريض بها أما الحمى فمن المعروف علميا أن أي مرض يصاحبه ارتفاع في درجة الحرارة يصبح حمى ولكن ليست كل حمى معدية لأن الاشارات عن المرضى اختلفت فمنهم من يقول أنهم أصيبوا بالدوسنتاريا والبعض الآخر يقول انهم أصيبوا بالحمى، أما الوباء فهو ليس مرضا محدودا ولكنه ميكروب إذا انتشر في مكان أتى على كل من فيه إن لم توجد وسائل العلاج الوقاية المناسبة.

وبعد كل ما سبق أرجح أن سبب انتشار المرض بينهم نجم عن طول الانتظار بميناء اجمورت وتأخر وصول الامدادات التي كان لويس قد اتفق عليها من قبل مع بعض حكام أوروبا، الامر الذي أتى على كميات كبيرة من الأطعمة الصالحة للأكل فاضطر الجنود بعدها إلى أكل الأطعمة المملحة مثل اللحوم وغيرها التي لم تكن صالحة لأكلها بعد، ففتكت بتلك الأمراض المعوية بين الجنود كافة دون أن يدروا أنها هي السبب فلما وصلوا تونس وتعذر

١– أبو زكريا يحيى بن خلدون بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد الحاجيات، الجزائر ١٩٨٠، ص١١٩ ، أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، ص١٩٩ .

٢– Nangis, vie de Saint Louis, p. 443 .

عليهم الحصول على الأطعمة لرفض الشعب التونسي البيع لهم كما سبق القول اضطروا إلى الاستمرار في أكل هذه اللحوم العاسمة في الوقت الذى اشتدت فيه حرارة شمال أفريقيا خلال شهرى يوليو وأغسطس مع استمرار القتال وعدم تعودهم على قسوة مناخ تونس في فصل الصيف فأصيبوا أيضا بضربات الشمس مما أدى إلى تفاقم الأزمة، أما لماذا لم يصب شعب تونس بهذه الأمراض ، فهذا مرجعه إلى تعودهم على طبيعة بلادهم ومعرفتهم بالأماكن الحصينة التي تقيهم من الحر وقت القتال بالإضافة إلى توافر الأطعمة الطازجة الصالحة للأكل وهم يحاربون على أرضهم وعدم اضطرارهم إلى أكل الأطعمة المحفوظة أو المشكوك في صلاحيتها ، إذن فالأمر ليس وباء بل هو أمراض معدية مثل الدوسنتاريا وضربات الشمس وهو ما أطلق عليه لفظ الحمى ومما يدعم هذا القول أنه لو وجد بتونس وباء حقيقي لتناولته كافة المصادر بالتفصيل ، ومما يدعم أيضا الرأى القاطع بنظافة تونس من أى أمراض معدية هو ما أشيع عن قبول لويس لبعض العتاد والمؤن التي أرسلها المستنصر الحفصي له بفرنسا قبل قدوم الحملة وكانت على شكل هدية إليه ، فلو كان بها وباء لانتقل على الفور عن طريق هذه الإمدادات ، ولكن قبول لويس لهذه الهدية أن صح التعبير دلالة واضحة على نظافة وسلامة تونس من أى أوبئة أو أمراض معدية [1] ، وثمة سبب آخر يؤكد نظافة تونس من الأمراض المعدية هو أن تونس كانت مرتعا خصبا يعج بالتجار المسيحيين من كل دول غرب أوروبا ، فلو كان بها شئ مثل هذا لوصل إلى مسامع قادة الحملة، ولايمكن أن تعد أوروبا حملة بأجمعها تكون وجهتها بلدة تنتشر به الأوبئة والأمراض المعدية

ومهما يكن فقد كانت هذه الحالة المشعورة بين صفوف الحملة سببا مباشرا في فشلها ، فعلى الرغم من رجحان كفة الصليبيين على المسلمين أثناء المعارك المباشرة بينهما إلا أن الفرنج لم يتمكنوا من الاستمرار في القتال وانتهاز فرصة اختفاء المستنصر من الميدان بل انهمكوا في أمر مرضاهم خاصة عندما أصيب يوحنا الحزين ابن الملك لويس بنفس المرض ، ومات بقرطاجنة ونقل على سفينة خاصة إلى فرنسا لدفنه هناك. وقد تألم لويس كثيرا لموت ابنه، وانهارت معنوياته إلى أبعد الحدود [2] . كما مات أيضا المندوب البابوى للحملة، والكونت

١- Nangis, Vie de Saint Louis , p. 448 .

٢- Eracles, Op. cit., p. 458 , Michaud, Crois VI, p. 201 .

انظر أيضاً جوزيف نسيم العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٣٢ ، موروند الحروب المقدسة ، ج٢، ص ٢٥٥ .

دي نامــورس De Namours والكونت دي فـاندومـا De Vandoma والكونت دي مـارشـال، ودي مرجوا ، ودي بياتا وغيرهم من كبار السادة والأشراف في فرنسا[١] وحاول لويس جاهدا أن يتمالك نفسه أمام هذه الكوارث التي حلت به وبرجاله وأن يخفي نبأ وفاة ابنه عن أخيه شارل حتى لايتشائم أو يتراجع في مسألة قدومه ومساعدته [٢].

وكان من سوء حظ الصليبيين أن أصيب لويس نفسه بالمرض وقد أحس بالألم يدب في جسده أثناء احتضار ولده وشعر بألم شديد في معدته وإسهال كما ارتفعت درجة حرارته وأحس بدنو أجله فحمل إلى فراشه وهو يتحامل على نفسه من شدة الألم ولم يستسلم المرض بل كان يتجول في معسكرات الجنود المتناثرة حول الميناء ويصدر الأوامر لهم كعادته وقد اجتمع الأطباء حول لويس ، ونصحوه بالبقاء في فراشه، بعد استشرى المرض في كل جسده، ولكن لم يكف عن جهاده في سبيل القضية التي كرس حياته من أجلها وحتى آخر أيامه وفي هذا الصدد يذكر جوانفيل «أنه الآن صدقت رؤيتي التي رأيتها قبل رحيل لويس إلى تونس من أن شرورا عظيمة سوف تحدث للويس والحملة» وعلى الرغم من اجماع المصادر الغربية على اصابة لويس بنفس المرض الذي أصيب به جنده [٣]، إلا أنه ثار خلاف بين المؤرخين العرب حول سبب وفاته ، يذكر ابن خلدون «أن سبب وفاة لويس لم يكن المرض بل أنه أصبح ميتا حتف انفه ، ويقال أنه أصابه سهم غرب [٤]، في إحدى المعارك فمات[٥]» ويقول المقري «أن المستنصر دس إليه سيفا مسموما من سله أثر فيه سمه وقدمه رسولا إليه بعد أن جعل من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره وقال للرسول أن الفرنسيس رجل كثير الطمع ولولا

١- Michaud , p. 201 , Cf. Also , Guizot, Op. cit. p. 173 .

٢- Nangis , Vie de Saint Louis , p. 457 , Eracles , p. 458 Joinville, Op. cit., p. 299

٣- Anonymous, Gesta Sancti Ludovici mori , R.H.G.F t XX., p. 56 , St pathus , Vie de Saint Louis , R.H.G.F t XX p. 103 , Chartres, de Vita et actibus regis Francorum Ludovici , R. H. G F ., t XX, pp. 37-39 , Eracle Op cit., p. 459 , Cf also Hassall , Op. cit., pp. 37 39 , Guzot, Op. cit., p. 138 , Archer and kingsford, p. 401 , Sejor , St. Louis pp. 155-157

٤- المقصود بسهم غرب أي لايعرف جهته ولا من أطلقه .

٥- ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص٢٩٢ .

ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره وأنه سيرى السيف ويكثر النظر إليه فإذا رأيته فعل ذلك فشرعه من عنقك وقبله، وقل له هذه هدية مني إليه، لأن من أدبنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعاود النظر إليه بالقصد فلابد أن يكون له، ويحرم علينا أن نمسكه ، لأن ما أحبه المولى يكون على العبيد حرام، وتكراره النظر إليه دليل على حبه له ، ففرح النصراني بذلك وأسرع الرسول العود إلى سلطانه فسل النصراني السيف فتمكن السم في لويس فمات في الحين وفرج الله تعالى عن المسلمين »[1] . وقد أكد ابن أبي دينار هذه الرواية قائلا «أن المستنصر أرسل إليه مع ابن جرام الدلاصي سيفا مسموما كان فيه مهلكه »[2] في حين يذكر ابن أبي رسول «أن المسلمين تمايلوا عليه وحاصروه حتى قتل بسهم منهم»[3] ، هذا في الوقت الذي وردت فيه بعض الاشارات من «أنه مات بمرض الدوسنتاريا الذي تفشى بين جنوده وأن الله جعل مهلكه أرض المعلقة» [4].

ومهما كانت الأسباب ، فقد حاول لويس جاهدا ورغم المعاناة الشديدة من المرض أن ينقذ جيشه من الهلاك ، ولم ييأس من مقدم أخيه، ورغم شدة الألم كان يتحامل على نفسه، ويتفقد مرضاه ، وكان يشد من أزر الجميع بكلماته الطيبة ومجيئه وصلته أخبار أكيدة بقرب دخول شارل كونت انجو ساحل تونس فابتهج لويس كثيرا لذلك ولكن صحته كانت في تدهور مستمر، ولزم فراشه تماما ، ولم يعد قادرا على الخروج من خيمته وفي هذا الصدد يقول وليم دي سان باثوس [5]، «لقد كان لويس يضع أمامه الصليب المقدس ويرفع يديه إلى السماء

١- المقري : نفح الطيب، ج٢، ص٣٢٤ .

٢- ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٣٦ ، محمد الباجي المسعودي : الخلاصة النقية، ص٦٢

٣- ابن رسول : نزهة العيون، ج١٢ ، ورقة ١٩٩ .

٤- ابن الفرات : تاريخ الدول ، ج١١ ، لوحة ٣٧ ، العيني : عقد الجمان ، ج٢ ، ق٣ ، ورقة ٥٥٨ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٢١٩ ، ابن ابي زرع : الانيس المطرب ، ص٢٧٨ ، المقريزي، السلوك، ج١، ق٢ ، ص٦٢٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٩٦ ، أنظر أيضا :

Nangis, Vie de Philippe, pp. 470 - 471 , Matt of West , Op. cit., vol II, p. 540 , Michaud, Crois VI , p. 201

٥- هو أب الاعتراف لمارجريت زوجة لويس التاسع وأيضا أب الاعتراف لابنتها بلانش ومارجريت هي ابنة الكونت ريمون كونت بروفانس ، وقد تزوجها لويس عام ١٢٣٤ م ورافقته في حملتيه على مصر وبلاد الشام=

ويتحدث بصوت عال كله يطلب المعونة والرحمة من الرب. وكانت جيوشه جميعها في صمت حزين. ولم يكن خبر قدوم شارل يصحبهم قدر رغبتهم في شفاء لويس. وعندما تيقن لويس من دنو أجله استدعى ابنه الأكبر فيليب الثالث، ووجه إليه وصيته وتعاليمه الخاصة بالحكم وقيادة صفوف الحملة في هذه المرحلة الحرجة وقد شملت تلك الوصية المعالم الواضحة الدقيقة التي سار عليها لويس سواء في حكم فرنسا أو في قيادة الحروب من أجل القضية الصليبية ومن أبرز هذه الوصايا أنه طالبه بتجنب اقتراف الذنوب مع التحلي بالصبر والاخلاص لله، والاستقامة والحلم مع الرعية وحسن الصحبة من رجال الدين والعلمانيين ، وألا يظلم أحدا ولايغتاب انسانا وأن يكون عادلا مستقيما محافظا على الصلوات بارا بوالديه ، صادقا في تخليص الصليب من أيدي المسلمين، متعاونا مع أي أمير مسيحي يطلب منه المساعدة (١).

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على ما سبق أن أكدناه في مستهل هذه الدراسة، من أن لويس التاسع قد تشبع بالروح الدينية إلى حد التزمت وأصبحت القضية الصليبية هي القضية الأولى التي كرس حياته من أجلها وفي سبيلها قام بثلاث حملات كانت آخرها تلك الحملة الفاشلة ضد تونس .

وعلى أي الأحوال فبعد أن انتهى من وصاياه لابنه، اتجه لويس بالدعاء للقديس دينيسيوس St. Deo Nuss الذي اعتاد أن يستغيث به في أوقات الحرب والمحن وأخذ يطلب شفاعته وكانت كل دعواته للقديسين أن يحمي الله عسكره وينقذهم من هذه المحنة التي هم فيها ويقول جوانفيل « أنه كان يكثر الدعاء ويطلب الشفاعة من القديس دنيس ، وكان يردد أيها الرب هبنا القوة التي نستطيع بها ازدراء متاع الدنيا وتقبل كل مصيبة . كما طلب أيضا شفاعة القديسة جنفييف St. Jeanfiere وكان هذا من عادته عندما تحل به المحن والكوارث خاصة بعد أن أحس بدنو أجله.

= أما حملته الثالثة على تونس فلم ترافقه فيها بل بقيت في فرنسا وهي أم يوحنا الحزين الذي مات بتونس. أنظر St. Pathus, Mirocles de St. Louis , XI- XVI , Michaud , Cros., VI , p. 212

١- Jointille , Op. cit., p. 300 , St. Pathus , Vie de St. Louis , p. 103 , Chartres, de Vita et actibus regis Francorum Ludo Vici , R.H.G. F, t XX, p. 39 , Anonymous , Gesta Sanctic Ludovici noni , R. H. G. F, t. XX, p. 56

بعد ذلك طلب لويس من المحيطين به أن يضعوه على فراش من الرماد ووضع يده على صدره على هيئة الصليب وذلك يوم الثلاثاء ٢٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٤ محرم ٦٦٩ هـ ثم اتجه ببصره إلى السماء وظل هكذا حتى ظهر يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ممحرم ٦٦٩هـ وكان كلما تمكن من الكلام يقول « يا إلهي اجعلنا أن نحتقر المتع الدنيوية وألا نخاف البته من محرنات العالم وشدائده أيها الرب كن مطهرا لشعبك بالقداسة وحافظا اياه من الشرور ويقول جوانفيل أنه كان يردد أنني ارى أورشليم ، سنتوجه إلى بيت المقدس، يارب دعنا نعمل باسمك على نشر المسيحية في تونس وكان يتفحص كل من حوله ممن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة إلى أن وقع اختياره على أحد الرهبان المبشرين لهذا الغرض في تونس وحدثه بما يدور في نفسه بهذا الشأن»[١].

وهنا تتضح نوايا لويس، وهو يقترب من الموت ، في العمل على غزو بيت المقدس، ونشر المسيحية الغربية بين المسلمين ، وفي الحقيقة لايمكن الفصل بين هذين الأمرين ، باعتبار أنهما يشكلان جناحي الحركة الصليبية العسكري والتبشيري.

وفي اللحظات الأخيرة من حياة لويس كان ينظر إلى كل من حوله بعذوبة وأحيانا يبتسم إلى أن قال «ادخل إلى بيتك يارب واسجد في هيكل قدسك» وفي تمام الساعة التاسعة من مساء يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ صعدت روحه إلى السماء» . ويذكر نانجي أن لويس حمل بعد وفاته ودفن باحدى ربوات قرطاجنة ، في حين يذكر أحد المؤرخين الحديثين أن لويس نقل بعد ذلك إلى فرنسا ودفن هناك ، وفي عهد المشير أحمد باشا الحسيني استطاع الفرنسيون الحصول على تصريح من الحكومة التونسية باقامة كنيسة في المكان الذى مات فيه لويس وهذه الكنيسة لازالت موجودة ومعروفة بكنيسة القديس لويس ومكانها بجوار متحف الآثار القديمة الذى أنشأه القسيسون المعروفون بالآباء البيض[٢]

١- Wieggler , Op. cit., p. 317 , Matt. of West , Op. cit. p. 450 , Cf also Tenison , Op. cit., pp. 34 - 35 , Archer and Kings ford , p. 401 , Hassall, Op. cit., p. 38 , Guizot, p. 138 , Sejor , Saint Louis, pp. pp. 155-157

٢- أنظر Nangis, Vie de Saint Louis, p. 461

وأيضا أبي أبي دينار : المؤنس، ص١٣٦ ، محمد السيد : في التاريخ، ص٢٦٦ .

وعلى الرغم من اتفاق غالبية المصادر الأجنبية على أن وفاته كانت يوم ٢٥ أغسطس إلا أنه ثار الخلاف بين المؤرخين المسلمين بخصوص هذا اليوم فيذكر ابن أبي دينار » أن وفاته كانت يوم ١٠ محرم ٦٦٩هـ / ٣٠ أغسطس ١٢٧٠م » ، في حين يذكر المسعودي أن وفاته كانت في ١٠ محرم ٦٦٨هـ / ١٠ أكتوبر ١٢٦٩ م، أما الكتبي فقد ذكر تاريخ الوفاة عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢ م على اعتبار أنه أورد تاريخ الحملة كله تحت أحداث عام ٦٦١هـ ، وسار على نهجه المقريزي . أما أبو الفدا فقد أورد الوفاة عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩ م دون تحديد اليوم أو الشهر ، وأيده في روايته ابن الوردي [١]، في حين ذهب ابن أبي زرع إلى تسجيل تاريخ منفرد عن وفاته مبينا أن ذلك كان في ٢٥ ربيع آخر ٦٦٩هـ ١٢ ديسمبر ١٢٧٠م [٢].

وعلى أى الأحوال فمن المعروف من رواية شهود العيان لهذه الحملة[٣]، وعلى رأسهم وليم دي نانجي أن وفاته كانت بعد نشوب أول المعارك المباشرة بين المسلمين والصليبيين أي بعد ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ ذي الحجة ٦٦٨هـ وأنه حين مرض ابنه يوحنا ومات، ذكر هذا المؤرخ أن لويس أصيب بنفس المرض الذي لم يمهله أكثر من أسبوعين ومات به ، أما رواية ابن أبي زرع فهي بعيدة عن الواقع لأنه إذا كان قد أصيب بالمرض في محرم فمن غير المعقول أن يطول به المرض طوال أربعة شهور أى إلى ربيع آخر لأن هذا المرض الذى أصابهم من اسهال وحمى كان يفتك بمرضاه بسرعة ، خاصة وأنه لم تكن قد توافرت بعد سبل العلاج السريعة لانقاذ لويس أو غيره من المرض أضف إلى هذا ، عدم تأييد أي من المؤرخين المسلمين والمسيحيين لرواية ابن أبي زرع مما يؤكد عدم صحة هذا التاريخ حول وفاة لويس.

هذا ويرى العديد من المؤرخين الحديثين ممن اهتموا بتاريخ الحركة الصليبية على وجه العموم، ودور فرنسا فيها بوجه خاص، أنه بوفاة لويس التاسع تلاشي الأمل الأخير الذي كانت تتعلق به مملكة اللاتين في الشرق. فكان ينظر إلى ملوك فرنسا على أنهم المدافعون

---

١ أبي أبي دينار، المؤنس، ص١٢٨ ، المسعودي، الخلاصة النقية، ص٦٢ ، الكتبي؛ فوات الوفيات ، ص٨٥ ، المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٠٢ ، الخطط ، ج١ ، ص٢٣٣ ، أبو الفدا المختصر ، ج٣ ، ص١٩٦ ، أبو المحاسن المنهل، ج٣ ، ورقة ٢٥٩ ، العيني، عقد الجمان ، ج٢ ، ق٢، ورقة ٥٥٨ ، وأيضا محمد العبيبي : لب التاريخ ، ص٢٦٦

٢- ابن أبي زرع : الانيس المطرب ، ص٣٧٨ .

٣- Nangis, Vie de Philippe, p. 457 , Vie de Saint Louis , p. 461 .

العقيقيون من مصالح بيت المقدس[1]، فيعد وفاته مباشرة لضمحل الحماس الذي كان واضحا في نفوس الجنود ولو إلى حين . وعلى الرغم من احساسهم باضطراب الجيوش التونسية في مواجهتهم وسهولة احراز انجاز عسكري ضدهم إلا أن الأمور قد احتلت وكان العبء ثقيلا في افراجهم من هذه الناحية .

ذلك أنه منذ أن تولى فيليب الثالث ابن لويس التاسع ووريثه على العرش [2]، قيادة الحملة لم يكن يشغله شيئا قدر العمل على ايقاف المرض عند حد . لذا أظهر براعة في احتواء الموقف وعقد اجتماعا حضره كافة الأمراء والبارونات كان أشبه بمظاهرة سياسية ، وقد استعرض فيه خطته القادمة بشأن الأوضاع الراهنة لقواته، ولم يعارض المجتمعون خططه الأمر الذي مكنه من التصرف في الموقف دون وجود ما يشغله أو يثنيه عن عزمه ، حقيقة لقد تركت وفاة لويس فراغا بين القادة ولكن هذا لم يؤثر على نجاح سياسة ابنه فيليب ولم ينجم عنه اضطراب بين صفوف الجند»[3].

ويقول نانجي «أن المسلمين لم يستفيدوا من موت لويس وشلت حركتهم عن الاغارة على جيوشنا ولم نفاجئ منهم بأي دمار أو خراب يحل بين صفوفنا »[4]. ويستطرد قائلا «انه أمر غريب أن يقف المسلمون عند هذا الحد بينما كل الظروف في صالحهم فقائد الحملة وأشد المتعصبين ضد المسلمين قد مات ، والأمراض تفتك بجيشنا والحرارة لايطيقها جنودنا و الأطعمة قليلة، بل ما وجد منها فاسد لايطيق أحد على أكله، فلماذا أهمل المسلمون كل هذا، وتقاعسو وهم ينظرون إلينا دون القيام بأي خطوة ايجابية لصالح بلادهم» [5].

١- Archer and Kingsford . Op. cit., p. 403 .

٢- لقد ثار جدل بين المؤرخين المسلمين حول شخصية فيليب فيذكر ابن خلدون أنه بعد وفاة لويس تولى الحكم ابنه الذي كان قد ولد بدمياط وقد أشرنا من قبل أن الذي ولد هناك ليس فيليب بل يوحنا الحزين الذي توفي أثناء الحملة على تونس، كما أطلق لقب الهاردي وهاردي أي الجسور على فيليب نظرا لاقدامه وشجاعته في تحمل المسئولية بعد وفاة ابيه . أنظر ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢ ، محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية، ص٦٢

٣- Nangis, Vie de Philippe. p. 469 .

٤- Jonville, Op. cit., p. 299 . St Pathus, Op. cit., p. 103 . Anonymous, Op. cit., p. 57

٥- Nangis , Vie de Philippe, p. 471

ومن هذا العرض التفصيلي لأحوال الحملة وما آلت إليه لايسعنا إلا اتهام المستنصر بانتقاص وعدم الحنكة بل والغموض في كل خطواته، خاصة وأن العدو التقليدي له وهو شارل كونت أنجو كان لايزال بعيدا عن الأراضي التونسية ، والفرصة ذهبية أمامه . ففي غضون هذه الساعات القليلة ما بين وفاة لويس ووصول شارل كان بوسعه القيام بعمل عسكري ناجح يصلح صورته أمام حكام المسلمين والمؤرخين المعاصرين له، والتفسير الوحيد لموقفه أن هرب من تونس ورحل بعيدا عن قرطاجنة، وأصم أذنيه تماما عن كل النداءات التي وجهت إليه وربما لم تصل إلى مسامعه وفاة القائد الصليبي نفسه، فلم نستشف من المصادر عربية وغير عربية ما يفيد علمه بوفاة لويس التاسع

هذا في الوقت الذي كان فيه بيبرس في أوج استعداده العسكري للقدوم بنفسه إلى تونس أن احتاج الأمر[١]، ولكن اسعدته كثيرا الأنباء التي أكدت انهيار معنويات الجيش الصليبي، وأراحه أكثر نبأ وفاة لويس[٢] وكان يتوقع من المستنصر القيام بعمل حاسم مستغلا هذه الظروف [٣]، وثمة أحد الآراء الذي رجح أن عدم قيام المستنصر بعمل عسكري ضد الصليبيين احساسه أن مناخ بلاده قام نيابة عنه بما كان يريد القيام به، بمعنى أن حرارة تونس في شهر أغسطس قد أتت على الجيش الصليبي فرأى أنه لا داعي لاستنزاف دماء التونسيين من أجل قضية رابحة مائة بالمائة [٤]، ولكن هل كان المستنصر بمثل هذه السذاجة ؟ وهل من المعقول أن البلاد تعتمد فقط علي مناخها وتضاريسها في الدفاع عن أراضيها ؟ وهل لم يصل إلى مسامعه قرب وصول شارل إلى تونس لينقذ جيش أخيه من الهلاك ؟ بالتأكيد هذا سبب واهي ضعيف لايصلح للدفاع عن المستنصر ذلك أنه كان مدركا لكل ما يفعله ، فلم يتصف بالتهور أو الرعونة مع أعدائه بل كان داهية والأمر كان معدا له تماما وهو عدم التدخل في

١- محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص٦٦

٢- أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٣ ، ورقة ٢٥٩ ، الكتبي : فوات الوفيات ، ج١، ص٨٤-٨٥

٣- Gestes des Chiprois , pp. 198-199 , Eracles, Op. cit., p. 460 , Anonymous , Gesta Sancti Ludovici noni , R. H. G. F., t. xx, p. 56 , Chartres, Op. cit. p. 39 .

٤- Beaulieu , Vita Ludovici noni , R. H.G. F., t. XX, p. 23 , St. Pathus, Vie de Saint Louis ,R. H.G. F., t XX. p. 103

غمار حرب قد تأتي عليه، وتصور أن خرابات قرطاجنة ، ستقر الصليبيون منها وتجعل فرصة الخلاص منهم أمر سهل وحاول جاهدا الوصول إلى حل الأزمة عن طريق سلمي وليكن الصلح وتقديم كافة التنازلات سواء رضي شعب تونس أو رفض ، لما في ذلك من حفاظ على عرشه أمام خصومه بالمغرب .

وبناء على ما تقدم فقد استفاد فليب من هذه الأوضاع وعين على حصار قرطاجنة قادة جدد بعد وفاة عدد كبير من القادة الذين سبق أن عينهم لويس، وسلم أمر حراسة القلعة إلى المارشال شارجيبير Chargimor وقد تميز بالدقة والحماسة في أي عمل يوكل إليه ، فقد كان أحد حراس القلعة من قبل، وكان هذا أول عمل قيادي يكلف به دون أن يشاركه فيه أحد من القادة الصليبيين الآخرين، لذا أصدر أوامره بزيادة تسليح الجنود المحاصرين للقلعة من ناحية البحر خاصة عندما علم بتغير خطط التونسيين في الدفاع وعمل شارجيبير على احكام كل المنافذ المؤدية للقلعة والتي يمكن أن تتسلل إليها القوى التونسية ، كما عين فيليب مجموعة كبيرة من القادة البحريين وأوكل إليهم مهمة حماية ساحل المدينة والميناء وضرورة الاستعداد التام لمواجهة أي هجوم جديد من قبل المسلمين .

واشترك فيليب مع عدد كبير من قادته في وضع خطة محكمة مفادها الاستيلاء على أي سفينة تصل إلى البحر تحمل المؤن والأمتعة للمسلمين بتونس، وقد أنيط بهذه المهمة عدد من البحارة المهرة[1] حيث تشير المصادر العربية المعاصرة أن تونس قد مرت بمحنة شديدة أنقذها الله منها بمعجزة [2]، وذلك لأن الفرنج نجحوا بالفعل في قطع سبل الاتصال مع تونس دون أن يشعر بهم التونسيون المحاصرون لمعسكراتهم ولجئوا إلى المفاجأة والحيل البحرية البارعة لتحقيق أهدافهم . ومما زاد الطين بلة أنه انتشرت الأخبار في تونس تعلن عن قرب وصول شارل عم فيليب ، مما أوقع الرعب في قلب المستنصر والتونسيين، ويذكر نانجي ،أنه في نفس اليوم الذي تمت فيه البيعة لفيليب شوهد عرض البحر وقد غطته أعداد كبيرة من

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 472–473 .

٢- أبو الفدا ، المختصر ، ج٤، ص١٩٦ ، ابن الفرات ، تاريخ الدول، ج١١، لوحة ٣٧، المقريزي، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٥٢ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج١١ ، ص٢٦٩ ، ابن رسول ، نزهة العيون، ج١٢ ، ورقة ١٩٩ ، محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية ، ص٦٢ ، أبو المحاسن ، المنهل الصافي ، ج٢ ، ورقة ١٣٦٠

السفن القادمة بأصوات أبواق الحرب وطبولها تعلن وصول شارل كونت أنجو العدو اللدود للمستنصر وذلك حتى يؤازر أخاه في تلك الظروف الصعبة من تاريخ الحملة ولم يكن قد وصل إلى مسامعه نبأ وفاة لويس [١]، وقد أحدثت هذه الأنباء قلقا كبيرا في الأجواء التونسية بسبب العداء الشخصي القديم بين المستنصر وشارل بشأن قطع المستنصر الجزية التي كان يدفعها لأسرة هوهنشتاوفن من قبل واحتضانه لخصوم شارل، بالإضافة إلى إدراكه لأطماع شارل التي لاتنتهي في الشمال الأفريقي، كل هذا وضع البلاد في مأزق خطير على الرغم من أن تونس لم يكن ينقصها الاستعداد العسكري لملاقاة العدو واستكمال مسيرة الكفاح لحماية البلاد من خطر شارل بصفة خاصة والصليبيين بصفة عامة.

وسوف تثبت السطور القادمة عقم سياسة المستنصر في معالجة الأمور التي ستؤول في نهاية الأمر إلى خلاص تونس من براثن الحملة لا بالكفاح حتى النهاية ولكن بصلح مخزى في حق تونس خاصة وبلاد المغرب بصفة عامة.

---

١ Chartres , De Vita et actibus p. 37 , Anonymous , Gesta Sancti Ludovici noni R.H.G.F, p. 56 , St. Pathus , Vie de Saint Louis , p. 103 , Beaulieu , vita Ludovici noni , R.H.G.F, t. xx, p. 24 , Eracles, Op. cit p. 459 , Wiegler , infidel Imperor , p. 317 Matt of West , vol II, p. 453 , Reinaud, Extr des Hist. Arabes, p. 522

الفصل الخامس

نهاية الحملة الصليبية على تونس
(٢١ نوفمبر ١٢٧٠م / ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ)

الفرنج يستأنفون القتال بقيادة شارل كونت أنجو (٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ) – وصول حملة الأمير إدوارد إلى تونس (سبتمبر ١٢٧٠م / محرم – صفر ٦٦٩هـ) – ترجيح ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين ورجحان كفة التونسيين في النهاية– الصلح بين المسلمين والصليبيين وبنوده– رحيل القوات الصليبية من تونس– رحيل الأمير إدوارد إلى بلاد الشام– ما بعد الحملة

لقد تركت وفاة لويس التاسع أثرا بالغ الخطورة على مصير الجيش الصليبي داخل تونس، وأصبح واجبا على ابنه فيليب أن يواجه التهديدات والمسؤليات الجسام التي واجهته ، خاصة بعد أن انتعش المعسكر الإسلامي وزاد إصرار المسلمين على تخليص تونس من براثن العدو حقيقة أن فيليب لم يجد متسعا من الوقت لخوض غمار معارك حاسمة ضد المسلمين ولكن هذا لم يكن يعني استمرار الوضع على ما هو عليه فيما يتعلق بالمناوشات الباردة. فقد أحدثت أنباء وصول شارل ملك صقلية وكونت أنجو إلى تونس ضجة ضخمة وكانت بمثابة الأمر الذي حسم كل هذه الأحداث ورغم أن وصوله جاء متأخرا إلا أنه كان الحلم الذي عاش من أجله لويس والصليبيين .

وكان وصول شارل يوم الاثنين الموافق ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦ محرم ٦٦٩هـ ، في مظاهرة بحرية ضخمة خرجت على أثرها جموع كبيرة من السفن لاستقباله والاحتفاء به نظرا لمكانته بين زعماء دول غرب أوروبا[1] وفي هذا الصدد يصف وليم دي نانجي لحظة وصول شارل قائلا : أن المسيحيين عندما شاهدوا عرض البحر وقد غطته سفن شارل ارتفعت ضجاة

١- Nangis, Vie de Saint Louis , p. 471 .

صرخاتنا من الفرح وارتاح المسلمون لهذا المنظر ثم تقدم شارل في جمع ضخم من رجاله ونزل من سفينته على رصيف ميناء قرطاجنة القديم وكان الميناء لايزال بأيدينا . ومنذ اللحظات الأولى التي وطأت فيها أقدام شارل أرض المدينة ساوره الشك والقلق حول مصير أخيه وجيشه ، فقد كان الميناء خاويا من مظاهر الاستعداد العسكري، والسفن مهملة ، فأسرع إلى خيمة أخيه لويس فوجده لايزال ممدا على الأرض فوق كومة من الرماد ، فألقى بنفسه على قدمي أخيه يقبلهما وهو يبكي بحرقة بالغة كلها ندم على عدم موافاة أخيه ومساعدته في وقت كان في أمس الحاجة إليه وكان شارل يخاطبه كأنه حيا مسميا اياه سيده وأخاه[1]

وعلى هذا ، فقد كان وصول شارل في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الحملة [2] أمرا له أهمية مما جعله يشعر بالمسؤلية الجسيمة التي ألقيت على كاهله ، خاصة عندما شاهد بريق الأمل في عيون الجنود وابتهاجهم لحضوره [3].

وعلى الرغم من ذلك، لو تتبعنا الاشارات السابقة عن شارل وكيف أنه أهمل نداء أخيه مرات عديدة وكيف أنه لم يفكر إلا في مصلحته الذاتية، لأمكننا أن نستنتج أنه لم يكن الشخصية التي يمكن أن تتحمل كل هذا العبء ، فقد كانت بقايا القوات الصليبية بمثابة التركة المثقلة بالأعباء والهموم، وأدرك بحاسته السياسية صعوبة احراز كسب سريع على حساب المسلمين وجيوش أخيه على هذه الحالة من السوء، حقيقة انه كان يحلم في تأديب صاحب تونس والاستيلاء على ممتلكاته ، ولكن دون تقديم تضحيات كبيرة أو مواجهة هذا الموقف العصيب فمن المعروف أن عداءه القديم مع التونسيين منذ توليته عرش صقلية وامتناعهم عن تأدية الجزية التي كانوا يدفعونها لآل هوهنشتاوفن ، كانت آثاره لاتزال ماثلة في أذهان شارل وتمنى أن يقمعهم ويجبرهم على اعادة دفع تلك الجزية الى خزينته ، هذا بالإضافة إلى آماله العريضة في الاستحواذ على شواطئهم التي كانت تعد مرتعا خصيبا للنشاط البحري والتجاري المتفوق. أضف إلى ما تقدم رغبة شارل في قمع التجار التونسيين الذين كانوا يشكلون خطرا اقتصاديا مباشرا على مصالحه في جنوب ايطاليا وصقلية. فلما وصل شارل إلى تونس وجد أن الأمور لاتسير كما كان يتمنى، بل وجد صحوة اسلامية

١- Wiegler, Infidel Emperor, p. 317 .

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 473 .

٣- Matt. of West ., vol ., II, p. 450 , Cf also , Michaud , Op. cit., p. 210 , Tenison , Op. cit., p. 35 , Bailly , Op. cit., p. 308

كبرى تجتاح البلاد الخلاص منه ومن بقايا جيوش لويس المنهكة كما وجد معسكر أخيه مليئا بالجثث المتعفنة، والقليل الباقي منها فى انتظار الموت بعد أن أقعده المرضُ من الحركة – لكل هذا كان شعوره بالخوف والقلق أكثر من الحزن والألم على وفاة أخيه وأكبر من آماله العريضة فى اعادة فرض سيطرته على تونس(١)، فقد كان شارل يعتبر أخاه بمثابة الملهم له فى خطواته العسكرية الأمر الذى أدى إلى تخبطه وارتجاله فى ترتيب جيوشه فى الساعات الأولى من وصوله بعد أن أدرك أنه لامناص من القتال .

هذا بالإضافة إلى أنه واجه صعوبات نفسية عديدة تمثلت فى الاتهام الذى بدا واضحا فى عينى ابن أخيه فيليب الثالث- وقد حاول شارل جاهدا أن يمحو عن نفسه ما نسب إليه من تقاعس وتراخ عن انقاذ جيش أخيه وتعلل بأن السبب فى عدم مجيئه وجود مشاكل خطيرة تتعلق بأمن ومصلحة بلاده (٢). ولكن ما منعه فى حقيقة الأمر هو انشغاله بتوسيع ممتلكاته على حساب بيزنطه واثارة الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجوس، وادخال الرعب فى قلبه ، هذا إلى جانب ما يتميز به من دهاء وخبث ، فى عدم استعداده لتقديم أى تضحيات من قبله للحصول على مكاسب سياسية فى تونس معتمدا فى ذلك على القوى الصليبية التى أتت مع أخيه (٣).

وعلى الرغم من أن فيليب كان مدركا تماما لنوايا عمه، إلا أنه لم يكن بوسعه عمل شئ سوى التعاون معه من أجل وضع خطة عسكرية ناجحة تخرجهم من المأزق الذى هم فيه .

وكانت أولى الخطوات التى قام بها شارل هى عقد اجتماع عسكرى موسع حضره القادة والنبلاء الفرنج استعرض فيه خطورة الموقف واصرار المسلمين على القتال الأمر الذى يتطلب ضرورة التصدى لهم . وفى نفس الوقت وصلت أخبار أكيدة بقرب قدوم الأمير ادوارد ولى عهد انجلترا بقواته للمساعدة فى احتلال تونس وقد أشرنا من قبل أن وجهة ادوارد الأساسية

١- Nangis, Vie de Philippe, p. 463 .

أنظر أيضاً : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٤٧-١٤٨

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 463 Matt. of West. , vol. II, p. 450

٣- Reinaud , Op. cit., p. 517 .

أنظر أيضا : المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٠٥

كمت بلاد الشام، ففي هذا الصدد يقول متي أوف وستمنستر «أنه لما رحل لويس إلى تونس بقواته الكبيرة ، عزم الأمير ادوارد على حمل الصليب ومساعدته ولكن على أن تكون وجهته عكا. ونظرا لظروف عديدة قرر الأمير ادوارد الرحيل أولا إلى تونس عندما وصلته أخبار أكيدة بموت لويس واستعداد الملك شارل في الرحيل إليها فتوجه ادوارد إلى هناك على أمل احراز النصر وتحقيق مكاسب عسكرية ينسبها إلى نفسه وإلى بلده».

أما عن الظروف التي حدثت لادوارد فترجع إلى تقاعس النبلاء الذين سبق وأن وافقوا على مرافقته في حملته فقد اعتذروا فجأة الواحد تلو الآخر عن المشاركة فيها مما اضطر ادوارد إلى الرحيل مع عدد قليل من رجاله لم يتجاوز ألف رجل، وقد صحبته في حملته زوجته اليانور القشتالية ثم تبعه أخاه ادموند دوق لانكستر ومعه جيش بقيادة دوق بريتاني وفرقة أخرى من جنود الأراضي الواطئة بقيادة تيدالو رئيس أساقفة ليبج [١].

وعلى هذا فقد كان تغير خطة ادوارد وقراره بالرحيل إلى الشمال الأفريقي ليس حبا في لويس التاسع بل لاغتنام الفرصة على أمل الحصول على مكاسب سهلة هي ثمرة الجهد الذي بذله لويس هناك بالإضافة إلى أن حالة وتعداد جيوشه بعد تقاعس امرائه كانت لاتؤهل له فرصة الرحيل إلى بلاد الشام، وقد اختلفت المصادر الأجنبية حول تاريخ وصول ادوارد إلى تونس، فثمة آراء ذكرت أن رحيله في أوائل صيف عام ١٢٧١م / ذي الحجة ٦٦٩هـ ، وهذا خطأ لأنه من المعروف أن وصول شارل إلى تونس كان يوم وفاة لويس أي يوم ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ محرم ٦٦٩هـ ، وأن ادوارد لحق به بعد فترة قصيرة جدا وهذا يعني أنه وصل بالتحديد قبل بدء أولى المعارك المباشرة بين شارل والمسلمين، أي قبل يوم ٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ يضاف إلى هذا اجماع عدد من المصادر الإسلامية على أن عمر الحملة داخل تونس لم يتجاوز أربعة أشهر وعلى هذا فالتحديد الرسمي لوصول ادوارد بأنه في صيف ١٢٧١م / ٦٦٩هـ بعيد عن الحقيقة

١- Matt. of West., Op. cit., vol II P. 450 Cf. also Gestes des Chiprois , P. 460- 461 , Röhrict, La Croisade du Prince Edward, t. II. p. 620

انظر أيضا الكتبي، عيون التاريخ، ج٢، لوحة ٢٤٦ ، وكذلك سعيد عاشور الحركة الصليبية، ج٢ ، ص١١٥٩

وعلى أي حال ، فقد ارتاع ادوارد للحالة التي وصلت إليها الحملة على تونس وتبخرت آماله في تحقيق أي انتصار عسكري إلى نفسه رغم موت لويس القائد الأوحد لهذه الحملة. هذا بالإضافة إلى الحالة المتردية التي كانت عليها فلول قوات لويس ورغبة شارل في التسلط على أمور الحملة وحده ، ورغم هذا فقد أبدى ادوارد قدرا من الحماسة العسكرية داخل قرطاجنة ولكنه فوجئ بالحقيقة القاسية التي صارحه بها شارل حيث أعلن له إصرار المسلمين على التضحية بكل ثمين وغال في سبيل الخلاص من جيوش الصليبيين، وأن القتال سيكون بمثابة قصة أليمة لن تنتهي بالخير على الصليبيين وهم على هذه الحالة اليائسة [١].

ولكن أمام هذه الظروف لم يكن بوسع القائدين ادوارد وشارل التراجع والانسحاب لما في ذلك من مذلة وامتهان لشخصيهما وبلديهما، في الوقت الذي صمم فيه شارل على عدم التحرش بالمسلمين أو الاشتباك السريع معهم، بل عمل على تنظيم صفوفه ونقل المرضى المصابين بعيدا عن معسكرات الجند القادرين على حمل السلاح حتى يضمن عدم انتشار عدوى المرضى بين جنوده الأصحاء أيضا. وعمل على اثارة حمية الجند للانتقام من المسلمين وعدم التراجع بعدما شاهد تنظيم المسلمين لصفوفهم وتغيير استراتيجيتهم وذلك بالاستفادة قدر المستطاع من المناطق الجبلية المرتفعة في تونس لتطويق المعسكرات الصليبية من أعلى هذا بالإضافة إلى تعزيز قواتهم من المشاة والفرسان الذين أحاطوا بمعسكرات الصليبيين وأصبح الفريقان يواجهان بعضهما وغدا الجنود الذين بالجبال بمثابة ستار واق لهم وقت القتال، وكان المسلمون يتجولون بجرأة بالقرب من خيام الصليبيين، وقد حاولوا استفزازهم والتحرش بهم وكانت هذه هي السمة الجديدة التي اتسم بها الجيش الإسلامي بعد حالة التقاعس التي لازمته في بدايات الحملة إلى أن اندلعت الاشتباكات الدامية بين الطرفين وكان الطرف الصليبي بقيادة شارل نفسه ، وفي هذا الصدد يشير نانجي أن المعارك حين بدأت اتبع المسلمون معها طريقة الكر والفر [٢]، وقد فوجئنا بوجود عدد ضخم منهم وقد قطع

١- Matt. Of West., vol II. p. 450 Röhricht , Op. cit., pp. 620 , Cf also Richard, Op. cit., vol II, pp. 397-398

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 470 , Chartres De Vita et actibus, p. 37 , Matt. of West ., Op. cit vol II, p. 452 , Anonymous, Gesta Sancti , R. H. G.F t, XX, p. 57 .

الأرض المحيطة بمعسكراتنا وسدوا كل المنافذ التي تصل بين خيامنا وانتشروا متحرشين بنا، وكانت لديهم قدرة قوية على مواجهتنا (١).

وقد كان رد الفعل الصليبي أن أصدر شارل يوم الخميس ٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ أوامره بالاستعداد لمعركة حاسمة وطويلة مع المسلمين وتقدم عدد ضخم من الجنود التابعين لشارل واصطفوا بحماسة بالغة لدرجة أن عددا من القادة المرضى أصروا على مصاحبة شارل في قتاله، ولكنه أبعدهم واقتصر الأمر على كل القادرين صحيا على حمل السلاح، يذكر نانجي أنه حين رأى المسلمون ذلك اضطربت صفوفهم فجأة . وكان ذلك راجعا إلى تصورهم بأن الصليبيين لن تقم لهم قائمة بعد موت لويس ولم يضعوا في الحسبان هذه الدماء الجديدة التي أضافها كل من الملك شارل الانجوى والأمير ادوارد الإنجليزى على صفوف الجيش الصليبي، فكان الأمر بالنسبة للصليبيين يعني عودة الروح من جديد بين صفوفهم، في وقت تأرجحت فيه سياسة تونس وبشكل خطير تجاه الحملة رغم رجحان كفة التونسيين، فعلى الرغم من رجحان كفتهم في بداية هذه المناوشات إلا أنه فجأة كانت تحدث اضطرابات وتراجع في خططهم ، ويرجع ذلك إلى السياسة الملتوية العقيمة التي كان يتبعها صاحب تونس بين المد والجزر والتي لم توضح بجلاء ما يريده من شعبه أو عدوه ونتيجة هذا اختلت الموازين ، ورغم أنهم ظهروا بمظهر المهاجم ضد الصليبيين في بداية الأمر إلا أنه تغيرت سياستهم وتقاعسوا عن التصدي للصليبيين.

وحول أول صدام مسلح بين الطرفين يصف نانجي أحداثه قائلا « لقد رجحت كفة المسيحيين وتجلت جرأة وشجاعة شارل في احتواء الموقف وتجنب مزيد من الهلاك على أيدى المسلمين، كما حرص على الاستفادة من تغير خططهم وعدم السير على وتيرة واحدة ، خاصة وأن الهجمات قد انتشرت في جهات متفرقة، وقد تساقط في هذا الصدام عدد كبير من القتلى من الطرفين ، واستعملوا فيها كافة أنواع الأسلحة ، ولم تكن المعركة برية فقط، بل امتدت إلى البحر أيضا، واكتظ ميناء قرطاجنة بقطع من السفن الحربية التي استقدمها معه الملك شارل، وقد بلغ من شراسة المعركة أن اكتظت الحقول والشوارع والمناطق المهجورة بجثث القتلى، فقد فر بعض المسلمين بعيدا عن ساحة القتال، ولكن شارل أصر على تتبعهم ومعه اثنين من كبار

١- Nangis, Vie de Philippe, p. 470 .

النبلاء وقد صمموا على التنكيل بهم ويقول نانجي «أن شارل توغل ومعه النبلاء في مناطق مجهولة وقد خشي عليه النبلاء من سوء العاقبة ، ونصحوه بالعودة إلى مقره خوفا من كمين يكون قد أعده المسلمون لهم ورأى شارل ضرورة العودة ، بعد أن قتل في هذه المعركة الشرسة الطويلة ما يقرب من ثلاثة آلاف جندي مسلم في البر والبحر ، بالإضافة إلى عدد آخر قتل في الحواجز التي أقاموها المسلمين بين معسكراتهم ومعسكرات الصليبيين»[1].

ويتضح من الرواية السابقة المبالغة في تصوير انتصار الفرنج على المسلمين إذ لايعقل أن تكون هذه امكانياتهم البشرية والمعنوية ويقتلون هذا العدد الضخم من المسلمين، خاصة وأن المواقع لم تكن مرتبطة بعضها ببعض بل انتشرت المواقع الإسلامية فوق أماكن متباعدة في قرطاجنة إذ يؤكد نانجي «أن معسكرات المسلمين كانت أشبه بطوق حديدي يحيط بنا، وكانت المسافة بين كل معسكر والآخر تزيد عن أربعة أميال بالاضافة إلى اعتلائهم الجبال ليكونوا غطاء للمعسكرات الموجودة على الأرض»[2]. فكيف يمكن رغم كل هذا ورغم انهيار المعنويات وتساقط المئات منهم صرعي المرض أن يقتلوا هذا العدد الهائل من المسلمين ، حتى لو ارتجل المسلمون في وسائل دفاعهم أو تقاعسوا أثناء القتال. فالمقاييس السياسية والعسكرية للصليبيين أنذاك لاتتيح لهم الفرصة للفتك بالجيش الإسلامي بهذه الصورة

وعلى العموم ، فقد كانت هذه هي صفة بعض المؤرخين المسيحيين ممن كتبوا عن تاريخ الحركة الصليبية وهي المبالغة والتحيز لبني جلدتهم وتهويل انتصاراتهم ، ومع هذا ورغم تأرجح كفتي الميزان بين الطرفين صعودا وهبوطا آنذاك إلا أن المسلمين لم يستبد بهم اليأس بل أعادوا تنظيم خططهم العسكرية على أساس تكريس كل الجهد لحماية مدينة تونس نفسها، لأنهم توقعوا أن آمال شارل وطموحاته لاتنحصر في قرطاجنة الخربة المهدمة فحسب، بل تتعداها إلى تونس ذاتها ، لذا فقد أحكم الحصار حول المدينة برا وبحرا في الوقت الذي لم تغمض للمسلمين عين عن معسكرات العدو الموجودة بقرطاجنة والتي اتخذ الصليبيون منها

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 471-473 .

٢- Nangis Vie de Philippe , p. 473 , Chartres , Op. cit., p. 36 , Anonymous , Gesta Sancti , p. 56

مركزا لعملياتهم العسكرية. وقد أظهر التونسيون في جولة أخرى من صراعهم مع شارل براعة فائقة في نشر سفنهم على امتداد السواحل المحيطة بقرطاجنة ، في الوقت الذي اعتمدوا فيه على المناطق المرتفعة التي أصبحت بمثابة معسكرات دائمة لهم، حيث كان بوسعهم سرعة اكتشاف التحركات الصليبية من أي جانب . ولم يفطن الصليبيون لهذا الأمر واقتصرت تحصيناتهم على ما بأيديهم من الأجزاء التي احتلتها قواتهم في بداية وصول الحملة، وأدرك الصليبيون خطورة الموقف، وأن المسلمين أطبقوا عليهم مثل فكي الكماشة التي أوشكت أن تطبق على صفوفهم .

وبناء على ذلك عقد شارل مجلسا عسكريا طارئا تشاور فيه مع القادة حول كيفية التوصل إلى طريقة تمكنهم من خرق هذا الحزام المحكم الذي فرضه التونسيون حولهم ، وأوضح خطورة الموقف على الساحل ، وأبدى مخاوفه من أن يعبر المسلمون من البحر على القلعة التي كانت لاتزال في قبضتهم ويستعيدونها. ولكن أحد الفرسان طمأنه قائلا «سيدي إن القلعة منيعة ومحصنة بالعديد من الأسلحة وكل من بداخلها على أهبة الاستعداد للدفاع عنها، بل أنهم كانوا متفائلين جدا، وأضاف آخر بأن المسلمين لو حاولوا الاقتراب منها سوف تلحق بهم هزيمة منكرة وسيضطرون إلى إلقاء السلاح والاستسلام»[١]

والحقيقة كانت غير ذلك تماما، فقد أبلى المسلمون بلاءا حسنا في جولتهم الثانية من الصدام المباشر مع شارل، وذلك في يوم الثلاثاء ١٠ سبتمبر ١٢٧٠م / ٢٠ محرم ٦٦٩هـ، ولم يستسلم أحد بل لم يفكر أحدهم في التراجع أو إلقاء السلاح كما توقع الفرنج، بل استؤنف القتال من جديد وقام المسلمون بإلقاء السهام والمنجنيقات من مواقعهم المتعددة داخل تونس سواء برا أو بحرا، مما أحدث هرجا داخل صفوف المسيحيين، ويشير شارتر قائلا «أنه لم يعد بمقدورهم مواجهة هذه الهجمات الصادرة من جهات متعددة في وقت واحد. لذا تركزت هجماتهم ، أو رد الفعل لديهم على الاشتباك مع القوات القريبة من معسكرات المسلمين، وتركزت خطتهم على الدفاع فقط وحماية ما بأيديهم من أملاك تابعة لتونس، وأهملوا عنصر الهجوم، أو المباغتة كما فعل المسلمون»[٢]، وقد ترتب على هذه المعركة سقوط عدد آخر منهم

١- Nangis, Vie de Philippe, pp. 473 , Eracles, Op. cit., p. 459; Reinaud, Op. cit., p. 518.

٢- Chartres , de Vita et actibus regis Francorum , R. H. G. F, t .XX, p. 37 , Beaulieu , Vita Ludovici noni , R. H. G. F, t . XX, p. 23 .

قتلى حيث يؤكد نانجي مان الصليبيين كانوا يتفادون تلك الضربات المتلاحقة ونادرا ما كانوا يتصدون لها، وهذه دلالة واضحة على لسان أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين للفترة الزمنية موضوع البحث برجحان كفة الجيوش الإسلامية وارتفاع معنوياتهم . وقد استمرت هذه المعارك فترة طويلة، وبلغ عددها ما يقرب من اثنتي عشرة معركة ما بين برية وبحرية اتبع فيها المسلمون خططا دقيقة وناجحة حيث عملوا في بعضها على عدم الخوض بأعداد كبيرة من الجند، بل كانت تتقدم فرقة يتراوح عددها ما بين مائة ومائتين من الرجال وذلك للاصطدام مع العدو في الوقت الذي تقوم فيه فرقة أخرى لتشكل ستارا لها من الخلف ، على أن تقوم هذه الفرقة بإلقاء السهام على العدو بطريقة بارعة في نفس اللحظة التي يتقدم فيها الصليبيين للاشتباك مع المسلمين[١]، فوقع الخلل والاضطراب في صفوف الفرنج نتيجة هذه السياسة العسكرية، لقد أذهلتهم براعة المسلمين وإصرارهم على حماية بلادهم ضد الغاصب الدخيل. وقد أشار المؤرخون الصليبيون إلى سقوط ما يقرب من ستمائة قتيل وجريح من رجالهم في هذه المعركة التي رجحت فيها كفة المسلمين [٢]. وعلى الرغم من ذلك فقد كان من بين الصليبيين من ثارت حميته ، وأصر على مواصلة القتال. إذ رفض أحد الفرسان ويدعى جي دي بوروا Jay de Bosou الفرار من ميدان المعركة واشتبك مع المسلمين ولم يكن معه سوى شقيقه وعدد قليل من المحاربين الأشداء. ودارت معركة حامية بين المسلمين وبوروا ومن معه بالقرب من ميناء قرطاجنة وذلك يوم ١٩ سبتمبر ١٢٧٠م / أول صفر ٦٦٩هـ، وقد صمد بوروا في البداية ولكن نظرا لتفوق المسلمين في العدد والعدة وبراعتهم في مباغتة العدو، فقد قتل عدد كبير من رجاله ولكنه تمكن بعد ذلك من إحراز تقدم على المسلمين ، وسقط عدد من جنودهم قتلى إلا أن الدائرة دارت عليه مرة أخرى وسقط أسيرا في أيدي المسلمين. وقد حزن عليه المسيحيون كثيرا وثارت فئة أخرى من الفرسان الفرنج مطالبين باسترجاع بوروا حتى لو أدى الأمر الالتحام مع المسلمين ، وقد بدأت هذه الفئة بعمل كمين للمسلمين وقاموا بوضع بعض الحواجز التي تعوق وصولهم إلا أنهم في أثناء تقدم الفرنج هبت عليهم عاصفة ترابية ، ضلوا على أثرها الطريق واستغل المسلمون الموقف وكثفوا من ضرباتهم على هذه الفرقة ، مما

١- Nangis, Vie de Philippe, p. 469 .

٢- Eracles , Op. cit., p. 459 , Anonymous , Gesta Sancti , R. H. G. F, t. XX, p. 57

أوصلهم إلى حالة شديدة من الضعف والانهاك لعدم قدرتهم على تحدى الطبيعة وسيوف المسلمين في آن واحد فلم يكن الصليبيون على دراية كافية بمناخ تونس، ويقول نانجي «أننا ظللنا هكذا وأمورنا تسير من سيئ إلى أسوأ ، ولم يطرأ أي جديد يحسن من هذه الأوضاع رغم وصول كل هذه الإمدادات مع الملك شارل والأمير ادوارد » [١]

ورغم كل هذه الاشارات الواضحة عن سير الأمور لصالح المسلمين وارتفاع معنوياتهم طوال هذه المعارك المتقطعة التي امتدت من أوائل سبتمبر حتى منتصف شهر أكتوبر ١٢٧٠م/ محرم – ربيع أول ٦٦٩هـ، ورغم توفر ظروف عديدة تؤهل لهم الانتصار على الصليبيين واستعادة أراضيهم دون تقديم أي تنازلات ، خاصة بعد الحالة المتردية التي وصلت إليها الجيوش الصليبية والتي لم يرفع من معنوياتها كثيرا وصول شارل أو ادوارد رغم كل هذا بدأت فجأة المراسلات بين الصليبيين والمسلمين من أجل طلب الصلح، وفي هذا الصدد اختلف المؤرخون من مسلمين ومسيحيين حول من بدأ بالمراسلة في طلب الصلح، هل الخليفة المستنصر أم شارل كونت أنجو ؟ وهناك آراء تؤكد أن المستنصر كان يراسل الأعداء بصفة مستمرة من أجل الصلح، وأنه قدم تنازلات عديدة في سبيل ذلك [٢]، وثمة رأى آخر يقول «بأن شارل لم تتوافر لديه روح المثابرة والاصرار على القتال بعد أن شاهد استفحال أمر المسلمين، وتدهور الأوضاع العسكرية والاقتصادية والصحية داخل معسكره ، وأدرك عدم قدرته على الاستمرار في القتال وهو على هذه الحالة من الضعف ، والقوى الإسلامية تتوافد من كل جهة لمساعدة تونس في سبيل تطهير أراضيها ويؤكد هذا الرأى أن شارل لم تكن لديه نية مسبقة للدخول في معارك طويلة من أجل تونس، بل كان يتمنى الحصول على مكاسب سهلة دون تقديم كل هذه التضحيات» [٣] .

١– Nangis , Vie de Philippe, p. 469 , Eracles , Op. cit., p. 459 , Matt. of West. , Op. cit. p. 450

٢– ابن خلدون العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢ ، ابن أبي زرع الانيس المطرب ، ص٣٧٨ ، ابن الفرات تاريخ الدول، ج١٢ ، ورقة ٧٤ ، وأيضا محمد الحبيب أب التاريخ ، ص٣٦١

٣– أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٤٨ ، محمد الباجي المسعودي الخلاصة النقية ، ص٦٢ ، ابن أبي دينار المؤنس ، ص١٢٨ ، انظر أيضا Eracles, Op. cit., p. 458 , Matt. of West. , Op. cit., p. 450 , Reinaud, Op. cit., p. 519

ونحن لانستبعد على الاطلاق أن يبذل المستنصر جهده لاقرار الصلح والدليل على ذلك هو تراخيه في العديد من المواقف والتواء سياسته وعقمها في الدفاع عن بلاده وسلبيته في حماية قرطاجنة ومحاولته الفرار من ميدان المعركة، وهي في دروتها سواء إلى القيروان أو إلى قسنطينة ، بالإضافة إلى خوفه من العربان بعد أن ازداد احتجاج العرب لأراضيهم في الجنوب، مما أقعد جيشه عن الصمود في القتال[١]، فصمم على عقد الصلح والدليل على ذلك تلك التنازلات المخزية التي بذلها المستنصر للصليبيين مقابل الرحيل عن بلاده ، فلو أنه كان مخلصا لوطنه ، واضحا في سياسته ، كان بامكانه أن يجبرهم طلب الصلح، وأن يملي عليهم شروطه كيفما يشاء، فلماذا تحمل وقدم هذه التنازلات والموازين تميل إلى جانبه ، والاجابة أنه كانت لديه نية مبيتة على عقد الصلح ورحيل الفرنج وانهاء هذه الأزمة بالطرق السلمية بدلا من الحرب والقتال .

ورغم هذا فهناك آراء عالجت هذا الأمر بحيدة كاملة، حيث أشار البعض إلى أنه جرت أمور بين الطرفين آلت في النهاية إلى عقد الصلح[٢]، وتستند هذه الفئة في رأيها على أمرين الأول يتعلق بالمستنصر وهو ما سبق أن أوضحناه ، والثاني يتعلق بشارل الأنجوي ورغبته في عدم استمرار نزيف الدم بين الصليبيين طويلا وتوفير جهده شخصيا لآمال أبعد من الاستيلاء على تونس .

ومثلما اختلفت الآراء حول من بدأ بالمراسلة في طلب الصلح، اختلفت أيضا حول يوم عقد الصلح ومدته ، فمنهم من يقول أنه تم خلال شهر صفر ٦٦٩هـ / سبتمبر – أكتوبر ١٢٧٠م[٣] ولم يحدد هذا الفريق من المؤرخين يوما معينا في هذا الشهر ومنهم من ذكر أنه عقد في ربيع أول ٦٦٩هـ / أكتوبر – نوفمبر ١٢٧٠م ، دون تحديد اليوم [٤]، هذا بينما يذكر المقريزي أن تاريخه هو يوم ١٥ محرم ٦٦٩هـ / ٥ سبتمبر ١٢٧٠م[٥]، ويوجد فريق رابع يؤكد أنه عقد في

١- محمد مزالي وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨١

٢- المقريزي : السلوك، ج١ ، ق٢ ، ص٦٠٣ .

٣- محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية، ص٦٤

٤- ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص١٣٢ ، ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩٣ ، وأيضا Eracles, Op. cit., p. 458

٥- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٦٠٣ .

ربيع آخر ٦٦٩هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٢٧٠م [١] هذا في الوقت الذي يؤكد فيه وليم دي نانجي مؤرخ الحملة وشاهد العيان فيها، إلى أن الصلح عقد في يوم الخميس ٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م / ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ . وهو يتفق في هذا مع ابن القنفذ وابن خلدون والمؤرخ الغربي هرقل [٢]، ونحن نميل إلى رواية نانجي لمعاصرته للأحداث ومشاهدته لها، بالإضافة إلى أن روايت ابن القنفذ وابن خلدون أيضا اتسمت بالصدق والواقعية حول أحداث هذه الحملة بصفة عامة

وكما ثار الخلاف بين المؤرخين القدامى حول تاريخ عقد الصلح، كذلك ثار الخلاف بينهم حول المدة التي قطعتها الحملة في تونس فبعضهم من يشير إلى أنهم مكثوا أربعة أشهر ومنهم من قال ثلاثة ومنهم من قال ستة أشهر، ولكن بناء على ما تقدم وعلى التسلسل الزمني لأحداث الحملة من بدايتها إلى نهايتها، تكون الحملة قد قطعت ثلاثة أشهر واثنتي عشرة يوما، على أساس أن وصولهم تونس كان يوم ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذي القعدة ٦٦٨هـ [٣].

وعلى هذا فقد تم اقرار الصلح بحضور كل من «الملك شارل والملك فيليب الثالث والأمير ادوارد والكونت روبرت كونت أرتوا، وابن أخيه رارل، وابن عمه جيرمان وكونت مافارا .» [٤] هذا من الجانب الصليبي أما من الجانب الإسلامي «فقد حضر السلطان المستنصر الحفصي والقاضي ابن زيتون الذي تولى كتابة العقد وأبو الحسن على ابن عمر وأحمد بن الغماز والشيخ ريان محمد بن عبد القوى والحشى صاحب صقلية بتسلم عقد خاص من جزيرته [٥].

١- Chronique anonyme finissant en 1286 , R. H. G.F t XXI , p. 85

وأيضا ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص٣٧٨ .

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 474 , Matt. of West., p. 450

أنظر أيضا حاشيه ٢ نفس الصفحة

٣- ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١٣٦ ، ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٢٨ ، محمد الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ، ص٦٢ ، محمد الحبيب : لب التاريخ ، ص٢١٦ ، حسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص١١٢ .

٤- Reinaud , Op. cit., p. 519 .

٥- ابن خلدون . العبر، ج٦، ص٢٩٢ .

كما حضر أيضا من الجانب الإسلامي الشيخ الفقيه أبو القاسم أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي، وحول سيرة هذا الرجل يقول المؤرخ أبو العباس الغبريني «أنه كان من أفقه علماء عصره، عرض عليه المستنصر وظيفة القضاء في حاضرة أفريقيا فرفض ، وطلب منه أمير المؤمنين المستنصر الاجتماع به فاعتذر عن ذلك وقال أني لا أصلح لذلك لعدم معرفتي بلقائهم. ويوم حدوث الصلح بين المسلمين والنصارى أصدر المستنصر رسما شهد فيه مشايخ الفقهاء أن الصلح صلاح وسداد في حق المسلمين. وطلب المستنصر أن يكون أبو القاسم من جملة الشهود في هذا الصلح فقيل له تشهد في الصلح ، فقال: «لا أنني لا أعلم الحال، يشهد من يعرف الحال» فرد عليه أبو القاسم بن البر قائلا: هذا الصلح «جائز أو غير جائز»؟ فرد أبو القاسم القيسي «أنه إذا كان صلاحا وسدادا في حق المسلمين فهو جائز، وإن لم يكن غير ذلك فهو غير جائز » فقال له - «هو صلاح وسداد» فصمم أبو القاسم على تقديم توضيح كامل يؤكد هذا القول حتى يوافق على حضور شهادة العقد، فسمع نقرا على باب الغرفة التي كانوا بها وإذا به أمير المؤمنين المستنصر من وراء الحجاب وهو يشير إلى انفضاض المجلس، فخرج أبو القاسم القيسي مصمما على عدم الشهادة واستحسن ذلك من حاله »[1].

وهذه الرواية إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن المستنصر فشل في تهيئة الرأي العام داخل تونس لقبول فكرة الصلح بل أنه صمم حق كبار القوم والمشايخ في الاعلان عن رأيهم بصراحة في هذا الأمر واعتبر قرار الصلح مرسوم سلطاني لابد أن ينفذ وافق المسلمون عليه أم لم يوافقوا .

وعلى أي الأحوال فقد أورد لنا المؤرخ الغربي ريمو نص الوثيقة الذي لايزال محفوظا في الأرشيف الملكي بفرنسا ، وفيما يلي نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».

المادة الأولى: «يكون من حق أمير المؤمنين والمسلمين التابعين له وكل البلاد التي في سلطته ، حق الحماية والمنعة وعدم الاعتداء من قبل المسيحيين عليه

١- أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية ، ص١١٦

المادة الثانية : وإذا حدث أن ثمة سفينة إسلامية أو مسيحية عليها مسلمين أو مسيحيين قد قامت بعمل يخرق القوانين البحرية في الشواطئ التابعة للأفراد المسيحيين السالفي الذكر أو للأمير أبوعبدالله محمد، يجب عدم الاعتداء عليها، بل يفرض عليها ارجاع كل ما حملته بدون وجه حق، وأن تسلم بالكامل للمالك الأصلي، كما يجب توافر الضمان المطلق لهذه السفن بالنسبة للمسيحيين أو المسلمين بأشخاصهم وأمتعتهم وكامل ممتلكاتهم على هذه السفن .

المادة الثالثة : يكون من حق المسيحيين أن يؤسسوا ويتمتعوا بالاستقرار في الولايات التابعة للمسلمين ، وذلك تحت اسم الأمير المسيحي الذي أرسلهم، ويكون من حقهم المطالبة بتحديد أماكن لهم ليقوموا فيها ببناء منازل لهم كما يسمح لهم بحرية العبادة في الأماكن المخصصة لهم، وكذلك اقامة الطقوس الدينية الخاصة بهم، ويكون من حقهم عمل أي شئ اعتادوا عمله في بلادهم .

المدة الرابعة : بالنسبة للتجار المسلمين الذين يعيشون في الممتلكات الخاصة بالأمراء المسيحيين السالفي الذكر، وهم فيليب وشارل ومن معهم من الأفراد والنبلاء ، والذين قد يتصادف وجودهم في بلاد أمير المؤمنين ، يكون لهم حق المرور في بلاده دون عقبات ، وإذا فقد منهم شئ ، يلزم حاكم المسلمين باعادته إليهم ، كما ينبغي عليهم الوفاء بكل التزاماتهم وواجباتهم تجاه أمير المؤمنين . وفوق ذلك فإن الأمير المسلم من حقه أن يردع أي مسيحي يقف ضد السلطة أو يخالف القانون، كما انه من حقه أيضا أن يرفع الحماية عن كل من يحاول استخدام السلاح لخرق قانون البلاد.

المادة الخامسة : على كلا الجانبين المسيحي والمسلم اطلاق سراح الأسرى، وتسليم خصوم شارل الهاربين إليه ليصحبهم معه إلى صقلية [1]

المادة السادسة : من منطلق اعتراف طرفي هذه المعاهدة بسلطة الآخر ، فإنه يتعين على لأمراء المسيحيين السالفي الذكر اخلاء البلاد الخاصة بممتلكات أمير المؤمنين ، وبعد توقيع عدم تواجد أي فرد مسيحي في تونس إلا من لم يجد مكانا له على و هؤلاء المستجرين لسبب أو لآخر ، أو من يطلب أمير المؤمني

تاريخ أفريقيا، ص١٨٦

المادة السابعة : تكون مدة هذه المعاهدة خمسة عشر عاما ابتداء من أول نوفمبر القادم (١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ) [١].

المادة الثامنة : على أمير المؤمنين أن يدفع مبلغ قدره عشرة الاف ومائتين قنطارا من الذهب وكمية مساوية من الفضة [٢]، ويرسل لهم اثنين وثلاثين جملا وتقسم هذه الأموال على قسمين، القسم الأول يدفع قبل رحيل الصليبيين، والقسم الثاني عند نهاية العام المقبل ويدفع المستنصر لشارل غرامة حربية كتعويض لما أصاب الجيوش المسيحية من دمار من جراء هذه الحرب. ويحتم على أمير المؤمنين اعادة دفع ضعف الجزية التي كان مقررا أن يدفعها لآل هوهنشتاوفن من قبل وذلك مقابل حماية صاحب صقلية لتونس من القراصنة ، وعلى أمير المؤمنين أن يدفع خمس سنين مقدما من هذه الاتاوة عن المدة السابقة وخمس سنين مقدما أيضا عن المدة القادمة[٣].

كانت هذه هي شروط الصلح، التي أوضحت كيف نجح شارل في تحقيق أطماعه وأنه كان يعمل لشخصه وبلاده، حيث كانت كل البنود متمشية تماما مع مصالحه في تونس[٤] والواضح أن المسلمين قد خسروا الكثير من جراء هذه المعاهدة غير المتوازنة ، ولكن ماذا يفعل شعب تونس أمام اصرار المستنصر على عقد الصلح ولا أحد يعلم نواياه الحقيقة ولكن اتضح للجميع أن المستنصر على الأقل لايرغب في الاستمرار في القتال وأكد هذا رأى المقرى «أن المستنصر غنم غنيمة ما سمع بمثلها قط من جراء هذه الأحداث[٥]» حيث حمل المستنصر

١- والجدير بالذكر أن هناك آراء أخرى قالت بأن مدة الصلح سبعة عشرة عاماً في حين أكد عدد آخر من مؤرخي المسلمين أن مدته خمسة عشرة عاما فقط. أنظر Matt, Of West., vol. II, p. 450

وأيضا ابن خلدون : العبر، ج٦، ص٢٩٣ ، ابن أبي دينار : المؤنس، ص١٢٨

٢- ذكر ابن أبي دينار أن المبلغ المفروض هو ألف ومائة قنطار من الذهب وعشرة قناطير من الفضة. أنظر المؤنس، ص١٢٨

٣- نقلا عن Reinaud, Extr. des Hist. Arabes, pp. 519, Matt. of West., The flowers of History, vol. II, pp. 450

٤- Beaulieu, Vita Lodovici noni, R.H.G.F., t. XX, p. 23-24. Nangis, Vie de Philippe, p. 477, Puadia, Historia Albigensium, R. H. G. F, T. XX, pp. 774-775

٥- المقرى: نفح الطيب، ج٢، ص٣٢٤ .

جاهدا على أن يحكم في هدوء ، وهذه هي غنيمته، حتى لو كان ذلك على حساب كرامة الشعب التونسي ومصالحه العامة فقد كان بامكانهم أن ينفصوا عن كاهلهم تلك التبعية المذلة لشارل ويتحرروا من تلك الأعباء المالية التي فرضت كغرامة حربية عليهم . ولو صبر المستنصر قليلا في ساحة القتال لتمكن من اجبار المسيحيين على الرحيل دون قيد أو شرط نظرا لحالتهم المتردية من كل الجوانب .

يضاف إلى ما تقدم أن أطماع شارل كانت أكبر من تونس وكان يتمنى في مخيلة نفسه الرحيل حتى لايستنفذ قواته وجنوده والتي كان في أشد الحاجة إليها للاستيلاء على بيزنطة وادخال الرعب في قلب الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس، ولكن عدم ادراك المستنصر لكل هذه الأمور جعلته يمتهن نفسه وشعبه أمام خصومه، ويخسر حلاوة النصر على الصليبيين ويجنب بلاده محنة اقتصادية من جراء دفع الجزية.

وعلى أي الأحوال فبعد توقيع الصلح مباشرة أمر المستنصر بهدم مدينة قرطاجنة التي كان يحتمى بها الصليبيون وخاصة القلعة والبرج وأفسد صلاحية المياه وسوى المدينة بالأرض حتى لايعودوا إليها مرة أخرى[١]، وهذا نفس ما فعله الظاهر بيبرس عندما أمر بهدم دمياط لمنع شر اعتداء الفرنج عليها .

وقد قام المستنصر بجمع الأموال من الشعب ، ووجد معارضة شديدة من التونسيين ولكنه تمكن من احتواء الموقف واقناع شعبه بضرورة الدفع لضمان خلاص تونس من محنتها واجبار الصليبيين على الرحيل [٢]. وقد ترك الصليبيون أثناء استعدادهم للرحيل ما يقرب من تسعين منجنيقا داخل قرطاجنة غنيمة سائغة لتونس [٣]

وفي يوم الجمعة ٢١ نوفمبر ١٢٧٠م/ ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ[٤] اكتملت الاستعدادات الخاصة بالرحيل عن تونس وقد اصطحب شارل معه الأمير ادوارد إلى صقلية ، وفي الطريق هبت

١- ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص٢٩٢ ، انظر أيضا : محمد مزالي : تاريخ افريقيا، ص١٨١

٢- المسعودي : الخلاصة النقية، ص٦٢ ، ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٩٢

٣- ابن خلدون : المصدر السابق، نفس الصفحة.

٤- Eracles , Op. cit., p. 450 , Chronique anonyme Finissant en 1286 , R. H. G. F, t XXI , p. 850

عاصفة عاتية أحدثت المزيد من الدمار في الأسطول الصليبي وتزايد عدد الضحايا غرقا في البحر حيث هلك عدد كبير من النبلاء والجنود والقادة، وغرقت سفن بأكملها ، وهي محملة بأموال التوانسة التي استولوا عليها تنفيذا للصلح، أما حاملات الجنود الخاصة بالأمير ادوارد فلم تصب بشيء، بل نجت من الهلاك بمعجزة . وفي هذا الصدد يشير متى ثوف وستمنستر قائلا «أن الله انقذ جيوش الأمير ادوارد لأنه رفض أن يأخذ شيئا من أموال البربر لنفسه، حيث تأثر كثيرا واعتبر تونس الأرض التي راقت فيها دماء الكثيرين من أبناء الصليب »(١) وتصور أن هذه الأموال هي ثمن دماء الصليبيين الذين ماتوا . وقد نجا الملك شارل من الموت بأعجوبة ولم تغرق سفينته في حين تساقط النبلاء وزوجاتهم غرقا في مياه البحر، فقد غرقت ايزابيلا دي أراجون Isabella d'Aragon زوجة الملك فيليب الثالث، كما غرقت ايزابيلا دي فرانس ابنة الملك لويس والتي قدمت بصحبة جيوش عمها شارل كونت انجو ، كذلك مات في رحلة العودة ملك نافار «تيبوت» والفونس كونت بواتييه وتولوز شقيق لويس التاسع، وقد دفن في كنيسة السيدة العذراء بمدينة سان دينس (٢).

ووصلت فلول القوات الصليبية إلى صقلية في حالة يرثى لها من التمزق و لضعف وكان الأمير ادوارد قد وافق على أن يمضي فصل الشتاء بصقلية، وفعلا بقي هناك حتى يوم ٩ مايو ١٢٧١م / ٢٦ رمضان ٦٦٩هـ حيث قرر الرحيل إلى بلاد الشام لتحقيق الهدف الأساسي الذي قام من أجله من انجلترا . وقبل الرحيل ودع الملك شارل وقدم شكره على حسن ضيافته له، حيث كان زوجة الملك شارل خالة الأمير ادوارد ، كما ودع فيليب الذي كان هو الآخر على وشك العودة إلى فرنسا لتنصيبه ملكا عليها بعد وفاة أبيه وقد أبحر ادوارد في بداية الأمر إلى قبرص وهناك واجه صعوبات جمة في الحصول على المساعدات من بارونات الجزيرة ، حيث كانت الخلافات على أشدها، ورفضوا الاشتراك معه أو مساعدته ، ولكن في نهاية الأمر وافقوا على مشاركته لمدة لاتزيد عن أربعة أشهر ويكشف ذلك الموقف عن الحالة السيئة التي وصل إليها الفرنج سواء في بلاد الشام أو خارجها . فقد يئس الصليبيون من كثرة الحملات الموجهة ضد المسلمين دون جدوى فضلا عن أن الاستيلاء على بيت المقدس أصبح فكرة تافهة في نظر

١- Matt. of West., Op. cit., p. 450 .

٢- Eracles, Op. cit., p. 460

كل الفئات والطوائف المسيحية آنذاك . إذ أن ذكريات الصراع الدموى بين المسلمين والصليبيين كانت لاتزال ماثلة في الأذهان ولم ينس الفرنج ما فقدوه من أرواح وأموال من جراء ذلك[1] ومن سوء حظه أنه عندما وصل عكا وجد أن الصراع الدامي بين الصوية والبنادقة كان على أشده. ولم تبد أي جالية منهما استعدادا ايجابيا للتحالف معه. لقد دهش ادوارد لهذا الموقف المتخاذل من قبل أمراء الفرنج في الأراضي المقدسة خاصة وأنه لم يأت لتحقيق مطامع شخصية قدر رغبته في نجدتهم من الضياع الذي هم فيه. ولذلك لم يجد الفرصة المواتية للقيام بنشاط عسكرى حاسم ضد المسلمين خاصة أن البنادقة قد تحالفوا مع السلطان بيبرس، والجنوية تفرغوا لتجارة نشطة مع مصر، ولم يعط أحدا منهم اذنا صاغية له. وقد انتهز ادوارد فرصة هجوم المغول على شمال الشام وانشغال بيبرس بأمرهم ، فأغار على سهل شارون وعلى حصن قاقون . وقد رد عليه بيبرس بقوة عسكرية صغيرة بقيادة أحد أمرائه ، تمكنت من الحاق الهزيمة به، وانتهى الأمر بتخليه عن الحصن المذكور.

وطال انتظار ادوارد في حسم الأمور واسترجاع ما فقده الفرنج من مدن وقلاع وفي ربيع عام ١٢٧٢م / شوال ٦٧٠هـ أدرك صعوبة موقفه وأنه ضيع وقته هباء حيث لا أمل من الصليبيين في تغيير موقفهم . كما أدرك أن أفضل الأمور هو التوصل إلى هدنة مع بيبرس بعد أن أصبحت معظم ممتلكات اللاتين تحت يديه ، بالإضافة إلى احساس ادوارد بانشغال شارل كونت انجو عنه . إذ أنه بعد عودته من تونس وضع القسطنطينية نصب عينيه ، ولم يكن لبلاد الشام أهمية تعادل أحلامه في الاستيلاء على عرش بيزنطة.

وبناء على ذلك، فقد شهدت مدينة قيسارية العديد من المحاولات لاقرار الصلح بين بيبرس وادوارد وتوسط شارل في هذا الصلح أولا بحكم صداقته القوية مع بيبرس وثانيا لرغبته في عدم وجود شخصية قوية تهيمن على الشرق الفرنجي، أملا في اقتناص فرصة سهلة لكي يضم أجزاء من بلاد الشام إلى امبراطوريته وفعلا تم عقد الصلح بين الطرفين في ٢٢ مايو ١٢٧٢م / ٢٢ شوال ٦٧٠هـ على أن تكون مدته عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات [2]، الأمر الذي أعطى لمملكة عكا الفرصة لالتقاط أنفاسها والمحافظة على استقلالها

١- Röhricht , la Croisade du prince Edward, A. O. L., t. II, p. 620 , Gestes des Chiprois, pp. 199-200 , Eracles, Op . cit., pp. 460-461

٢- Eracles, pp. 461 - 462 , Matt. of. West., p.540 , Reinaud, Op. cit., p. 517 .

وأيضا العيني، عقد الجمان، ج٢، ق٣ ، ورقة ٨٥٥

قدر الاستطاعة على أن يحتفظ بممتلكاتها الحالية التي تألفت من السهل الساحلي الضيق الممتد من عكا إلى صيدا وأن يكون للصليبيين بعكا الحق في استخدام طريق الحج إلى الناصرة دون معارضة من المسلمين [١].

وبعد فقد كانت اقامة ادوارد في الأراضي المقدسة تستهدف تحقيق أي مكاسب على حساب المسلمين، وأدرك بيبرس آمال ادوارد العريضة في معاودة القدوم على رأس حملة أكثر تنظيما إلى الشرق، وذلك حتى يرفع من شأن انجلترا ودورها في الكفاح الصليبي ضد المسلمين، وتحقيقا لرغبة أبيه الملك هنري الثالث في أن يعود حاملا راية النصر من أجل الصليب [٢]. ولذلك قرر بيبرس التخلص منه رغم الهدنة المبرمة بينهما. وفي يوم ١٦ يونيه ١٢٧٢م / ١٦ ذي القعدة ٦٧٠هـ دبر بيبرس محاولة لاغتياله من قبل أحد الحشيشية[٣]، الذي تنكر في هيئة مسيحي وطعنه بخنجر مسموم، ولم يصب منه مقتلا [٤]. ولم يكد ادوارد يتماثل للشفاء ، حتى تجهز للرحيل إلى بلاده، بعد أن تأكد من ضياع أحلامه هذه، بسبب فشل حملة لويس على تونس وعدم قدرته على اقتطاف ثمار النصر التي كان يتصور أن لويس قد زرعها هناك، بالإضافة إلى تدهور الأوضاع في الأراضي المقدسة فعاد إلى انجلترا خالي الوفاض حيث نصب ملكا عليها بعد وفاة والده الملك هنري الثالث.

وقد شعر بيبرس بارتياح كبير لهذه النتيجة المشئومة التي وصلت إليها حملة لويس على تونس ومن لحق به ، وبذل كل جهده في التفرغ التام لتصفية الوجود الصليبي ببلاد الشام ، محاولا الابقاء قدر المستطاع على ما تبقى من علاقات طيبة مع شارل كونت انجو، وهو يعلم

١- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٧، ص١٥٧.

٢- Matt. of the West., p. 540 .

٣- الحشيشية : هم في الأصل معروفون ببلاد الشام باسم الاسماعيلية والنزارية وذلك لانهم يدينون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق إلى أن حدث الانشقاق بينهم وأسقطوا اسم اسماعيل ونادوا بامامة ابنه نزار وللمزيد أنظر لويس شيخو. جولة في الدولة العلوية، مجلة المشرق، السنة ٢٢-١٩٢٤ ، العدد ٧ ، ص٤٩٣ .

٥- الكتبي، عيون التواريخ، ج٢ ، لوحة ٣٢٦ .

راجع أيضا : Röehricht, Op. cit., pp. 626 .

تماما أن أطماع شارل بعدت كثيرا عن الشرق الفرنجي، وتحددت في الاستيلاء على الإمبراطورية البيزنطية، هذا في الوقت الذي تبددت فيه كل الجهود لاعادة شمل المسيحيين من جديد ولم يعد هناك أي فكرة أو رغبة في القيام بعمل عسكري حاسم ضد المسلمين .

ففي هذه المرحلة من الصراع الصليبي الإسلامي فشلت كل الجهود والدعوات الملحة التي بذلتها البابوية لاثارة الحماسة من جديد ضد المسلمين، وحتى المجامع الدينية التي كانت تعقد لهذا الشأن كان يرفضها كبار القادة في أوروبا ، ولم يتحمس لها إلا الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجوس لاجئا في البابوية، ولكنه لكي يجد الحماية لديها ضد أطماع شارل الأنجوي . وظلت البابوية تعاني الأمرين ، ولم تلق تجاوبا على كل المحاور الصليبية سواء في الشرق الفرنجي أو الغرب الأوروبي لإسقاط الروح الصليبية من جديد. وقد حاول البابا جريجوري العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) اثارة حماسة الملك الإنجليزي ادوارد الأول أو الملك الفرنسي فيليب الثالث للدعوة لحملة جديدة، محاولا تقديم العذر لعدم امدادهم بالمعونة اللازمة في صراعهم ضد المسلمين، ولكن هذه الفكرة لم تلق تجاوبا من قبلهما، أما حكام قبرص فقد أصابهم الفتور هم أيضا تجاه هذه الفكرة وحاول الملك هيو صاحب قبرص (١٢٦٧-١٢٨٤م) الحفاظ على سياسة الصداقة والوفاق المشوبة بالقلق مع بيبرس [١] هذا في الوقت الذي انشغل فيه شارل عن اثارة حرب صليبية ضد المسلمين ، ولم يعد يفكر في محاولة التقرب من المغول لعقد تحالف معهم ضد بيبرس ، بل ركن إلى تكريس جهوده ضد الامبراطورية البيزنطية حسبما أسلفنا ، مما منح الفرصة لبيبرس لكي يتحرك على مستوى واسع لاستئصال جذور الفرنج من بلاد الشام، والتفرغ التام للتخلص من المغول بعد أن أرعبته تلك الوعود المعسولة التي حرصت البابوية على اعطائها للمغول، حقيقة أن وعودها لهم بالثواب في الآخرة لم تلق تجاوبا في نفوس المغول، وأدرك بيبرس استحالة الوصول إلى اتفاق وتعاون مثمر بين الصليبيين وبينهم في هذه الآونة خاصة وأن شارل كان يكره شدة المغول أصدقاء أعدائه البيزنطيين والجنويين، ولكن هذا لم يمنعه من التيقظ التام لكليهما معا وذلك لتطهير بلاد الشام من أخطارهما .

١- Eracles , Op. cit., p. 462 .

هـ. عن أحوال الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني بعد الحملة مباشرة ، أما عن تونس، فقد حرص المستنصر الحفصي بعد رحيل الصليبيين عن بلاده على القيام بنشاط اقتصادي كبير مع جيرانه ، وعقد معاهدات تجارية مع كل من مملكة أراجون عام ١٢٧١م / ٦٦٩هـ وبيزا والبندقية وجنوة (١٢٧٢م / ٦٧٠هـ) (١). كما سعى جاهدا إلى توثيق الروابط بينه وبين شارل كونت أنجو وعدم مناوئته في الوقت الذي حرص فيه على كسب مودة الظاهر بيبرس صاحب مصر، فأرسل إليه مبعوثاً من تونس هو أبا عبدالله محمد بن الراسي لكي يطلعه على آخر الأخبار التي آلت إليها الحملة. حقيقة أننا لم نعثر على مضمون الرسالة، ولكن يبدو أن المستنصر قد حاول تبرير موقفه في عقد الصلح أمام سلطان مصر وهو نفس الوقت الذي شهدت فيه العلاقات الحفصية المملوكية تطورا ملموسا (٢)، وتقرب الحفصيون كثيرا من حكام مصر آنذاك . وكان المستنصر يعلم تماما أن بيبرس لن يعاديه بسبب ابرامه الصلح، لأنه بالقطع أغلق أمام جبهة معادية أخرى وهي تونس ، أضف إلى هذا حاجة المستنصر لمؤازرة بيبرس له نتيجة الضعف والانقسام في البيت الحفصي(٣)، بالإضافة إلى مسؤليات بيبرس في تصفية الوجود الصليبي ببلاد الشام.

بعد ذلك عمل المستنصر على إصلاح شئون البلاد والتغلب على بعض الثورات الداخلية سواء في تونس أو خارجها ، حيث انتفضت عليه الجزائر، فسار إليها وفتحها عنوة وأسر كبراءها(٤)، كما تأثر المستنصر كثيرا بالصراع الدائر بينه وبين أخويه اسحاق ابن أبي زكريا وميمون وقد هرب الأول إلى الأندلس (*)، والثاني إلى المشرق وكانت سياسة المستنصر ازاء هذه الأحداث هي عدم تفجير الموقف ، بل مهادنة حكام البلاد التي يهرب إليها خصومه من أمراء بني حفص فكان المستنصر يبعث بالهدايا الثمينة إلى الأمير أبي عبدالله بن الأحمر

١- ابتسام مرعي، العلاقة الموحدية والشرق الإسلامي، ص٢١٠، محمد مزالي : تاريخ أفريقيا، ص١٨١

٢- Brunschvig : La Berberie Orient Sous Les Hafsides, pp. 81-82 .

٣- ابن القنفذ : الفارسية في تاريخ الدولة الحفصية ، ص١٣٢ ، الغبريني، عنوان الدراية ، ص١٢٨ ،

٤- محمد الباجي المسعودي، الخلاصة النقية، ص٦٣ ، محمد مزالي وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨١ ، محمد الحبيب . ابن التاريخ ، ص٢١٥ .

* يذكر أبو الفدا أنه هرب أولا إلى تلمسان ، بينما يشير ابن القنفذ أنه مر إلى بلاد الأندلس . وللمزيد أنظر، أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص١٩٦ ، ابن القنفذ: الفارسية، ص١١٨

صاحب الأندلس عندما فر إليه أخيه أبو إسحاق وذلك حتى لايؤازره ويمكن تصعد الموقف على هذا الوضع[١] ولكن تقاعس المستنصر عن تصفية عدائه مع أخويه وكثير من الأمراء الحفصيين الآخرين، ترك نتائج وخيمة على كيان الدولة الحفصية بعد عهد المستنصر ، ذلك أن أبا اسحاق تمكن من تثبيت مركزه ببلاد الأندلس، فزحف نحو أفريقيا ودخل تلمسان ،، وانتظر الفرصة للانقضاض على أخيه ورغم هذا لايمكن أن نهضم حق المستنصر الحفصي في تثبيت أقدام الحفصيين ببلاد المغرب بعد انهيار ملك الموحدين ، وتأسيس امبراطورية متينة الأركان كان يمكن أن تصمد طويلا لولا وفاة المستنصر فجأة وتولية ابنه الواثق حكم البلاد.

ففي يوم الأحد ١٤ جمادى الآخرة عام ٦٧٥هـ / ٢٤ نوفمبر ١٢٧٦م خرج المستنصر في رحلة صيد، وكان الجو شديد الحرارة فمرض وزاد به الألم[٢] فاضطر إلى العودة إلى تونس ومرض بعد ذلك عدة شهور إلى أن مات وله من العمر اثنين وخمسين عاما. وقد اختلفت المصادر المعاصرة حول يوم وفاته فمنهم من ذكر أنه توفي أول أيام عيد الأضحى عام ٦٧٥هـ/ ١٦ مايو ١٢٧٧م، ومنهم من أشار إلى أن وفاته كانت يوم ٢٢ ذي الحجة ٦٧٥هـ / ٢٩ مايو ١٢٧٧م، في حين ذكر البعض أنه توفي يوم ٢ شوال ٦٧٥هـ/ ٩ مارس ١٢٧٧م ، ومنهم من قال أن وفاته كانت يوم ١١ ذي القعدة ٦٧٥هـ / ١٧ أبريل ١٢٧٧م، ويؤكد ابن القنفذ «أن وفاة المستنصر كانت ليلة ١١ ذي الحجة ٦٧٥هـ / ١٧ مايو ١٢٧٧م، وفي هذا يقول « ليلة الحادي عشر من شهر ذي الحجة توفي المستنصر وكانت الأمراض قد اعترته والعلل قد تعالت عليه حتى ضعف ففي يوم عيد الأضحى حمل في محفة خشب وأصعد إلى قبة ورآه الناس وتجلد لإظهار حركة علم منها أن فيه بقية ومات ليلتها وأصبح ولده الواثق يحيى حاكما للبلاد وقد بايعه عمه أبو حفص ، وبايعه الناس وانقضى أمر المستنصر ودفن يوم احدى عشر ذي الحجة المذكور »[٣]، وقد أيده في تاريخ الوفاة كل من الزركشي وابن أبي دينار وإن كانا قد اختلفا معه حول مدة حكمه فيشير ابن القنفذ إلى أنه حكم تسعا

١- ابن القنفذ : الفارسية ، ص١١٨

٢- ويقال في أمر وفاته أنه أثناء رحلة صيد هاجمه وحش وطاردته الجوارح ، فدخل مغارة وكانت اصابته بالغة فسقط مغشيا عليه ، وظل مريضا لهذا السبب إلى أن مات انظر الزركشي تاريخ الدولتين، ص٤٠

٣- ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١٢٤ .

وعشرين سنة ونصف بينما يؤكد الزركشي وابن أبي دينار وعدد آخر من المؤرخين المسلمين المعاصرين على أن مدة حكمه هي فقط ثمانية وعشرين عاما وخمسة أشهر وواحد عشر يوما[١] على اعتبار أن توليه الحكم كان في ٢٩ جمادى لخر ٦٤٧هـ / ١٠ أكتوبر ١٢٤٩م في حين أورد ابن القنفذ أنه تولى الحكم في ٣ رجب ٦٤٧هـ / ١٤ أكتوبر ١٢٤٩م، فاختلط عليه الأمر على الرغم من صدق روايته وواقعيتها عن التاريخ المفصى [٢]، لأن الفارق بين تحديده الزمني لحكم المستنصر ، وبين غيره من المؤرخين لم يتعد أربعة أيام وليس عاما بأكمله .

وعلى أي الأحوال، فقد تركت وفاة المستنصر فراغا خطيرا، واحتدم الخلاف بين أسرته على عهد ابنه الواثق الذي لم يكن له نفس صفات أبيه من الخبث والدهاء في تعامله مع خصومه ، فلم يصمد كثيرا أمام مناوئة عمه أبي اسحاق الذي قدم من تلمسان إلى تونس، واستمر في مضايقة الواثق إلى تنازل له عن الحكم في ٣ ربيع ثاني ٦٧٨هـ / ١٤ أغسطس ١٢٧٩م، وفي عهد أبي اسحاق زادت قوة العربان ونفوذهم ، وفي الوقت نفسه لم يحسن أبو اسحاق معاملة خصومه ، الأمر الذي ألب الكثيرين ضده كما حدث على عهد الواثق وزادت أطماع بيار الثالث ملك أرجون (١٢٧٦-١٢٨٥م) في تونس، حيث كانت له أطماع واسعة في حوض البحر المتوسط، وتمنى أن يضع يديه على تونس حتى يساوي خصمه شارل ملك صقلية، حقيقة لم يتمكن بيار من تحقيق أحلامه نتيجة تصدي شارل له [٣]، ولكن هذا لم يمنع تونس من أن تعيش فترة من الاضطرابات المستمرة ، وتأرجحت سياسة أبي اسحاق بين القوة والضعف مما ألب عربان الجنوب ضده خاصة بعد ظهور شخصية قوية من بينهم وهو ابن أبي عمارة الذي أوهم البدو في الصحراء أنه ابن الواثق يحيى وأنه أحق بالخلافة من عمه أبي اسحاق ودار صراع عنيف بين هذه الفئات مجتمعة حول الحكم، فقد ثار ضد أبي اسحاق وابن أبي عمارة أخ آخر للمستنصر هو أبو حفص عمر الذي اعتمد على مساعدة العربان من قبائل بني سليم وغيرهم. وقد أثمرت جهوده في خلع أبي اسحاق ، وتنصيب نفسه خليفة [٤]،

١- الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص٤٠ ، ابن أبي دينار، المؤنس ، ص١٢٤ ، العيوني: نثر الجمان، ورقة ١١٩، أبو الفدا : المختصر ، ج٢ ، ص١٢٦ ، الغبريني : عنوان الدراية، ص٢٦٧

٢- ابن القنفذ : الفارسية ، ص١١٧ ، الغبريني: عنوان الدراية، ص٢٦٧

٣- محمد مزالي : تاريخ أفريقيا الشمالية، ص١٨٢ .

٤- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص٤٢ ، ولمع أيضا محمد مزالي: تاريخ افريقيا الشمالية، ص١٨٢

إلى أن استمر الحال على هذا المنوال فترة طويلة من الزمان، أتت على الأخضر واليابس في تونس ، وتضعضع النفوذ الحفصي فيها ، وأخذت التجارة والعلوم والفنون طريقها إلى الانهيار، وعم الخراب كثيرا من مدن تونس وسقطت جزيرة جربة نتيجة توالي هجمات الصليبيين عليها، منتهزين حالة الضعف ، وضاربين بالصلح وشروطه عرض الحائط واستولوا على جزيرة قرقنة ١٢٨٧م / ٦٨٦هـ وسقطت قسنطينة وعم الخراب مدينة باجة (٣).

وقد دفعت هذه الظروف الكثيرين من المتهافتين على الحكم والسلطة إلى اقتناص الفرصة وتأرجح ميزان الحكم بين أيدي الخلفاء الضعفاء ولم يكن يهمهم سوى مصلحتهم الشخصية ولم يزيد حكم الواحد منهم عن عامين أو ثلاثة(٤).

٣- باجة وجربة وقرقنة من أشهر المدن الافريقية التي ظلت تابعة لفترة طويلة الحكم الحفصي ، انظر ابن أبي دينار : المؤنس ، ص٢٢ ، ٩٣

٤- قائمة بأسماء السلاطين الذين حكموا تونس في عصر الضعف منذ عهد الواثق يحيى بن المستنصر أبوزكريا يحيى الواثق عام ٦٧٥- ٦٧٨ هـ / ١٢٧٦-١٢٧٩م / أبو اسحاق ابراهيم من ٦٧٨- ٦٨١ هـ / ١٢٧٩- ١٢٨٢م / ابن أبي عمارة حكم من ٦٨١-٦٨٣هـ / ١٢٨٢-١٢٨٤م / أبو حفص عمر بن أبي زكريا حكم من ٦٨٣-٦٩٣هـ/ ١٢٨٤-١٢٩٣م / أبو عصيدة المستنصر بويع في ٦٩٤هـ وتوفي في ٧٠٩هـ / ١٢٩٤- ١٣٠٩ وكان سبب وفاته اصابته بمرض الاستسقاء ثم / أبو بكر الشهيد بن يحيى حكم في ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م، وتوفي نفس السنة فكانت ولايته ستة عشرة يوما / أبو البقاء خالد بن أبي زكريا بويع ٧٠٩هـ حتى ٧١١هـ/ ١٣٠٩-١٣١١م، حيث قتل / أبو زكريا محمد اللحياني بويع من ٢ رجب ٧١١هـ وترك الحكم ٧١٧هـ / ١٣١٧م / ثم محمد أبو ضربة بن أبي يحيى بويع في ٧١٧هـ وتوفي ٧١٨ هـ / ١٣١٨م / أبو يحيى بن أبي بكر بويع في ٧١٨هـ وتوفي ٧٤٧هـ / ١٣١٨-١٣٤٦م / أبو حفص عمر بويع في ٧٤٧هـ وقتل في جمادى آخر ٧٤٨هـ/ يوليو ١٣٤٧م / أبو الحسن المريني، بويع في جمادى الآخر ٧٤٨هـ وطرد منها بعد ثورة عليه في ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م / ثم أبو العباس الفضل تولى من ٧٥٠هـ- ٧٥١هـ / ١٣٤٩-١٣٥٠م / الأمير ابي اسحاق بن أبي بكر بويع في ٧٥١م- وتوفي ٧٧٠هـ / من ١٣٤٩ -١٣٦٨م / أبا البقاء خالد بويع في ٧٧٠هـ وعزل في ٧٧١هـ من ١٣٦٨-١٣٦٩ م/ أبو العباس أحمد بويع في ٧٩٦هـ وتوفي في ٨٣٧هـ/ من ١٣٩٦-١٤٣٧ م / وأبوعبدالله المنتصر بويع يوم عاشوراء ٨٢٨هـ- ٨٣٩هـ / ١٤٢٨-١٤٣٩م / ثم السلطان أبو عمر عثمان بن الأمير ابي عبدالله الذي بويع عام ٨٣٩هـ / ١٤٤٠م، وقد صلحت به البلاد والعباد

وللمزيد من التفاصيل عن أحوال البلاد في مدى حكمهم أنظر الزركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص١٦٤-١٦٨

وتارجحت ميلوهم بين الشرق والغرب تبعا للأقوى، فقد اقتربت الدولة الحفصية في أخريات عهدها من دولة المماليك بمصر، وذلك منذ عهد الواثق يحيى ولكن سياسة التقرب من المماليك لم توقف الانحدار السريع الذى آلت إليه الدولة الحفصية رغم المحاولات العديدة لشد أزرها وبعثها من جديد، إلى أن انهارت تماما مع أخريات القرن التاسع الهجرى/ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (١).

وبانهيار دولة الحفصيين واضمحلال الفكرة الصليبية وانحسارها في نفس الوقت تقريبا نكون قد وصلنا إلى نهاية بحثنا بعد أن حاولنا جاهدين اعطاء نبذة تاريخية عن أحوال الشرق والغرب عقب الفشل الذريع الذى ألم بحملة لويس التاسع على تونس، وهي آخر الحملات الصليبية المبكرة ضد العالم الإسلامي، تلك الحملة التي كانت بمثابة المسمار الذى دق في نعش الحركة الصليبية وأصيب دعاتها بالشلل وتملكهم اليأس وانشغلوا بأمورهم ومصالحهم الخاصة، وأضحت رحلة الرحيل نحو ديار الإسلام حلما مزعجا لايتمنى أى صليبي في الشرق أو الغرب أن يحلم به وتنازل بعدها الغرب الأوروبي عن حميته في حمل الصليب لتحرير بيت المقدس.

حقيقة أن النظريات التاريخية الحديثة أثبتت أن الفكرة الصليبية لم تمت بحملة لويس التاسع ضد تونس واستيلاء الأشرف خليل على عكا بل عاشت قرنا من الزمان بعد اندحار الصليبيين ببلاد الشام ولم تفقد صفاتها الحقيقية إلا في نهاية القرن الرابع عشر الميلادى / أخريات القرن الثامن الهجرى[٢]، حيث وضعت العديد من المشروعات الضخمة والمؤلفات العديدة لاثارة أهل الغرب من جديد ولعبت قبرص ورودس دورا خطيرا في احياء هذه الفكرة من جديد وكانت آخرها هي حملة نيكوبوليس الشهيرة[٣] ١٣٩٦م التي قامت بها أوروبا بأسرها لا لاخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب، بل للوصول إلى قلب دولة المماليك في بيت المقدس أيضا. ولكن بهزيمة الصليبيين في هذه الموقعة لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة، وتملك اللاتين اليأس، وانصرفوا عن هذه الفكرة وتقبلوا الأمر الواقع بأن ارادة الله هي التي اقتضت عودة القدس إلى أيدى المسلمين.

١- الزركشي: تاريخ الدولتين، ص١٦٨، ابن القنفذ: الفارسية، ص١٤٠-١٩١

٢- Atiya, Crusade in the later middle ages, pp. 10 , 480

٣- Atiya, Crusade of Nico Polis, idem, Crusade in the later middle ages, p.435-462-480.

الخاتمة

أهم القضايا والنقاط التي طرحت على بساط البحث- أبرز الآراء والأفكار والاستنتاجات التي تم التوصل إليها- جدة الموضوع وأصالته- نهاية الحركة الصليبية.

لعله يتضح لنا بعد أحداث آخر الحملات الصليبية المبكرة ضد العالم العربي الإسلامي، أن فكرة الغزو الصليبي أصبحت فكرة لاجدوى منها على الإطلاق ولعل الفشل الذي منيت به تلك الحملة قد أكد تماما انهيار الوجود الصليبي بديار الإسلام ، وزوال مراكزه نهائيا من بلاد الشام ولاجدال أن تلك الحملة التي أدت أسباب عديدة متداخلة في بعضها إلى فشلها في النهاية قد أعطت للغرب الأوروبي كله ضرورة التخلي عن مثل هذه المغامرات الفاشلة في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه .

ومن أبرز القضايا التي طرحت على بساط البحث ، أن الدافع الديني لحملة لويس على تونس كان قناعا أخفى الصليبيون وراءه أهدافهم الحقيقية ألا وهي التهام ثروات تونس والاستفادة من موقعها الجغرافي والاستراتيجي المتميز كحلقة وصل بين الشرق والغرب، وفرصة للانقضاض بعد ذلك على مصر معقل العروبة والاسلام ذلك أن احتلال تونس سوف يسهل على الفرنج عملية تطويق مصر برا وبحرا، وذلك لمحو عار الهزيمة التي لحقت بالملك لويس التاسع أثناء حملته الأولى على مصر . كل هذا يؤكد اضمحلال النزعة الدينية تماما، التي كانت تخفي وراءها الأطماع الاقتصادية والدوافع الشخصية كذلك أكدنا طبيعة الدور الخطير الذي لعبه شارل الأنجوي في اشعال حمية شقيقه لويس وتشجيعه للقيام بهذه الحملة، لابحكم الوازع الديني، ولكن أملا في الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب والمغانم وتداعي احداث الحملة يبرر ذلك.

وأثبتنا أيضا أن ادعاءات الصليبيين حول رغبة الخليفة المستنصر في الدخول في المسيحية كان أمرا من وحي خيال الصليبيين أنفسهم واسطورة لاتمت للحقيقة التاريخية بصلة ، ولايوجد أي سند تاريخي يعزز هذا الادعاء وبينا أن المستنصر لم يكن صديقا لأحد، وإنما جعل من صداقته الظاهرية للويس قناعا أخفى وراءه أهدافه الحقيقية، ألا وهي ممالأة الملك الفرنسي واتقاء شره، وضرب عصفورين بحجر واحد خاصة بعد أن كثر اعداؤه بالداخل،

فأراد أن يظهر أمام أعدائه في الغرب بمظهر الصديق المتواطئ معهم، ولكنه في قرارة نفسه كان يضمر خلاف ذلك. كذلك تعرضنا لرواية أخرى من اختلاق الصليبيين ألا وهي ادعاءاتهم بأن الخليفة المستنصر قدم لهم المال والمؤن والعتاد لاحتلال تونس، وقد أثبتنا أن هذا أمر مستحيل على حاكم مسلم مثل المستنصر ، وأن الأمر لايعدو أن يكون مجرد هدايا بعث بها المستنصر إلى لويس التاسع لكسب وده وصداقته . وكان هذا أمرا مألوفا وقتذاك.

كما تناولنا قضية هامة أخرى وهي أن الصداقات التي كانت تربط بين سلطان مصر الظاهر بيبرس وملوك الغرب الأوروبي، وبين هؤلاء الملوك والمستنصر ، قد أتت ثمارها وأعطت فرصة للمسلمين للاستعداد العسكري لملاقاة الحملة ومعرفة خط سيرها على وجه التحديد.

كذلك كشفنا الستار عن صور عديدة أكدت تقلص الفكرة الصليبية وانهيارها في نفوس الصليبيين، ومنها المعاناة الشديدة التي لاقاها لويس أثناء دعوته للحملة وانصراف الناس عنها في الغرب، وعدم مقدرته في التأثير على الفرسان والقادة الصليبيين للانخراط في سلكها أو المساهمة المالية فيها وأوضحنا أيضا شكوك أهل الغرب في نتائج هذه الحملة، وقد تمثل هذا في التحديات السافرة التي واجهها لويس وجنوده من أهالي مدينة اجموورت الفرنسية والاشتباكات الدامية على أرض الميناء ، والتي إن دل هذا على شئ فإنما تدل على روح الكراهية التي لمسها الفرنج تجاه أي محاولة لغزو ديار الإسلام بعد فشل الحملات السابقة، وآلاف الأرواح التي ذهبت ضحيتها .

كما أكدنا أن كهولة لويس وتخبطه في اصدار القرارات الصحيحة كان عاملا مباشرا في اتخاذ سياسة مرتجلة غير مخططة أو مرسومة ، وفرصة القوى الإسلامية في التقاط الأنفاس وتعديل الخطط العسكرية لمواجهة العدو ودفعه وسلطنا الضوء أيضا على دوافع شارل صاحب انجو، ذلك القائد الذي تجرد من المشاعر الإنسانية تجاه أخيه زج به في حرب خاسرة ، وبينا أنه لم يقصد من وراء ذلك إلا الاستفادة قدر المستطاع من الحشد الهائل من جيش أخيه لإرهاب المستنصر واجباره على دفع الجزية التي كان يدفعها لآل هوهنشتاوفن، وليضمن لنفسه مزايا جديدة داخل تونس، وحتى يتخلص من وجود أخيه لويس في أوروبا حيث كان يمثل عقبة في سبيل طموحاته وتطلعاته في الانقضاض على بيزنطة

وفضلا عما تقدم، تعرضنا لقضايا عديدة تتعلق بالمدة التي قطعتها الحملة من سردينيا إلى تونس والتي اختلفت حولها المصادر، وأكدنا أنها ثلاثة أيام فقط.

كما أثبتنا بالدراسة والتحليل كذب المزاعم التي قالت أن الحملة توجهت أولا إلى الاسكندرية – وأوضحنا أن هذا كان نسج خيال المؤرخين ، وأن الأمر لايعدو أن يكون مجرد ترجيح من بعض المؤرخين بأن الحملة لابد أن تكون وجهتها مصر لمحو عار الهزيمة السابقة التي لحقت بلويس وجيشه .

كذلك توصلنا عن طريق المقارنات والموازنات التاريخية أن اليوم الذي وصلت فيه لحملة تونس هو ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذي القعدة ٦٦٨هـ، وليس يوم ٢٠ يوليو ١٢٧٠م / ٢٨ ذي القعدة ٦٦٨هـ .

كذلك سلطنا الضوء على مدى استفادة لويس هو الآخر ، من تراخي المستنصر وتلاعبه بالقرارات وعدم اتخاذ موقف موحد لمواجهة الحملة، وأكدنا أن هذه السياسة الملتوية قد أدت بنتيجة هامة ألا وهي تثبيت أقدام لويس في قرطاجنة وتعرض تونس نفسها لخطر الضياع، وقد دعمنا هذا الرأي بمضمون الرسالة التوبيخية التي وجهها الظاهر بيبرس إلى المستنصر في هذا الشأن .

كما تناولنا بالدراسة والتمحيص بعض الآراء لعدد من المؤرخين اللاتين التي دونوها بدافع العصبية والتميز لبني جنسهم، وأثبتنا كذب تلك الادعاءات ، ومنها القصة التي أتى بها وليم دي نانجي عن دخول فئة كبيرة من علية القوم بتونس في الدين المسيحي. وأكدنا أن هؤلاء ربما كانوا مجرد أسرى لدى الصليبيين ولجأوا إلى هذه الخدعة لاطلاق سراحهم . وربما تكون أيضا من نسج خيال أولئك المؤرخين .

كذلك ناقشنا بالتفصيل قضية اختفاء المستنصر من ميدان المعركة ، وهل هرب إلى قسنطينة أم القيروان . وأكدنا أنه اختفى في قسنطينة ، وأن ذلك التصرف منه يؤكد من جديد أنه شخص كان يعمل لحسابه أولا وأخيرا ، ولم يفكر في مصلحة بلاده وهي في أمس الحاجة إليه ، خاصة وأن مدينة تونس كانت قاب قوسين أو أدنى من الضياع

كذلك تناولنا قضية هامة أخرى حاول كثير من المؤرخين ابرازها على أنها من أهم أسباب فشل الحملة على تونس وهي قضية انتشار الأمراض بين جنود الحملة من الفرنج . وأثبتنا على امتداد صفحات البحث أن هذه الأمراض لاتعدو أن تكون مجرد سببا ضمن أسباب أخرى عديدة ، ومنها الصحوة الإسلامية التي فوجئ بها شارل والصليبيون ، ورغبة التونسيين في استئصال شأفة أولئك الدخلاء .

كذلك ناقشنا قضية هامة، وهي أن المعسكر الصليبي استمر في القتال تحت قيادة شارل وهو يدرك تماما أن هذا الرجل لم يأت إلا لمصالحه الخاصة، ولم يكن أمام الجميع أي خيار آخر سوى القتال .

وناقشنا أحوال المعسكرين الصليبي والإسلامي قبيل عقد الصلح بين شارل كونت انجو والخليفة المستنصر وسلطنا الضوء على اليد الخفية التي كانت لها المصلحة الطولى في هذا الصلح، ونعني بذلك المستنصر وشارل، وأثبتنا أيضا أن الشعب التونسي لفظ فكرة الصلح شكلا ومضمونا ، وأن المستنصر فشل في تهيئة الاجواء لقبوله بل فرضه رغما عن الجميع وخرجنا بنتيجة هامة أن المستنصر وشارل كانا بالفعل أهم العناصر المستفيدة ماديا من هذا الصلح وذلك عن طريق مناقشتنا لأهم بنوده .

وفي النهاية كانت لنا وقفة مع قضية أخرى اختلف حولها المؤرخين ، وهي تاريخ عقد الصلح وأكدنا أنه وقع في ٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ .

تلك هي بعض النقاط التي تناولناها بالدراسة في ثنايا الرسالة وتوصلنا فيها إلى آراء محددة، كما قمنا بتصحيح عدد من الآراء لبعض المؤرخين من قدامى وحديثي ، وأهم من كل هذا وذلك أنه قبل دراستنا هذه لم تكن قد ظهرت دراسة علمية متكاملة تلم بحملة لويس التاسع الصليبية على تونس، من مختلف مصادرها وأصولها ، من عربية ولاتينية وفرنسية قديمة وغيرها وكل ما هناك شذرات مبعثرة هنا وهناك في المراجع الخاصة بتاريخ الحروب الصليبية لاتعدو أن تكون فصلا أو بعض فصل، عالجت الموضوع في الغالب من زاوية واحدة اعتمادا على شق واحد من أصول البحث دون الشق الآخر، ولذلك تعتبر الدراسة التي نتقدم بها أول دراسة علمية متكاملة قائمة بذاتها في هذا الموضوع الحيوي الهام تلم بكل جوانبه وزواياه ، من واقع مختلف أصوله ومصادره ، من عربية وغير عربية، ومهما يكن من أمر، إذا كانت حملة لويس التاسع ضد تونس عام ١٢٧٠م / ٦٦٨-٦٦٩هـ، هي آخر الحملات الكبيرة التي تعرض لها العالم العربي الإسلامي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) ، فقد شهد القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري) ما عرف باسم الحروب الصليبية المتأخرة إذ نشط الدعاة في الغرب للدعوة من جديد للحرب الصليبية، ووضعوا الكتب والمؤلفات بهذا الخصوص ومن أهم هؤلاء الدعاة بطرس دبوا ، ورامون لال ، وبير كارد، وماريو سانودو، وفليب دي مزيير ، وكان من نتيجة

ذلك قيام عدد من الحملات الصليبية مثل حملة بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص اللاتيني على الاسكندرية عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ وحملة لويس الثاني دوق بوربون على المهدية عام ١٣٩٠م وحملة نيكو بوليس الشهيرة عام ١٣٩٦م بهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة . وقد منيت هذه الحملات بالفشل مثلما منيت الحملات الصليبية المبكرة إذ كانت الروح الصليبية قد ماتت تماما، وانفض الناس في أوروبا من حولها وأخذوا يتشككون في جدواها وفائدتها ، بعد أن ذهب الآلاف من زهرة شباب أوروبا بين قتيل وجريح وأسير في سبيل سراب خادع وبذلك دق آخر مسمار في نعش الحركة الصليبية التي أصبحت حلما من احلام الماضي البعيد حاول الغرب احياءه فكان نصيبه الاخفاق والخذلان. هذا، في الوقت الذي طويت فيه صفحة من تاريخ البشرية لتبدأ صفحة جديدة بمثل ومفاهيم جديدة مغايرة لتعلن عن بداية عصر جديد هو عصر النهضة الذي يرتبط بالتاريخ الحديث ومدنيته الزاهرة العملاقة

الملاحق

الملحق الأول:

نص مأخوذ عن مؤلف مجهول باللغة الفرنسية القديمة، يتضمن قائمة بقيمة المساعدات المدنية التي قدمها الفرسان والنبلاء إلى الملك لويس التاسع ولم يشتركوا بأنفسهم في إعداد الحملة

نقلا عن :

Liste des Chevaliers avec saint Louis en 1269, R. H. G. F., t. xx, Paris, pp. 304-306 .

الملحق الثاني :

نص مأخوذ عن «تاريخ الامبراطور هرقل» باللغة الفرنسية القديمة ، ويتضمن أسماء من ماتوا في الحملة من الصليبيين اما بسبب المرض أو نتيجة العواصف التي داهمتهم في رحلة العودة من تونس .

نقلا عن

Eracles, L'Estoire de Eracles Emperor et La Conquests de la Terre d'outre me R. H. C. H. Occ. t. II, Paris. 1859 , p. 458 .

الملحق الثالث :

نص باللغة الفرنسية القديمة يتضمن وصفا للعاصفة التي واجهت الصليبيين في الرحلة من اجمورت إلي سردينيا في الطريق إلى تونس .

نقلا عن :

Nangis, G. , Vie de Saint Louis, R. H. G. F. t. xx pp. 441 .

الملحق الرابع :

جدول تواريخ الحملة حسب تسلسلها الزمني.

رأينا تزويد البحث بأربعة ملاحق هامة تتصل به اتصالا وثيقا وتسلط الأضواء في كثير من جوانبه وزواياه . وأولها نص يتضمن قائمة بقيمة المساعدات المالية التي قدمها الفرسان والنبلاء للويس ، وهو لمؤلف مجهول، ويركز هذا النص على نوعية المساعدات التي تقدم بها الفرسان الذين لم يشتركوا مع لويس، ويوضح التسهيلات التي منحها الملك لهم حتى يشجعهم على الانخراط في حملته والنص يلقي الضوء على سلبية وتقاعس الكثيرين، في وقت بدأت فيه الفكرة الصليبية في التقلص بينما أخذ الناس في الغرب ينفضون عنها والنص لايزال بلغته الفرنسية القديمة ، وقد قمنا بنقله المرة الأولى إلى اللغة العربية.

أما الملحق الثاني فهو نص مأخوذ من «تاريخ الامبراطور هرقل» ويتضمن أسماء كل من مات في الحملة سواء داخل تونس أو في رحلة العودة من تونس إلي أوروبا وقد سجل النص أسماء الأمراء والقادة والملكات والأميرات أيضا، وهو يوضح الحالة المتردية التي آلت إليها الحملة سواء بسبب انتشار الأمراض بتونس التي فتكت بعدد كبير من الفرنج، أو نتيجة للعاصفة الشديدة التي واجهتهم في رحلة العودة ، والنص لايزال هو الآخر بلغته الفرنسية القديمة، وقد قمنا بنقله المرة الأولى إلى اللغة العربية.

أما الملحق الثالث فهو نص مأخوذ من سيرة الملك لويس التاسع للمؤلف الفرنسي وليم دى نانجي ، ويحتوى على وصف دقيق للعاصفة التي واجهت الجيوش الصليبية أثناء ابحارها من ميناء اجمورت إلي جزيرة سردينيا في الطريق إلي تونس وهو يكشف عن الحالة المتردية التي أصابت الحملة قبل وصولها تونس، والأنانية التي سيطرت على القادة والفرسان الذين لم يفكروا إلا في ذواتهم ولم يعيروا أدنى اهتمام لجنودهم، بل انصب اهتمامهم على الهروب بأنفسهم من الموت والهلاك، مما يوضح التفكك الداخلي الذى ألم بالحملة قبل مواجهة التونسيين والذى كان له أثره في النتيجة التي آلت إليها الحملة، والنص لايزال بلغته الفرنسية القديمة وقد قمنا بنقله المرة الأولى إلى اللغة العربية

أما الملحق الرابع والأخير عبارة عن جدول زمني باليوم والشهر والسنة ، للأحداث الهامة المتعلقة بالحملة منذ الاعداد لها في فرنسا وحتى رحيلها عن تونس

الملحـــق الأول

الترجمة العربية

- السيد / رازول ديمترى ، المارشال وقد قدم ستة من الفرسان وساهم بنسبة ١٦٪ من العملة التورنوا .
- السيد لانكيلوت دى سان ماريه المارشال ، ساهم بنسبة ١٤٪ من العملة التورنوا .
- السيد / بيير دى موليه وقد أدى ١٣٪ من العملة التورنوا فضلا من ٤٠٠ تورنو، قدمها بصورة سرية
- السيد / كولار دى موليه شأنه شأن السيد بيير (أى دفع نفس الحصة) .
- السيد / جبيل دى توربيل ، دفع ١٢٪ من النفقات ، أما عملية اطعام ومعيشة فرسانه فكانت على نفقة الملك.
- السيد / ماهى دى روا ، قدم ثمانية من الفرسان ، ودفع ألفين من العملة التورنوا فضلا عن العديد من المنح الخاصة أما مسألة مأكل الفرسان ومعيشتهم فكانت على نفقة الملك.
- السيد / جيرار دى موربوا ، قدم اثنتى عشر من الفرسان، ودفع ٣ الاف من العملة التورنوا.
- السيد / رازول دى فيل ، قدم خمسة من الفرسان، ودفع ٤ آلاف من العملة التورنوا أما الاقامة والمأكل فكانا على نفقة الملك أى على حساب البلاط الملكي.
- السيد / همورى دى ميولانك، قدم خمسة من الفرسان ، ودفع ٤ آلاف من العملة التورنوا وبالنسبة للمأكل والاقامة فكانت على نفقة الملك.
- السيد / أتوت دى شانت ، قدم اثنى من الفرسان، و٢٦٪ من العملات التورنوا وبالنسبة للاقامة والمأكل على نفقة الملك.
- السيد / رازول ، قدم ستة من الفرسان و٥٠٠ من العملة التورنو ، والمعيشة على نفقة الملك.
- مسيو بفوان دى لوبمثيال قدم أربعة من الفرسان ، و١٩٪ من العملة التورنوا

السيد / لويس دى بوجوه قدم اثنى من الفرسان، وألفين وستمائة من العملة التورنوا والمعيشة على حساب الملك .

- السيد / يوحنا دى فيل، قدم أربعة من الفرسان، و٦٢٪ من العملة التورنوا ، والمعيشة على حساب الملك.

- السيد / ماهي دي لاتوريك ، قدم ١٢٪ من العملة التورنوا ومعيشة الفرسان على حساب الملك.
- السيد / ويليام دي كورتناي، قدم عشرة من الفرسان، وألفي ومائتين من الجنيهات والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيد دي سانتر، دفع وحده ٨٠٪ من العملة التورنوا ، ومعيشته على نفقة الملك.
- السيد / روبرت دي بوا، دفع وحده ٨٠٪ من العملة التورنوا والمعيشة على نفسة الملك.
- السيد / ستيفن ابراس ، دفع وحده ٨٠٪ من العملة التورنوا والمعيشة على نفقة ،الملك.
- السيد / جيل دي ماي، قدم عشرة من الفرسان ، و٣٠٠٠ تورنوا والمعيشة على نفقة الملك كما تحمل الملك نفقات ذهابهم وعودتهم.
- السيد / أنبيه دي ماجراي، قدم خمسة من الفرسان، و١٢٪ من العملة التورنوا مع كفالة ذهاب وعودة هؤلاء الفرسان ومعيشتهم على نفقة الملك
- السيد / وليام دي فريس قدم عشرة من الفرسان ، و٢٦٪ من العملة التورنوا ومعيشة الفرسان على نفقة الملك.
- الأميرة توجين قدمت عشرة من الفرسان، وألفي وستمائة من التورنوا والنفقات من حيث المأكل والنوم على نفقة الملك.
- الأميرة دي سان بو، قدمت ٣٠٠ من الفرسان لهم حق الذهاب والعودة فضلا عن أشياء أخرى ثمينة ، ١٢,٢ ألف من العملة التورنوا، و١٢ / أخرى تدفع مصورة خاصة
- السيد / لامبارت دي ليمون ، قدم اثنين من الفرسان، ١٨ / من العملة التورنوا والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيرارد دي شامباني، قدم ١٠ من الفرسان، و٢٧٠٠ من العملة التورنوا ومعيشة هؤلاء الفرسان على نفقة الملك.
- السيد / ريموند ابان، قدم خمسة فرسان ودفع ٩١٢ من العملة التورنوا .
- السيد / يوحنا دي بليمس، قدم عشرة من الفرسان و٣ آلاف من التورنوا وعليه تعيين من يساعده في تنظيم شئون الانفاق على هؤلاء الفرسان داخل القصر الملكى على أن يكفل لهم الملك أمر الذهاب والعودة.
- السيد / دي شامبانيا قدم عشرة من الفرسان ، ولم يطلب شيئا من الملك.
- السيد ؟ جيلان دارت قدم خمسة من الفرسان و٩١٢ من التورنوا .
- السيد / ويليام دي ايلامر قدم ٢٠ من الفرسان وستة آلاف من التورنوا وأسهم في مسئوليات الملك لتنظيم شئون الحملة داخل القصر

الملحق الثانـي

الترجمة العربية

« .. ثم مات ابنه يوحنا الحزين «امام تونس» - وبعد ذلك توفي القاصد الرسولي» رالؤل جروسبارمي» كاربنيال وأسقف الباتو- ثم مات ملك فرنسا الطيب ولحق به ملك «نافار» وجمع آخر كبير من الكونتات والبارونات وعدد آخر من العامة (آثار العجب) .

بعد وفاة ملك فرنسا ، تولى الملك شارل قيادة الجيش وتفاوض من أجل وقف الحرب وتحقيق السلام، وقد حصل هو والبارونات الآخرون على الكثير من الأسلاب التي استولوا عليها من ملك تونس وعادوا مرة أخرى إلى تراجيس[١]. وأثناء عودتهم إلى ذلك الميناء حطموا أكثر من أربعين سفينة وقضوا على ما بها من سلع وأفراد وخيول.

وأثناء العودة إلى فرنسا ماتت «ايزابيل داراجون» زوجة فيليب الجرئ كذلك ماتت ملكة نافار المعروفة بايزابيل الفرنسية ابنة القديس ليوس (لويس ٩) في مدينة «كس أن بروفنس» أثناء عودتها من تونس.

كذلك توفي «الفونس» كونت بواتييه وتولوز الذى كان معه عدد كبير من الرجال ولكن بعد عودته من تونس إذ أنه مرض أثناء عودته إلى بلده فنزل في «البنجا» وهى مدينة تقع بالقرب من جنوة حيث مات، وكانت وفاته خسارة كبيرة في البر والبحر.

١- لم يتيسر لنا العثور على ما يفيد هذا الموقع

الملحق الثالث

الترجمة العربية

.. بعد ذلك بقليل وحين تم تجهيز وإعداد كل شئ في الميناء دخل الملك لويس في سفينته يوم الثلاثاء بعد عيد القديس بطرس (وهو الموافق ٢٩ يونيو) من عام ١٢٧٠ ميلادية، وكان معه أولاده «بيير» و«يوحنا» والابن الأكبر «فيليب» ودخل البارونات الآخرون بعد الملك في سفنهم ومكثوا بها طوال النهار والليل حتى صباح يوم الأربعاء وأقلعت السفن في ذلك اليوم واليوم التالي وكانت الرياح تساعدهم حتي منتصف ليلة الجمعة إذ هبت عاصفة قوية قلبت البحر وأحدثت دوامات وبعثرت السفن هنا وهناك . وقد حدثت تلك العاصفة في مياه خليج ليون وقد سمي ذلك اليوم بيوم العاصفة من هولها وشدتها وكثرة الأمواج التي أبعدت السفن عن بعضها البعض والتي كانت حتي تلك اللحظة متقاربة وعلي مرمى بصرنا وحين اجتازوا هذه المياه بصعوبة بالغة وجدوا في صباح يوم السبت بحرا هادئا وجوا لطيفا حتى أن كل من قاسى من اضطراب ودوار البحر وجد السكينة وأبحروا في هدوء وسلام حتي منتصف ليلة الأحد إذ فاجأتهم كتل ضخمة من الضباب ورياح قوية قلبت البحر بدرجة أعنف وأخطر من تلك التي كانت قد مرت بهم في مياه خليج ليون (هذا الخليج على السواحل الجنوبية لفرنسا).

وفي صباح اليوم التالي أمر الملك أن تؤدى ٤ صلوات من أجل أن تهدأ العاصفة كانت هذه الصلوات احداها خاصة بالسيدة العذراء والثانية بالملائكة والثالثة بروح القدس والأخيرة بالأموات- ونلاحظ تحسن حالة البعض وتماسكهم بينما كانت تؤدى هذه التراتيل- وفي الترتيل الثالث بدأ البحر يهدأ وانتهي الدوار الذي كان يشعر به الناس وجلسوا لتناول الطعام، إذ أن المياه العذبة التي وجدت معهم على السفن كانت قد فسدت ولاتصلح اطلاقا للشرب فقد مات عدد كبير من الرجال والخيول من شربهم لهذه المياه الفاسدة في نفس هذا اليوم عند غروب الشمس تعجب الناس من طول المدة التي قضوها في البحر ولم يصلوا بعد إلى الميناء «كالياري»[1] في سردينيا حيث ينتظرهم باقي البارونات الذين يشتركون في هذه الحملة لذلك استدعى الملك رئيس البحارة ليحدد له مكانهم من ميناء كالياري. وجاء رد البحار بأنهم ليسوا بعيدين عن الأرض وأحضر له خريطة ليوضح له مدى قربهم من الميناء وأنهم فعلا اقتربوا من الساحل.

---

١ – كالياري هو ميناء يقع جنوب جزيرة سردينيا

الملحق الرابع

جدول تواريخ الحملة حسب تسلسلها الزمني

٣٠ مارس ١٢٧٠م / ٤ شعبان ٦٦٨هـ : رحيل الحملة من باريس إلى اجمورت .

١٧ أبريل ١٢٧٠م / ٢١ شعبان ٦٦٨هـ أول اجتماع رسمي للويس التاسع مع قادته في اجمورت .

٢- يوليو ١٢٧٠م / ١١ شعبان ٦٦٨هـ رحيل الحملة من اجمورت إلى سردينيا بسبب الشغب .

٨ يوليو ١٢٧٠م / ١٧ ذي القعدة ٦٦٨هـ : وصول الحملة إلى جزيرة سردينيا .

١٥ يوليو ١٢٧٠م / ٢٣ ذي القعدة ٦٦٨هـ الإبحار من سردينيا إلى تونس

١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذو القعدج ٦٦٨هـ وصول الحملة قبالة تونس

٢٤ يوليو /١٢٧٠ ٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ مهاجمة الصليبيين قرطاجنة وسقوط القلعة في قبضتهم

٢٩ يوليو ١٢٧٠م / ٧ ذي الحجة ٦٦٨ هـ سقوط ميناء قرطاجنة في ايدي الصليبيين.

٣٠ يوليو ١٢٧٠م / ٨ ذي الحجة ٦٦٨ هـ سقوط برج قرطاجنة في قبضتهم .

٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٣ ذي الحجة ٦٦٨هـ أول معركـــة مباشـــرة بين قـــوات لويس والمستنصر .

٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ محرم ٦٦٩هـ وفاة لويس التاسع قبالة قرطاجنة وهو نفس يوم وصول شارل إلى تونس.

٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ أول معركة مباشرة بين شارل صاحب انجو والمسلمين .

٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م / ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين

٢١ نوفمبر ١٢٧٠م / ٤ ربيع أخر ٦٦٩هـ . رحيل الحملة عن تونس إلى الغرب

مصادر ومراجع

بيان بالمختصرات

A.O.L. - Les Archives de l'Orient Lation.

Bib. de Crois - Michaud, Bibliotheque des Croisades.

Ency. Brit - Encyclopaedia Britannica.

Encyc. of Islam - Encyclopaedia of Islam.

G. D. F. - Bongars, Gesta Dei per Francos.

Hist, de Fr - Recueil des Historiens de Gaules et de la France.

Mon. Cart. -Y. Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.

P. P. T. S. - Palestine Pilgrims' Text Society.

R. H.C.Doc, Arm- Recueil des Historiens de Croisades Documents Arememens.

R. H.C. H. Occ - Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentoux.

R. H. C. - H. Or. - Recueil des Historiens des Croisades Historiens Orientaux.

R. O. C. - Revue de l'Orient Chretien.

R. O. L. - Revue de l'Orient Latin.

مجموعات الحروب الصليبية

Bongars, J. (ed), Gesta Die per Francos, Sive Orientalium pedituonum et Vegm Francorum Hierosolimuoni Historia (ab a. 1095 ad . 1420) a Varus, Sed illius aevi Scriptoribus, Litteris , 2 t., Hanover , 1612 .

Bouquet , M. (ed.) Recueil des Historiens des Gaules et de France , 24 vols ., Paris, 1938-1904 .

Reinaud , M., Extraits des Historiens arabes relatifs aux guerres des croisades, Paris, 1829 .

Recueil des Croisades, Paris, 1829

Recuil des Historiens des Croisade Publie - par les Soins de L'Academie des Inscriptions et Belles - Letres. in 16 hyge folio vols ., Paris, 1841-1906 :

I- Historiens Occidentaux, 5 tomes (18 - 1895) ,

II- Historiens Orientaux , (Arabes) 5 tomes (1872-1906) ;

III- Historiens Grecs, 2 tomes (1875-1881) ;

IV- Documents Are meniens, 2 tomes (1869-1906) ,

V- Lois, 2 tomes (184-1843) .

Les Arch ives de L'Orient Latin Pupliées par la Societe de L'Orient Latin, 2 vols ., Paris, 1881 at 1887 .

Texte invenaires , et etudes originales.

Palestine Pilgrims Texte Society. 13 vols ., and general Index, London , 1887-1897 .

Revue de l'Orient Latin pupliée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogué et Ch. Schefer , Paris, 1896-1991

Revue de L'Orient Chrétien, dirigée par Graffin et F N au , Paris, 1906-1924

المصادر الأوروبية

Annales de Terre Sainte . 1095-1291 , Publiées par R. Rohricht et G Raynoud, in A.O.L., t. II, Paris .

Anonymous , Chronique Anonyme des rois de France Finissant en 1286. Ed, Hist. de Fr. XXi , pp. 82-86 .

Anonymous , Extraits d'une chronique anonyme , finisant en 1380. Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 305-318 .

Anonympous, Listen de Chevaliers Croises avec Saint Louis en 1269 , Ed. Hist de Fr., XX, pp. 305-318 .

Anonymous, Gesta Alia Sancti Ludovici noni , Francorum regis. Ed. Hist. de Fr. XX, p. 56 .

Beaulieu , Geoffroi de, Vita et Sancta conversatio Piae memoriae , Ludovici noni regis Francorum- Ed. Hist. de Fr, XX, pp. 20-26 .

Chartres, Guillaume de , De Vita et actibus inclytae recordationis regis Francorum Ludovici et de miraculis quae ad ejus Sanctitatis declarationem contigerunt - Ed. Hist. de Fr . XX., pp. 28-39

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Autremer Ed. R. H. G.- H. Occ., t. II, Paris, 1859, pp. 458-460 .

Joinville, Jean de, Histoire de Saint Louis . Texte Orignal du XIve Siécle acompagne d'une traduction en Francais moderne par M- Natalis de Wailly , Paris , 1874 .

Les Gestes de Chiprois, Ed, R.H.C.- Doc . Arm , t. II, Paris, 1906 .

Louis IX (St. Louis) :

1- St. Louis nolise Seize nvires genois pour Sapremiere croisade . Ed. A.O. L., t. II, Paris, 1884. pp. 232-6).

2- Saint Louis , King of France, English, Trans. by James Hutton , London, 1868

Matt. of West ., The Flowers of History, 2 vols ., London 1853 .

Nangis, Guillaume de ,

1- Vie de Saint Louis, Ed. Hist . de Fr., XX pp. 439-463 .

2- Vie de Philippe III, Ed. Ahist. de Fr. XX, pp. 464-482 .

3- De Nangiaco Chronion (1226-1300) . Ed . Hist. de Fr , XX, pp. 543-582 .

4- Chronique Abergée ou "Chronique des rois de France, Ed . Hist . de Fr., TXX, pp. 647-653 .

Paudus, Guillaume de, Historiae Albigensium, auctore Guilielmo de Podio Laurentii, Pars, Ultima, ab anno 1230 ad 1272. Ed. Hist . de Fr , XX, pp. 474 .

Paris, Matthew , Matthew Paris, English History from the Year 1239 to 1273, Trans . From the Latin by J.A. Giles, 2 vols ., London , 1852-3 .

Rothelin , Continuation de Guillaume de Tyre du manuscrit de Rothelin (1299-1261) Ed R.H.C.- H. Occ., t. II, Paris, 1859; pp. 489-639 .

St. Denis, Extraits des Chroniques de Saint Denis, ou les Grandes Chroniques de France - Ed. Hist de Fr., XXI, pp. 103-123

St. Pathus , Guillaume de.

Vie de Saint Louis. Ed. Hist . de Fr. , XX, pp. 68-69 , 103 .

Wuegler , Paul , The Infidel Imperor and his Struggles against the pope . A Chronical of the 13 th century by p. Wiegler , tr . by Brian W. Downs, London, 1930 .

المصادر العربية

أولا : المخطوطات والمخطوطات المصورة

١- ابن أيبك (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) أبوبكر بن عبدالله

أ- «درر التيجان وغرر تواريخ الزمان» ، دار الكتب المصرية، رقم ٤٤٠٩ تاريخ.

ب- «كنز الدرر وجامع الغرر» ، ٩ج - دار الكتب المصرية ، رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

٢- ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي

«الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين» ، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٢٢ تاريخ .

٣- ابن الفرات (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠٢م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي

«تاريخ الدول والملوك» ، ١٨ مجلدا ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣١٩٧ تاريخ ، تصوير شمسي .

٤- ابن رسول (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) عباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر

«نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون» ، مجلدان ، دار الكتب المصرية، رقم ٤٩٦٤ تاريخ.

٥- ابن واصل (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم

أ- «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ٢ ج، مكتبة جامعة الاسكندرية، رقم ٦٤ مخطوط، «تصوير شمسي».

ب- «التاريخ الصالحي» ، مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، رقم ٣١٤٣ب، «تصوير شمسي».

٦- أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٥٤م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي

«المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» ٣ ج، دار الكتب المصرية ، رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

٧- بامخرمة (عاش في القرن العاشر هـ / السادس عشر م) أبو محمد بن عبدالله أحمد بن علي:

«قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» ٦ ج، دار الكتب المصرية ، رقم ٤٤١٠ تاريخ .

٨- بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري.

«زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » ج١٠ ، مكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ «تصوير شمسي» .

٩- السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن.

«تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات وما يتبع ذلك». مكتبة بلدية الاسكندرية، رقم ١٤٨٦ب.

١٠- السلامي (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد.

«مختصر التواريخ » دار الكتب المصرية ، رقم ١٤٢٥ تاريخ .

١١- السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) أبو الفضل عبد الرحمن

«تاريخ السلطان الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري». دار الكتب المصرية، رقم ١٥٥٩ تاريخ .

١٢- العيني (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى

«عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» ٢٣ ج في ٦٩ مجلد ، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ تاريخ، «تصوير شمسي».

١٣- الفيومي (ت حوالي ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) أحمد بن محمد بن علي

«نثر الجمان في تاريخ أهل الأعيان» المجلد الثاني ويبتدئ من أثناء سنة ٦٢٣هـ وينتهي إلى ٦٨٩هـ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٧٤٦تاريخ .

١٤- الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين.

«عيون التواريخ» ، ١٦ مجلدا، بينها منها مجلد مكتوب عليه الجزء العشرون، ويبتدئ من ٦٤٥ هـ وينتهي إلى ٦٧هـ ، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٩٧ تاريخ، «تصوير شمسي» .

١٥- النويري الكندي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد.

«نهاية الأرب في فنون الأدب» ٥٥ مجلدا، دار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة ، «تصوير شمسي».

١٦- اليونيني (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) موسى بن محمد بن أحمد قطب الدين

«ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» ، ج١٥ و١٧دار الكتب المصرية، رقم ١٥١٦ تاريخ .

ثانيا : المصادر المطبوعة

١- ابن أبي دينار (عاش في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي):

أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس ١٩٦٧ .

٢- ابن أبي زرع (ت حوالي ٧٢٦هـ / ١٣٢٧م) علي بن محمد الفاسي.

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط ١٩٧٣ .

٣- ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٢٤م) أبو الحسن بن أبي الكرم الملقب عز الدين.

الكامل في التاريخ، طبعة بيروت، ١٩٦٦، وبولاق ١٩٣٦م.

٤- ابن القنفذ (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) أبو العباس أحمد بن حسين بن الخطيب القسنطيني الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد تركي، تونس ١٩٦٨ .

٥- ابن الوردي : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر تتمة المختصر في أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ ابن الوردي، القاهرة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م.

٦- ابن اياس (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) أبو البركات محمد بن أحمد

كتاب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور في وقائع الدهور- ٤ ج، الطبعة الأولى، القاهرة (بولاق) ١٣١١-١٣١٤هـ .

٧- ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله

مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢ج، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٧ .

٨- ابن حوقل (عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) أبو القاسم بن حوقل النصيبي.

صورة الأرض، ليدن (مطبعة بريل) ١٩٣٨ .

٩- ابن خرداذبة (ت في حدود ٣٠٠هـ) أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله

المسالك والممالك ، ليدن (مطبعة بريل) ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م .

١٠- ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ج، القاهرة (بولاق) ١٢٨٤هـ طبعة بيروت ، ١٩٦٨ .

- المقدمة، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨١ .

١١- ابن خلدون (ت ٧٧٩هـ / ١٢٥٨م) أبو زكريا يحيى بن خلدون.

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر ١٩٨٠ .

١٢- ابن شاهين (ت ٧٨٢هـ / ١٤٦٧م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري.

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس، باريس ١٨٩٤م.

١٣- ابن عبدالظاهر (٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) محيي الدين.

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياط ١٩٧٦ .

١٤- ابن عذاري المراكشي (ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م) أبو العباس أحمد

البيان المغرب في أخبار المغرب ، ٤ ج ، بيروت ١٩٥٠، ماعدا ، ج٣ طبعة تطوان ١٩٦٠ .

١٥- ابن مطروح (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥١م) جمال الدين يحيى

ديوان ابن مطروح ، الطبعة الأولى ، قسطنطينية ١٢٩٨هـ .

١٦- ابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) جمال الدين أبو الفضل محمد

لسان العرب المحيط، ١٠ج، بيروت ، بدون تاريخ .

١٧- أبو الفدا (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن علي

المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء ٤ج، الاستانة، ١٢٨٦هـ

١٨- أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩ج، القاهرة (دار الكتب المصرية)، ١٣٤٨-١٣٦١هـ / ١٩٢٩-١٩٤٢م

١٩- البلاذرى (ت ٢٧٩هـ / ٨٥٨م) أحمد بن يحيى بن جابر بن داود

فتوح البلدان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، ٢ ج، القاهرة ١٩٠٦ .

٢٠- الحميرى (ت ٩٠٠هـ / ١٣٧٩م) محمد بن عبد المنعم.

الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥

٢١- ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الحى بن علي بن محمد:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ج ، بيروت (بدون تاريخ)

٢٢- الادريسى (٥٦٠هـ / ١١٦٦م) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس.

صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشر هذا القسم وقدم له وترجمه إلى الفرنسية دوزى ودى غويه ليدن (مطبعة بريل) ١٨٦٦م.

٢٣- الاصطخرى (عاش في القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) ابو اسحاق ابراهيم ابن محمد.

مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧ .

٢٤- الخوارزمي (تاريخ الوفاة غير معروف) أبو جعفر محمد بن موسى.

كتاب صورة الأرض، منقولة عن كتاب الجغرافيا الذى ألفه بطليموس القلوذى، نسخه وصححه هانس فون مزيك، فيينا ١٣٤٥هـ- ١٩٢٦م.

٢٥- الدمشقي (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م) محمد بن أبي طالب الأنصارى الصوفى المعروف بشيخ الربوة والمكنى بالدمشقى :

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، كوبنهاجن ١٨٠٤م، مطبعة ليبزج ١٩٢٣

٢٦- الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين.

دول الإسلام، ٣ج، الهند- حيدر أباد ١٣٣٧هـ

٢٧- الزركشي (ت ٨٨٢هـ / ١٤٦١م) أبو عبدالله محمد بن ابراهيم

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦ .

٢٨- السلاوي (ت ١٢١٥هـ / ١٨٩٥م) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

٢٩- العمري (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل الله.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج١ ، نشره المرحوم أحمد زكي ، القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م .

٣٠- الغبريني (ت ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م) أبو العباس بن أحمد الغبريني:

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجايه ، تحقيق الأستاذ رابح بونار، الجزائر ١٩٧٠ .

٣١- الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين.

فوات الوفيات، ٢ ج في مجلد احد ، القاهرة ١٢٩٩هـ

٣٢- القزويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود.

آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٣ .

٣٣- القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله

صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ١٤ ج، القاهرة ، (دار الكتب المصرية) ١٩١٣-١٩١٩ .

٣٤- المسعودي (غير معروف تاريخ الوفاة) محمد الباجي.

الخلاصة النقية في ذكر أمراء أفريقيا، تونس ١٣٢٣هـ / ١٨٦٦م .

٣٥- المسعودي (ت ٣٤٦هـ) أبو الحسن علي بن الحسين.

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٣٦- المراكشي (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م) محيي الدين عبد الواحد

المعجب في تلخيص المغرب ، تقديم محمد الفاسي، المغرب ١٩٣٨ .

٣٧- المقدسي (عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) شمس الدين أبو عبدالله المعروف بالبشاري :

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، ليدن (مطبعة بريل) ١٩٠٩م.

٣٨- المقري (ت ١٠٤١هـ ١٦٣١م) أحمد بن محمد المقري التلمساني.

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، عشرة أجزاء، بيروت ١٩٦٨م.

٣٩- المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس أحمد

١- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، ٢ ج، القاهرة بولاق ١٢٧٠هـ

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك ج١، ٢ إلى سنة ٧٤١هـ، نشره وعلق عليه د. محمد مصطفى زيادة.

٤٠- جبران مسعود (تاريخ الوفاة غير معروف) :

الرائد ، بيروت ١٩٨١م.

٤١- مجهول.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، نشره وصححه د. سي علوش، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، ج٦ ، الرباط ١٩٣٦ ، وطبعه أخرى تحقيق د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة ، الرباط ١٩٧٩م.

٤٢- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الملقب شهاب الدين.

معجم البلدان ، ٤ ج، ط بيروت ١٩٥٦ ، الجزء الرابع ، ق٢ طبعة ليبزج ١٨٦٩

المراجع الأجنبية

Archer, T.A. & Kingsford, G L., The Crusades of Jerusalem, 5 th . impersion . London 1919 .

Atiya, A. S.,

1- The Crusade of Nicopolis, London 1934

2- The Crusade in the Later Uiddle Ages London , 1938 .

Bailly , A., Saint Louis, Paris, 1949 .

Bainville, J. , Histoire de France, Paris, 1925 .

Barthold, W , Histoire des Turcs d'Asie Centrale, Adaptation francaise par Umc U. Donekis, Paris, 1945 .

Berger , E., Saint Louis et Innocent IV Etude Sur les rapports de la France et du Saint les Siege Paris, 1893

Bordeaux, H., Un Precurseur Vie , mort et Survie de Saint Louis , Roi de France. Paris, 1949 .

Boulenger, J., La Vie de Saint Louis , Paris, 1929

Bray, A., The Good St. Louis and his Times, London, 1870 .

Brunschivig , R., La Berbene Orient Sous les Hafsdas, 2 Tomes, Paris, , 1940-46

Calendener liturgique des dioceses de France, 1978 .

Calmette, J., Le Monde Féodal , Paris, 1937

Campbell, G. , The Crusades , London, 1935 .

Davis, H W. C. Mediveal Europe, London 1941 .

Deguignes, C. L., Histoire generale des Huns , des, Turcs, des Mongols , et des autres Tartares occidentaux avant et depuis Jesus - Christ Jusqu; apresent. 4 t., en 5 vols ., Paris 1756-7

Daru, Le Comte, Histoire de la republique de venice , 10 Toms, Bruxelles, 1840 .

Gibbon, E., The Crusades: A.D. 1095 1291 , London , 1870 .

Grousset , R. Histoire des Croisades et du Royame France de Jerusalem, 3 vols., Paris , 1948

Guizot, M., Saint Louis and Calvin , London , 1809

Hassall, A., France Mediaval and Modern , Oxford , 1918 .

Howorth , H., History of the Mongols from the 9 th to the 19 century , 4 Parts in 5 vols ., London , 1876-1927 .

Kitchen , G., A History of France, vol . 1, Ixford , 1899 .

Lamb, H., The Crusades The Flame of Islam , London , 1931

Ludlow, J.M., The Ago of the Crusades, Edinnburgh, 1897

Michaud, M , Histoire desCroisades, 7 toms , Paris 1819-1822 .

Miller , G., History , philosophically illustrated from the fall of the Roman Empire to the French Revolution , 4 vols ., London , 1849-1852 .

Richard , J., Orient et Occident au moyen a la contacts et . relations (XIIe - XVe S.), London , 1970

Rohricht , R., La Croisade du prince Edward , Angleterre in A.O.L., t. II, Paris , 1881 .

Molinier , A., Les Sources de L'histoire de France depuis les origines Jusque, en 1815 . Cf . vol . III: Les Capetiens ' 1180 - 1328 , Paris , 1903 .

Runci man , S.,

1- Byzantine Civilisation , London , 1948

2- A History of the crusades, 3 vols ., London , 1971 .

Tenison, E., Chivalry and the Wounded . The Hospitallers of St. John of Jerusalem (1014-1914), London , 1914

Treece , H., The Crusades. New York , 1914

Wustenfeld, Mahler Sche Vergleichungs- Tabellen Der Mohammedanschen und Cunstlichen Zeitrechnung, Traduction en Arabee par DrA-M maged A. M. Ramadan, le Caire , 1980 .

المراجع العربية والمعربة

١- ابتسام مرعى (دكتوره) العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى، الاسكندرية ١٩٨٥ .

٢- ابراهيم على طرخان (دكتور) . المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ .

٣- أنور الجندى: الإسلام تاريخ وحضارة ، دار الاعتصام ، بدون تاريخ .

٤- آدم متز الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، ٤ ع ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٥- أبوزيد شلبى (دكتور) تاريخ الحضارة الإسلامية ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٦- أحمد الشامى (دكتور) الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، الدمام ١٩٨٣

٧- أحمد مختار العبادى (دكتور) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ١٩٦٨ .

٨- تاريخ البحرية المصرية نخبة من أساتذة جامعة الاسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية المصرية، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

٩- جمال الدين الناصورى (دكتور) جغرافية العالم - أفريقيا ، القاهرة ١٩٥٩

١٠- جمال الدين سرور (دكتور) دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

١١- جوانفيل (جان دى) : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق د. حسن حبشى ، الطبعة الأولى، القاهرة ، ١٩٦٨

١٢- جوزيف نسيم يوسف (دكتور) .

١- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ط. خامسة، الاسكندرية ١٩٨٧

٢- العدوان الصليبى على مصر، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٣- العدوان الصليبى على بلاد الشام، الاسكندرية ١٩٨٤

٤- الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٨٦ .

٥- تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٦- الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦

٧- العدوان الصليبي والرأي العام الغربي، محاضرة من سلسلة المحاضرات العامة للعام الجامعي ٦٧ / ١٩٦٨ الاسكندرية، ١٩٦٨ .

١٣- حامد غنيم أبو سعيد (دكتور) :

١- مراكز الحضارة الإسلامية، ٢ج ، القاهرة ١٩٧٦

٢- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ٣ج، القاهرة ١٩٧٣ .

١٤- حسن ابراهيم حسن (دكتور) تاريخ الإسلام الديني والثقافي والسياسي والاجتماعي الطبعة التاسعة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٥- حسن حسني عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٦- حسين مؤنس (دكتور) فتح العرب للمغرب، القاهرة ، ١٩٤٧ .

١٧- ساليفان (رينشارد أ) ورثة الامبراطورية الرومانية ، ترجمة وتقديم د. جوزيف نسيم، الاسكندرية، ١٩٨٥ .

١٨- سامية عامر (دكتورة) الصليبيون في فلسطين- بلاد الشام - دار عين ، القاهرة ٢٠٠١

١٩- ستيفن رانسيمان . تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ج، ترجمة د السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٩ .

٢٠- السيد عبد العزيز سالم (دكتور)

١- المغرب الكبير، العصر الإسلامي، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، الاسكندرية ١٩٦٦

٢- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت ١٩٦٢

٣- «المهدي بن تومرت» مقال بدائرة معارف الشعب رقم ١٩٦٠

٤- المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس ، مقالان بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد، القاهرة ١٩٦٠، كتاب الشعب عدد ٧٨ .

٥- «المغرب الإسلامي» كتاب الشعب عدد ١٣٨ ، ١٣٩ ، القاهرة ١٩٦١ .

٢١- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) تاريخ المغرب العربي، الاسكندرية ١٩٥٦

٢٢- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى - ٢ ج ، القاهرة ١٩٦٢

٢٣- صابر محمد دياب (دكتور) مدينة تونس في التاريخ الإسلامي، مقال في مجلة جامعة القاهرة (فرع الخرطوم) العدد الثامن، القاهرة ١٩٧٧م.

٢٤- عبد الرحمن حميدة (دكتور) . أعلام الجغرافيين العرب، دمشق ١٩٧٩ .

٢٥- غوستاف لوبون (دكتور) حضارة العرب، نقله إلى العربية محمد عادل زعيتر، القاهرة ١٩٤٥ .

٢٦- لويس شيخو جولة في الدولة العلوية، انظر مجلة المشرق السنة ٢٢-١٩٢٤، العدد ٧ بيروت ١٨٩٨-١٩٢٨ .

٢٧- محمد الحبيب (دكتور) : لب التاريخ ، تونس ، ١٣٤٤هـ .

٢٨- محمد الصادق عفيفي (دكتور) تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، القاهرة ١٩٧٦-١٩٧٧

٢٩- محمد عبد الله عنان (دكتور) دولة الإسلام في الأندلس، ٢ج، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٦٩ .

٣٠- محمد فرج (دكتور) المدرسة العسكرية الإسلامية، ط٢، القاهرة ١٩٧٩ .

٣١- محمد مزالي وأخرون تاريخ أفريقيا الشمالية - تونس- الجزائر- المغرب من الفتح الإسلامي حتى ١٨٣٠م، تونس ١٩٧٨ .

٣٢- مكسيموس مونروند تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب ، ترجمه من الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم، ٢ج، في مجلدين احد، اورشليم، ١٨٦٥ .



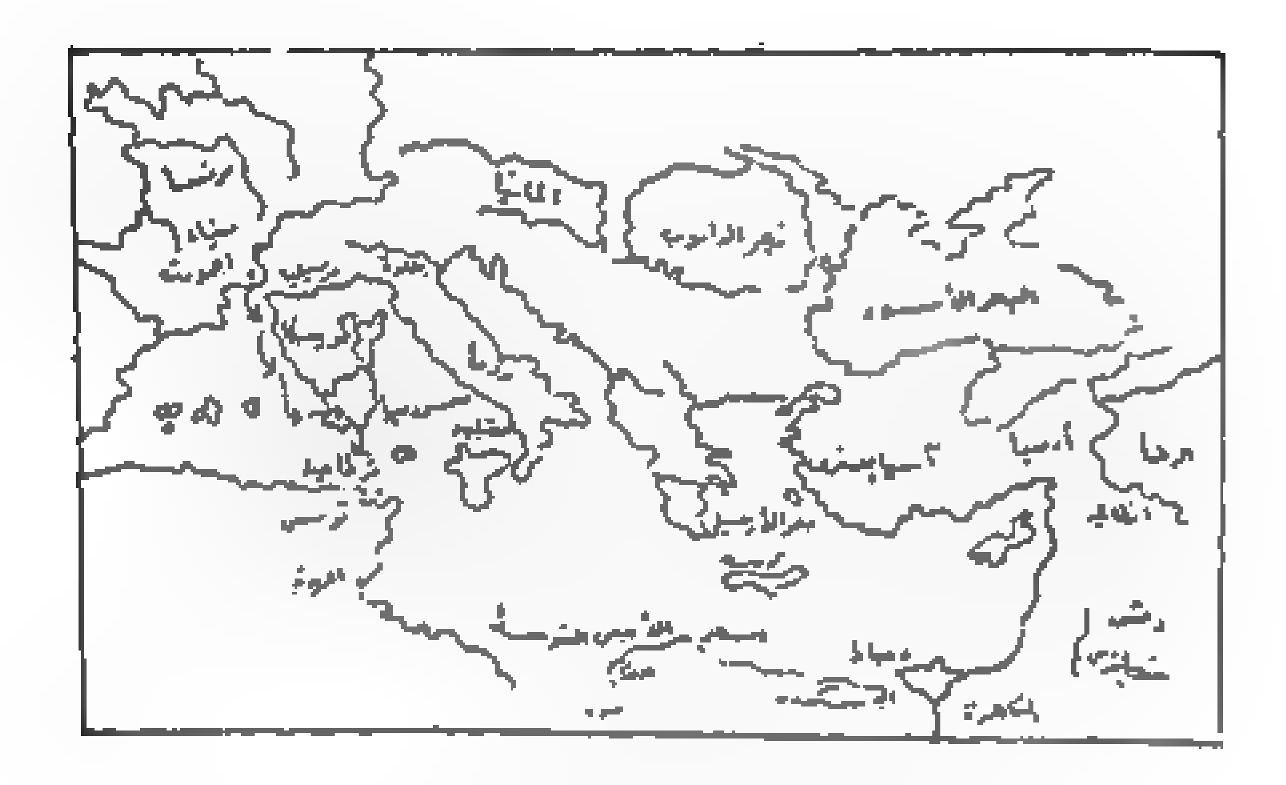
جغرافية تونس وقت وصول الحملة نقلاً عن أطلس التاريخ الإسلامي، ص١٩

مقياس الرسم ١ : ٤٠٠٠٠٠٠

خريطة رقم (٢)



نقلاً عن أطلس التاريخ الإسلامي، ص ١٩



خريطة توضح سير الحملة من ميناء ايجموت بفرنسا وحتى ميناء قرطاجنة بتونس

(نقلاً عن د. جوزيف يوسف: العدوان الصليبي على مصر ص٩٧)

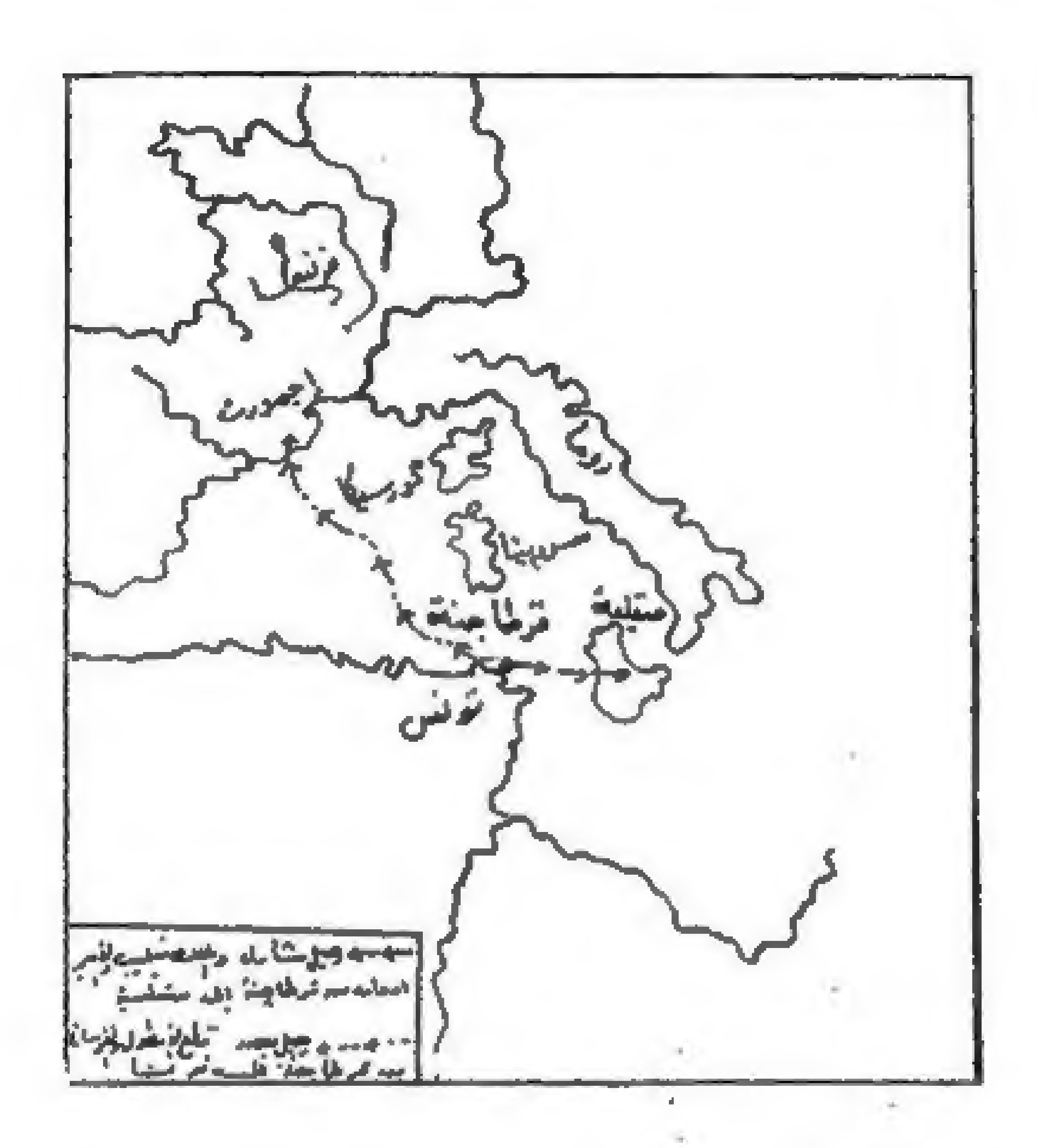


وصف تفصيلي للمعركة التي دارت بين المسلمين بقيادة يحيى بن صالح والصليبيين
بقيادة الملك لويس التاسع (٦ أغسطس ١٢٧٠م/ ١٥ ذي الحجة ٦٦٨هـ)



خريطة توضح تولي المعارك البحرية البرية التي دارت بين الملك شارل والتونسيين (٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ)

مقياس الرسم ١ / ١٠٠,٠٠٠



خريطة توضح خط سير العملة أثناء عودتها من قرطاجنة إلى أوروبا

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٢٥٣٧

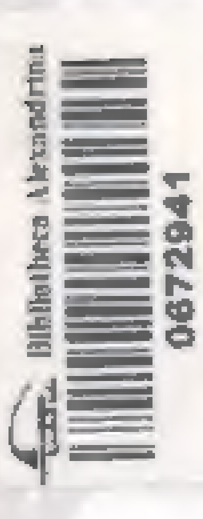
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 322 - 078 - 0

دار روتابرينت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٦٩٤-٢٩٥٠

مهندس / يوسف عز

٥٢ شارع نوبار - باب اللوق







عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES